

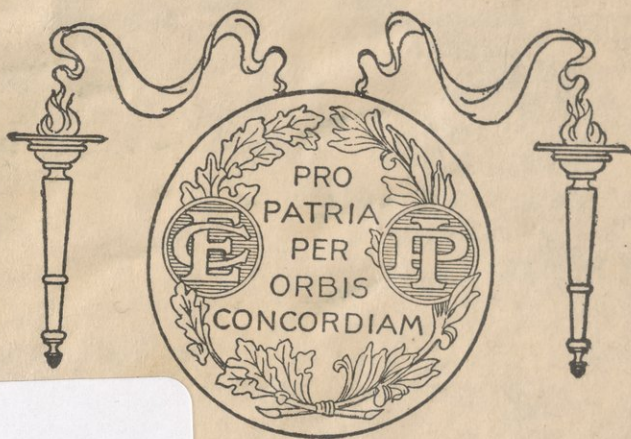
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01109 9623

Ex Libris

*American University
at Cairo*



Gift of
Government for International Peace



04-3677



جولت في ربوع إفريقيا

بين مصر وأرض الرجا لصباح

DT
١٢
M.77
1933

Muhammad Thābit.

Tawlah fi rubū'
Ifrīqiyah.

١٤٤ - ١٩٤



من مشاهدات ساحل مصرى

محمد ثابيت

مدرس الآداب بمدرسة الأمير فاروق الثانوية

سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية بمصر

بالنفس رقم ٣٥٢٢٠٠٠

916
T32

917
ش.م.بو

15758

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

اليوم أقص على بنى وطنى نبأ جولتى فى ربوع أفريقية بعد أن تقدمتها (جولة فى ربوع آسيا) ، (جولة فى ربوع أوروبا) . تلك الجولة التى أيدت لدى ما نعرفه عن (القارة الغامضة) فى شعوبها وحيوانها وأحراشها ومفاوزها وكم كان لبحثى فى تلك الأنحاء لذة دونها ما لقيت فى أوروبا وآسيا أعوامى السالفة ، ففى أوروبا لمسنا مدنية الغرب التى تقوم على المادة بكامل حسناتها من رقى وعمران وما يستتبعه ذلك من رفه وانحلال .

وفى آسيا واجهتنا مدنية الشرق العريقة تلك التى تقوم على أسس معنوية ودعائم روحية لم تفسدها المادة وإن أفسدت منها الرجعية والتمسك بأهداب القديم .

أما أفريقية فقد بدت برية لم يفسدها الدخيل حيث وضحت الفطرة تتجلى فى أنسائها الهمجى وحيوانها البرى ، مما أذكرنى بعصور ما قبل التاريخ يوم كان الانسان ساذجاً يأتى ما توحى به الفطرة وتدفعه اليه الغريزة ، هنا يستطيع المنقب أن يتعقب خطى التطور الأدنى فى كل شئ ، فى بنية الانسان ولغته وعقائده وعاداته ولطالما خال قراء الاسفار أن مجاهل أفريقية

وهمج أهلها قد خضعت جميعاً لوفود المستعمرين ، ولكن تلك فكرة جد
خاطئة ، فالسواد الأعظم من أهل تلك الأصقاع لا يزال حراً لا يعترف
بسلطان ولا يققه للحكم الأجنبي معنى ، وهيهات أن تنال منه مدينتنا
أوتخلف فيه أثراً .

ولشد ما كان أسفى إذ لم أوت من فسحة الوقت ما يشفى للبحث غلة
أويروى للنفس ظمأ ، على أنى أرى فيما قصصت هنا قبساً قد ينير السبيل
والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير الوطن المفدى وأبنائه الأبرار .



نبذة تاريخية

طالما أشاد الناس بذكر (بار ثلوميو دياز) يوم أن طاف برأس العواصف كما همل الكثيرون لمرور السفن من قناة السويس بعد فتحها ، لكن فاتهم أن ذلك لم يكن بالشئ الجديد المستحدث ، فلقد حاول فرعون مصر (نكو) قبل ميلاد المسيح بنحو ستمائة سنة فتح قناة النيل والبحر الاحمر ، والقناة التي تصل بحر أرتريا فتحها سبتي قبل ذلك بسبعائة عام ، وكانت تقطعها السفن في أربعة أيام وكان اتساعها يكفي لمرور سفينتين متجاورتين بمجاذيفهما وقد مات في حفرها في عهد (نكو) اثني عشر ألفاً ، وقد خلف (نكو) عمله هذا غير تام حتى أتمه دارا الفارسي ولحاجته لأرسال أسطوله الحربى تحت قيادة بعض الاغريق ليصل البحرين ، بعث نفراً من الفينيقيين بسفنه وأمرهم ألا يرجعوا إلا عن طريق أعمدة هرقل Pillars of Hercules وهو جبل طارق عائدين لمصر أعنى بعد الطواف حول أفريقيا كلها ، وفى السنة الثالثة من بدء رحلتهم أتموا ذلك وقصوا على الفرعون عجباً ، أنهم وهم يطوفون بليبيا رأوا الشمس ظهراً ناحية يدهم الينى ، أى انها تميل عنهم شمالاً بعد أن كانت وهم فى نصف الكرة الشمالى لا تميل إلا إلى الجنوب بالنسبة لهم ، ويرجح الكثيرون أن المصريين جميعاً هاجروا من أواسط افريقية

في عصور قبل التاريخ وحلوا مصر ويؤيدون ذلك بقرب الشبه بين سحن المصريين الأصفياء وبين بعض قبائل كينيا اليوم نخص منهم — المساي والتوركنا — وقد يكون لآثار زمبابوى في رودسيا علاقة بالمصريين ولا شك أن لنهر النيل العظيم أثراً كبيراً في توزيع الانسان قديماً لأن سير الانسان كان قيد الأنهار الكبيرة ، ولقد سجل الاغريق علاقتهم بشرق أفريقية الى زنجبار منذ القرن الثانى قبل الميلاد ولعلمهم أتباع الفينيقيين والعرب من قبلهم ، ولما أعقبهم الروم وأغرموا بالذهب والأحجار الكريمة لا يبعد أن يكونوا قد فتحوا طرقاً تجارية الى هناك ، ولدينا وثيقة كتبها اغريقى هو (Periplus) قبل الميلاد يصف بعض المين التجارية من ممباسا شمالا ويقص عن زوارق القوم من الشجر المنقور أو الألواح الموثوقة بالحبال وشباك الصيد وتحارة العاج الهائلة وقشور السلاحف وقواد السفن من العرب والقرصان ، وبعض السلع كالقح والنبيذ والزجاج والأسلحة المعدنية ، وبعد ذلك بقرن كان بطليموس يحاضر ويكتب عن جغرافية أفريقية ومنابع النيل مستنداً الى المعلومات التى استقاها من رحلة الاغريق ومن مؤرخى الهنود الذين اعتلوا هضاب كينيا وافدين من السواحل الشرقية .

على أن هناك أسراراً يحار فيها العلماء من بينها كشف أراضى الذهب بين الالمپوپو والزمبىزى فى رودسيا الجنوبية وكذلك بعض الأعمال الهندسية للرى حول الزمبىزى وفوق الجميع آثار زمبابوى (وزمبابوى معناها مصانع الذهب أو مطاحنه) ولا ندرى متى بدأ الانسان استغلال تلك المناجم

وصياغة الذهب ، ويظن البعض أن زمبابوى من عمل البانتو فى القرون الوسطى ويرى البعض أنها من عمل الهنود الدراشيديين والراجح أنها من عمل عرب سبأ عهد سليمان ، وعلى ذلك فرودسيا تعد موطن مناجم الملك سليمان وكان ثغر سوفالا الذى أرسل منه الذهب والعاج والفضة والقردة والطاووس الى أوفير (Ophir) من بلاد اليمن أوسبأ حيث نشأت الملكة (شيبا Sheba) وسلكت طريق القوافل الموصلة الى بيت المقدس وهى التى بعث اليها سليمان وهرون يجلبان منها الذهب والأحجار الكريمة والعقاقير والبخور والعصى الحلوة (قصب السكر)

ويغلب على الظن أن عرب سبأ لم يستعمروا رودسيا بل استغلوا مناجمها وبنوا معبد زمبابوى وغيره واستخدموا فى العمل الهنود والشعوب السوداء يؤيد ذلك الأثر القديم الذى يرى شاخصاً للهنود والعرب فى أهل سواحل أفريقيا الشرقية ، ولا يعلم مبدأه باليقين فالمسعودى يخبرنا عن ممتلكات العرب وتوابعهم من الهنود فى القرن العاشر ، وفى لغة أهل السواحل والجزائر وبعض عاداتهم ما يؤيد صلتهم بالعرب منذ القدم وفى الأقاصيص أن سام (Shem) أب آسيا الصفراء ماهو إلا سبأ وحام أب أفريقيا السوداء هو كوش (Cush) ذاك الاسم الذى نطلقه على بلاد النوبة وهؤلاء ما هم إلا سبأ أيضاً

انقطع حبل التاريخ فترة طويلة الى ٦٠٠ بعد الميلاد وفى ٧٤٠ حمل العرب دعوة الاسلام الى هنالك وقد أجمع المؤرخون على أن العصر الذهبى

لشرق أفريقية هو العصر العربي حين ازدهرت التجارة وقامت المين وفتحت
الطرق في داخل القارة ، وكان سكان افريقية هم الخدم والأتباع لأن العرب
أقاموا نفوذهم على الرقيق وتسخيره في الزراعة على طول السواحل الخصبية ،
تلك التي أضحت أهراء بلاد العرب ، وقد ربت المحصولات لدرجة
بررت اعتبار افريقية بالنسبة لآسيا في القرن الثامن كموقف أمريكا من
أوروبا اليوم ، وغالب مدنها الساحلية بين كلوا ومجديشو لا تزال قائمة الى
اليوم ، وبعد انتشار الاسلام قام زيد حفيد على كرم الله وجهه على رأس
طائفة من الملحدون وحلوا سواحل شرق أفريقية إلى خط الاستواء وامتزجوا
بالأهلين وبعدهم بقليل وفد كثير من المسلمين وطاردوا أشياع زيد وتقدموا
الى سوفالاحيث وجدوا الذهب فاستقروا هناك ، وقص المسعودي - الذي زار
أفريقية - في كتابه (مروج الذهب) عن العرب والفرس الذين سلكوا طريق
الرياح الموسمية من مدغشقر وشرق افريقية الى ساحل ملابار وسيلان ، والسفن
التي كانت تسير بين البحر الأحمر والخليج الفارسي وسوفالا وعن اقزام
البشمن الذين أساهم (واق الواق) وعن زنوج البانتو الذين كانوا يجتاحون
البلاد جنوبا ويتبادلون الذهب والعاج وجلود الفهود وقشور السلاحف مع
العرب لنقلها لأسواق الهند والصين .

وفي القرن الحادي عشر قام طائفة من الشيعة الفرس وحلوا ثغر كلوة
وكانوا خصوم مسلمي العرب هناك وغالبوهم وأشرفوا على سوفالا وملندة
ومباسا ومبا وزنجبار ومافيا وموزمبيق وكان لهم محاط عند الزيبزي وفي

مدغشقر والجزائر المجاورة وقد جاء ابن بطوطة يقص علينا نبأ نفوذ العرب
التجارى فقال بأنهم كانوا يقيمون المدن على الجزائر التى يسهل حمايتها ،
واستبدلوا بيوت الطين والخشب القديمة بيوتاً من الحجر بسقوف مسطحة
وأفاريز تطل على أزقة ضيقة متلوية ، وقد قامت سراي السلطان تواجه
البحر ، وكانت مآذن المساجد تبدو مشرفة وسط المساكن وحول تلك البيوت
البيضاء نسقت الحدائق وبواسق النخيل ، وكانت طبقة الارستقراطيين
والأغنياء من العرب تسير بأرديتها الفضفاضة فى شىء من الوقار والأبهة وسط
الطرق وقد ميز المسلمون عن كافة الألوان بلبس العمامة وحمل السيف حتى
ولولم يكن بعضهم يرتدى من الملابس شيئاً ، وكان السيف هاماً لديهم
لكثرة الخصوم وتعدد المنازعات بين مسلمى العرب والفرس وبين أرفض
(زيد) وبين السنين العرب والشيعة من الفرس وبين الكفرة من السود
لابل وبين كل أولئك . على أنه رغم كل ذلك فقد امتزج العرب بالبانو
وكان المولدون من أولئك واسطة جلب المتاجر من الداخل ولم يتوطن
العرب فى الداخل بعيداً عن السواحل بل كانوا يستفيدون من الضرائب
على طريقة قرطاجنة وكانوا ينقلون متاجرهم فى سفنهم المساة (dhows)
التى لقبت بطيور السماء العظيمة تلك التى غالبت الرياح الموسمية إلى قاليقوت
وكان يديرها المولدون ، وكان الوسطاء فى قاليقوت من الأروام وأهل
الشرق الأقصى الذين وفدوا بالبهار من جزائر الملوك وبالأخشاب العطرة
والحرير من الصين واليابان .

ثم أقبل عهد (ماركو پولو) في القرن الثالث عشر فوصف الاقليم قائلاً
أن أهل زنجبار عبدة أصنام جسومهم ضخمة يأكل الواحد من الغذاء ما يكفي
خمسة أشخاص وهم سود يسرون عرايا وأشكالهم كأنها الغفاريات طعامهم
اللحم واللبن والأرز والبلح ، وقال بأن الفيل والزراف يوجدان هناك بكثرة
وأن أهلها شجعان بواصل في القتال يحاربون على ظهور الفيلة والابل ، على
أن البعض يشك في صدق تلك الرواية لأن (پولو) لم يزر الجزيرة بنفسه

وقد وصف أحد مؤرخي القرن الرابع عشر أهل مجدشو بأنهم نهمون
في الأكل دباغون يلبثهم الواحد غذاء جمهور كبير وحده ، وأن ممباسا مدينة
كبيرة تغص بالموز والليمون وأن أهلها دينون شرفاء وأن (كلوا) بيوتها
من خشب وقد ظل ملك السلاطين فيها خمسمائة سنة ويظهر أن غالب الناس
والحكام هناك كانوا من المنفيين من بلاد فارس

البرتغال : على أثر تقرير قدم للملك البرتغال سنة ١٤٨٥ يحبذ زيارة

أملاك العرب الشاسعة في شرق أفريقيا ، أرسل فاسكوود جاما مع أربع سفن
بجارتها من المجرمين الذين وعدوا باطلاق صراحهم في الشرق لكن استقبال
البرتغال هناك كان قاسياً إذ دخلوا في نزاع مع العرب دام قرناً كاملاً ، وأخذ
نفوذ البرتغال وأمبراطوريتهم يمتد وساعدها انقسام العرب وضعفهم في البحر
عن أعدائهم ، وكان غرض البرتغال في البدء تجارياً وقد حنقت عليها
البندقية سيدة تجار البحر الأبيض إذ ذاك ، ومصر التي خشيت ضياع
٢٩٠ ألف جنيهه كانت تردها في العام مكوساً تجارية ، فتعاون كل أولئك على

البرتغال لكن شاءت المقادير أن ينتصر (المايذا) على المصريين والعرب في واقعة (ديو) وبذلك أصبح المحيط الهندي بحراً برتغالياً لمدة قرن . على أن البرتغال لم يتوغلوا في داخل أفريقيا لوحشية الأهالي ولا كثرة الأوبئة لذلك لم يحس نفوذهم في الداخل خصوصاً وأنهم لم يستخدموا العرب وسطاء لهم خوفاً منهم وحنقاً عليهم ، ولقد بدأوا أعمال التبشير لكنه لم يجد فتية رغم اختلاط جنودهم بالسود والهنود ومصاهرتهم مما أضعف نفوذهم حربيّاً ، ولقد تدهوروا مدنياً لأن سياستهم كانت تقوم على الابتزاز والاسلاب ليس غير ، وأتم انحلال نفوذهم ضم فيليب بلاد البرتغال لأسبانيا فأصبح أعداء اسبانيا الكثيرون أعداء للبرتغال ، وبدأت مزاحمة هولندا وانجلترا وفرنسا لهم . تقدمت أساطيل هولندا إلى جنوب أفريقيا وأقامت شركات تجارية والهولندي بحكم طبيعة بلاده وسيط تجارى على أن عيهم كان عدم التضامن فهم اعتادوا القيام جماعات صغيرة لا يهتم جيرانهم من بني جنسهم مما دعا شركاتهم إلى التنافس الذي أضعفهم ، وزادت هجرة الأوروبيين إلى الكاب هولنديين وألمان وفرنسيين خصوصاً طوائف الهوجنوت الذين فروا من فرنسا إلى هولنده فشجعهم هذه على السفر لجنوب أفريقيا وتضاهر الجميع مع السود والهنود فكان منهم شعوب البوير (المزارعين) وقد ساعدتهم نزعهم إلى الرعاية على الارتحال بعيداً في داخل القارة وافدين من الجنوب ولذلك نقلوا عناصر مدنيّتهم إلى قلب أفريقيا

بدأت مزاحمة الانجليز بعد أن أخذوا الغلبة في البحار وتحول المركز المالى

العالمى من امستردام إلى بنك انجلترا فى لندن وقام أهل اسكتلنده المعروفون
بالمثابرة إلى جانب الانجليز المعروفين بالمغالبة والمخاطرة فى شىء من الحرص
وساعدهم على الفوز افتقار الشركة الهولندية إلى الحكمة حتى فسد موظفوها
وابتزوا منها الأموال الطائلة مما أضعف ماليتها ، أضف إلى ذلك خسائر
الحرب وكره الأهالى لها أولئك الذين بدأوا يطالبون بالاشتراك فى حكومة
البلاد وألحوا فى دستور مسطور خصوصاً بعد أن نجحت ثورة أمريكا
ضد الاستعمار .

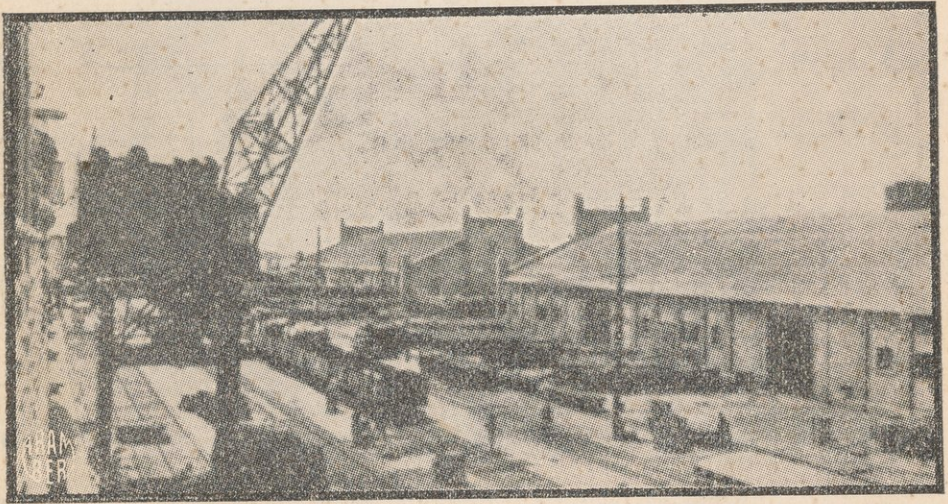
وصلت سفن الانجليز وأمنت السكان على متاعهم ومنحتهم حرية
التجار وأبقى الموظفون فى أماكنهم إلا الوظائف الرئيسية التى أخذها الانجليز
لأنفسهم ومال الانجليز إلى كلنزة البلاد لكن اللغة الهولندية كانت لغة
الكنيسة ، أما لغة الكلام فكانت الانجليزية إلى جانب الهولندية ، وطالب
الناس بجعل أفريقية للأفريقيين ، وأخيراً تأسست جمهوريتان الترنسفال ،
وأورنج الحرة ، ثم توحدتا فى جمهورية واحدة ثم أوجد نظام جمركى بين كل
ولايات جنوب أفريقية شبيه (الزلقرين) ودخلته رودسيا الجنوبية لكن
محيت الجمهورية وضمت لاتحاد جنوب أفريقية تحت إشراف بريطانيا ،
ولا يزال يحن كثير إلى العصر الجمهورى وبعضهم يرغب فى حكومة الدومينيون
وقد خرجت رودسيا من الاتحاد لأنها أقل خبرة وعلماً وأندر سكاناً ، وقد
حاول الجنرال (سمطس) ضمها مؤيداً رأيه بأنها استعمرت من الجنوب
وبأن قانونها مقتبس من قوانين الاتحاد كما أنها كانت عضواً فى الاتحاد

الجرمى وهى لا تستطيع وحدها الوقوف مالياً بدون مساعدة الاتحاد إلى ذلك
اتمام الصلة الحديدية بينها وبين الكاب

أما فى شرق افريقية فقد عاد للعرب بعض نفوذهم القديم خصوصاً حول
زنجبار وفى عهد أظهرهم نفوذاً (السلطان سيد سعيد) ثار عليه زعيم شعوب
(مزروى) وطلب حماية الانجليز لممباسا لسوء معاملة السلطان لهم فأعلنت
الحماية ورفع العلم البريطانى لأول مرة هناك وتحالف السلطان سيد سعيد
مع الانجليز ونقل مركزه الرئيسى من عمان الى زنجبار وتضامن مع الانجليز
فى منع الرقيق وأقام قصوره فى الجزيرة . ولما مات تنازع خلفاؤه الحكم
فتدخلت انجلترا وزادت مصالحها فى شرق افريقية فرفعت الحماية على زنجبار
نفسها ، وكان كبار الكاشفين الانجليز قد أوغلوا فى افريقية وفى سنة ١٨٨٦
اتفقت الدول العظمى على تحديد ملك سلطان زنجبار كخطوة لاقتسام شرق
افريقية ، وأخذ الألمان يزاحمون الانجليز هناك وأرغموا سلطان زنجبار أن
يتنازل لهم عن جزء من ساحل افريقية بسطوا عليه حمايتهم لكن الشركة
الانجليزية التجارية قاومت ذلك ومدت سكة الحديد من ممباسا الى فيكتوريا
ولما كسدت تجارتها تنازلت عن أملاكها لسلطان زنجبار مقابل مبلغ من
المال ولا يزال علم زنجبار الأحمر يرفرف على حصن ممباسا وتدفع حكومة
كينيا ستة عشر ألف جنيه سنوياً مقابل احتلالها للسواحل ومنذ سنة
١٩٢٠ أصبحت كينيا مستعمرة للتاج ما خلا شريطاً ساحلياً ضيقاً فهو حماية
لأنه من أملاك زنجبار .

بدء الرحلة

الى بور سودان : غادرنا بور سعيد عصر الأربعاء نشق قناة السويس جنوباً ثم أوغلنا فى خليج السويس الذى كانت تبدو سواحله على الجانبين تارة تنأى وطوراً تقترب إلى أصيل الخيس حين دخلنا البحر الأحمر وظل الساحل المصرى بادياً . وفى باكورة الجمعة كنا وسط الماء



(ميناء بور سودان)

لا تبصر العين من اليابسة شيئاً وفى غداة السبت أقبلنا على بور سودان . حلات المدينة فبدت صغيرة جديدة ليس بها ما هو جدير بالذكر طرقاتها نظيفة وفى استقامة وعلى جوانبها تقوم المباني الحديثة فى طابق واحد ومظهر المدينة مجذب عار عن النبت لا تكاد العين تقع على خضرة قط ويزيدها جذباً جبالها المقفرة التى تحيط بها من كل جانب اللهم إلا جون من البحر

طمر القوم جانباً منه وأقاموا الميناء عليه والأرصعة مزودة بالروافع الثقيلة تجرى على قضبان تؤدي من السفن إلى حظائر السلع ما صدر منها وما ورد ، وأظهر بناء إذا أقبلت على المدينة من الميناء ، دار المديرية من طابقين كان يعمل سارياتها العلماء المصري إلى جانب الانجليزى وأهل المدينة أخلط من السود يتكلمون العربية والإنجليزية . وكان عمال الميناء من قبل من مهاجري اليمن لكن الحكومة رأت أن تخص الوطنيين بهذا العمل فاستقدمت من داخل السودان جماهير يقومون بالنقل مقابل أجر خمسة قروش فى اليوم وأعجب قبيلة كانت تبدو بينهم البشارية يرسلون شعورهم تتدلى على أقمعتهم فى جدائل رفيعة وشعر الناصية يترك منفوشاً وقائماً فى كرة ، وجو المدينة لافح محرق شديد الجفاف ذاك لأن أمطارها تسقط فى الشتاء وبمقادير قليلة إلا إذا صادفهم السيل وعندئذ ينذر بالخطر ومن هذا الماء يملأون أحواضاً يرشون الماء فيها ويستقون منها ، وهناك وراء الجبال عند منازل المطر نطاق ضيق تكسوه الخضرة وهو المكان الوحيد الذى يستنبتونه فى هذا الأقليم القفر .

غادرنا المدينة فأنعشنا نسيم البحر قليلاً ، وقد كان جو البحر الأحمر هذا العام جميلاً فى الجملة ولم نحس ذاك السكون الخائق الذى كابدهناه عامنا الفائت فى طريقنا إلى الهند والصين واليابان ، ويظهر أنه لا يكون إلا فى أواخر مايو ، على أن الحرارة أخذت تتزايد من يوم لآخر ، وفى يومين دخلنا :



(طريق كلنديني يشق غابات المساجو - ممباسا)

عدن : مجزأرها المحدبة الجافة تقام البيوت والحصون على منحدراتها
المواجهة للقارة ، وكان ساحل القارة يبدو جلياً وطيفاً على بعد ، وقد نزلت
المدينة للمرة الثانية فلم أستزد منها بشيء جديد ، صخور عاتية عريت عن
النبت يكاد يصهرها وهج الشمس ، وفي الأصيل برحناها والماء هائج مضطرب
أنذر بمرض البحر وأخذ ذلك يتزايد حتى انقضى اليوم التالي وظهر إلى

يمينا قرن أفريقية عند رأس (جوار دافوى) في حائط صخرى مجذب مخيف
يتمد إلى الآفاق وهنا تغيرت الظروف الجوية فأضحت الريح جنوبية وبليلة
كادت قطرات ضبابها تكسو الجبال على بعد منا ، وأخذت الريح الموسمية
هذه تزار في شكل مخيف حتى لم ينبج فرد من مرض البحر وظلت السفن
تترنح طوال يوم الاربعاء وبعض الخميس وخف الحر الذي عودنا أياه البحر
الاحمر ، وكان الهواء بارداً عاصفاً بليلاً يحس المرء أنه مشبع بالرطوبة ذاك
البلبل الذي هو سر فيض نيلنا الغامر ، وخصب بلاد الهند النادر ، وكانت
السماء تتلبد بالغيوم الثقال ولبثنا وسط هذا المحيط الزاخر القاتم الرهيب
يومين ثم عبرنا خط الاستواء جنوباً فتحسنت حالة البحر نوعاً وخفت
حدة الريح وندرت سحب السماء وأضحت متقطعة ، وكان ينعشنا الأمل
بوصول أرض ممباسا في الغداة كي نجد عوضاً عن هذا البحر الممل ولو
الى حين .

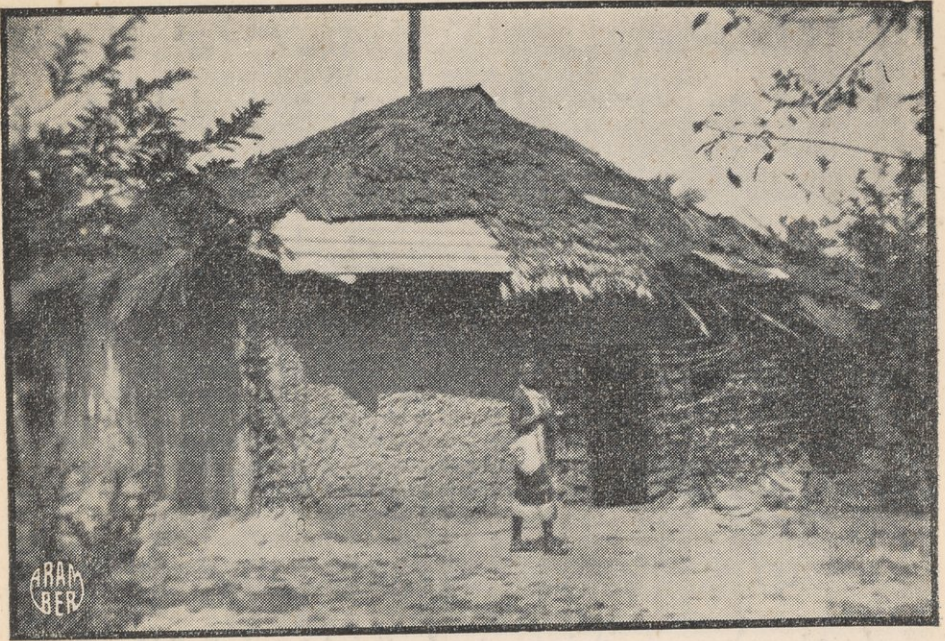
ممباسا : في ستة أيام من مغادرتنا لعدن القت الباخرة مراسيها على
أرض ممباسا ، وهي جزيرة ذرعها ميلان في ثلاثة ، تسمى ملكة الجزائر
المرجانية إذ تحفها هالة من شعاب المرجان وبدت في خضرتها الوفيرة القائمة
كأنها زمردة ألبست فجوة من شرق أفريقيا ، وفيما بينها وبين القارة يتلوى
البحر في مخابئ آمنة جعلت الميناء من أجمل مين شرق أفريقيا وأمنعها على
الاطلاق ، ولقد كانت الميناء القديمة تقوم شمال الجزيرة لكن الانجليز
اتخذوا ساحلها الجنوبي مرفأً لأنه أفسح مجالاً وأبعد غوراً فأقيمت عليه



(على حافة قلعة ممباسا)

الأرصفة الممتدة تقوم عليها العنابر والروافع التي تديرها الكهروماء ويطلق
القوم على هذا الجزء : مرفأ كلنديني ومعناه بلغة السواحليين مكان الماء
العميق ، نزلنا إلى رصيف الميناء با كورة الصباح وكانت الجزيرة تعلو
تدرىجا فى منحدر من صخر الجير المهشم القديم فسلكتنا سبيلنا صعوداً فى
طريق (كلنديني) الذى يشق الجزيرة نصفين وتقوم عليه المباني الرئيسية

من متاجر ودور للحكومة وبيوت منسقة والطريق تحفه الغابات ذات
 الاشجار الوارقة الباسقة على اختلاف أنواعها ولا تكاد تخلو قطعة من الأرض
 من النبات والعشب الوفير فهو كسائر طرق الجزيرة قد شق وسط غاباتها
 الكثيفة وكان أظهر الشجر المانجو، الذي كنا نرى ثمره ملقى على الأرض
 في كثرة هائلة ولا يعنى المارة بأمره فثمنه هو وسائر الفاكهة الاستوائية
 زهيد للغاية فقد كنت أنتقى أطيب المانجو من بائعه بمليمين ولما أتينا على
 آخر الطريق بدت القلعة التاريخية تطل على الميناء القديمة — ويسمونها
 قلعة يسوع — شادها البرتغال سنة ١٥٩٣ يوم أن أصبحت ممباسا عاصمة
 دولتهم الافريقية لكنها سقطت في يد سلطان ممباسا سنة ١٦٣١ حين
 قتل جميع البرتغاليين في المدينة ، وبعد أربع سنوات استعادها البرتغال
 وأعادوا بناءها وفي ١٦٩٦ بدأ العرب حصارهم العظيم الذي دام ثلاث سنين
 وانتهى بفتح القلعة وقتل ما تخلف من حاميتها ، وهى اليوم سجن ويزرع
 تحويلها الى متحف ، وفي مدخل تلك الميناء كاد قاسكو دجاما يفقد أسطوله
 لأن قواد سفنه وكانوا من العرب تأمروا على تدميره فاتفق اثنان وسببا
 اصطدام سفينتين تحطمتا ولما قبض عليهما وعذبا بصب الزيت المغلى في
 جسدتهما اعترفا بأنهما فعلا ذلك انتقاما للعرب فشنقا قصاصا واثماسكو دجاما
 شارع صغير باسمه وعامود تذكارى كأنه قمع السكر شكلا ولونا
 وممباسا كانت منذ القرن الثامن حصنا للعرب منيعا تحت أئمة عمان
 ومسقط وكانت أكبر أسواق للرقيق إذ ذاك ، ولما كشف البرتغال طريق



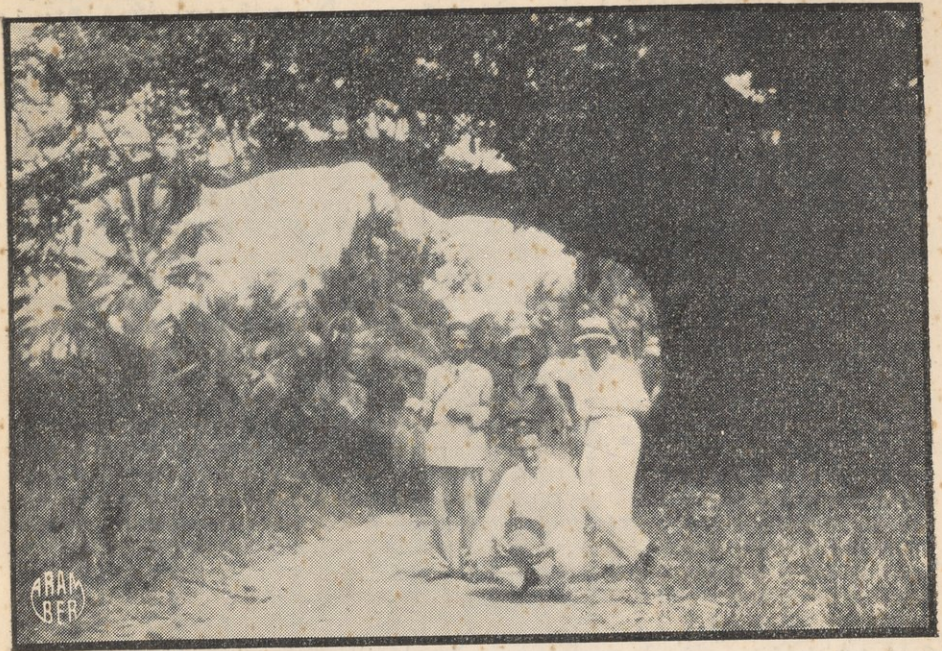
(مساكن ممباسا من جدائل العصى تسد بالطين)

الرأس وجدوا في مرافئ شرق أفريقية أماكن آمن من البحر وغوائله تلك التي قاسوها في جنوب أفريقية ، وفي سنة ١٥٠٩ حاز (المايذا) قائدهم النصر في إحدى معارك التاريخ الحاسمة هي (واقعة ديو) حين دمر أساطيل العرب والمصريين مجتمعة وضمن للبرتغال احتكار المحيط الهندي لمدة قرن من الزمان كامل ، ولا يزال يطلق القوم على الجزيرة (كسيواتشامقينا) أي جزيرة الحروب

ومدينة الأهالي هنا أشبه بقرية صغيرة تقام بيوتها وكأنها الأخصاص من شبك العصى والأعواد تملأ فضاءاتها بالطين وسقوفها متحدرة تكسى بالقش أو صفائح المعدن والبيت في مجموعه مربع الشكل والطرق أزقة متلوية

في غير نظام ، وكنا نرى جمهرة من تلك الدور بين فجوات الغابات الفطيرة
والسكان أخلط من بينهم ٧٥٥٦ من الهنود ، ٧٥٢٣ من العرب ، ١١١٩
من الأوروبيين ، ٢١٣٥٢ من السود ومجموع السكان حوالى ٤٥ ألفاً
يتكلمون لغات مختلفة أخصها : السواحلية : وهى خليط من لهجات البانتو
مع العربية ، وكنت أتلمس فى كل جملة كلمة أو اثنتين أفهم بهاسياق الحديث
وتكتب بحروف عربية وهى اللغة الرسمية فى شرق افريقية فكنت أراها
تكتب إلى جانب الانجليزية حتى فى الاعلانات ، فمثلا عند منحنيات الطرق
كنت أجد كلمة (أصبر) بمعنى خفف السير وعند بائع الماء ترى كلمة (ماج)
ومن الكلمات الشائعة : (زمانى) بمعنى من زمان مضى و (بريدى) بمعنى
البرد و (كرتاس) بمعنى الورق و (سفرى) بمعنى الرحلات (ومبارك)
للتحية و (دوى) للدواء ، واللغة السواحلية سائدة فى شعوب السواحل
جنوبا إلى الناتال ومن ممباسا إلى فكتوريا نيانزا فى داخل افريقية .

والشعب السواحلى وليد اختلاط العرب بالزنج فهو من أب عربى
وأُم زنجية ، وهم يعيشون اليوم عيشة خمول فى السهول الساحلية ذات النبت
والشجر الوفير وقد كانوا تجار عاج ورقيق من قبل ، ولما حرم الاتجار بالرقيق
أهمل العرب مزارعهم لأنها كانت تتوقف فى فلحها على أيدي الرقيق ،
وكان هؤلاء يحبون سادتهم من العرب ويختلطون بعائلاتهم لأنهم كانوا
يعاملون معاملة حسنة ، وكانوا لذلك أصحاب الجسوم لكنهم بعد إلغاء الرقيق
فقدوا سادتهم ولم يستطيعوا العمل وحدهم فأضحوا وكأنهم الغنم فقدوا راعيهم



(نقف تحت شجرة (البواب) في غابات شرق أفريقية)

كذلك العرب فأنهم اعتادوا من قبل حياة السادة يشرفون على عبيدهم
فحسب فلما فقدوا عمالهم لم يستطيعوا مباشرة العمل وحدهم فكان من نتائج
هذا التحرير أن انحط النوعان السيد والمسود وتدهورت حالة الانتاج في
الأراضي الخصبية الساحلية ، والعرب هناك لا يزالون يفاخرون بحسبهم
القديم ويتمسكون بأهداب من العزة واهية في فلول قصورهم المتوارثة في
مدن السواحل ولا يزالون يحتقرون العمل اليدوي ويظهرون شيئا من
كبريائهم القديم كئنا نلمحه على وجوههم وهم آخذون في التدهور السريع
لا بل والافتراض أمام المزارعين من الأجانب أسيويين وأوروبيين ، ويقال
عن السواحليين أنهم مبذرون كسالى على أنهم قوم مرحون قانعون بما يلقون

يشتغلون بجد أسبوعاً من كل شهر وما يكسبون يسدون حاجاتهم بقية الشهر وكفاهم فخراً أنهم نشروا لغتهم التي أصبحت لغة التعارف بين كثير من وسط أفريقية وشرقها .

وفي ممباسا طائفة من أصفياء العرب تحكى لهجتهم لهجة اعراب البادية في مصر على أنهم قدرون ومتأخرون ويشبهون في السحن مسلمى الهنود الذين يكثرون هناك والمدينة مظهر اسلامي في تعدد مساجدها وهم يتمسكون بشعائهم لا يحيدون عنها أما سحن الزوج فمنفرة للغاية بقاماتهم القصيرة وأنوفهم المفرطحة والنساء أشد قبحاً ، يلبس غالبهم الطربوش تتدلى خصلته الغليظة الملونة (فيما يحكى « زر » العمامة) على جباههم وكأهم البلهاء .

وممباسا تقع إلى جنوب خط الاستواء بأربع درجات وكان الجو مدة إقامتي بها جميلاً أميل إلى البرودة إلا أنه رطب فالسما قلما كانت تخلو من الغيوم ولم أشعر وأنا بها أنني أقارب خط الاستواء بحره القائظ على أنه إذا بزغت الشمس فانك تلاحظ فرقاً عظيماً في الحرارة إذ ترسل الشمس أشعتها الرأسية فتسكاد تحرق الجلد فاذا ما حجبته سحابة — وكثير ما هي — انتقلنا من وهج المنطقة الحارة إلى نسيم الجو الأوربي البليل والموسم البارد هناك بين ابريل وسبتمبر ، ويلفت النظر أشجار عتيقة هي بقايا أشجار (البواباب) التي نمت أبان سيادة العرب والبرتغال وقد اعوجت أعوادها بمضى السنين وكثرت تجاعيدها وفروعها بحيث كانت تبدو الشجرة وكأنها أربع شجرات أو ست ضمت إلى بعضها وتشعبت كل في أعلاها تشعباً مستقلاً عن جارتها



والميناء صاحبة تظل
حركة الشحن والتفريغ بها
دائبة وهي الميناء الرئيسية
لمستعمرة كينيا ، والمنفذ
الوحيد للمتاجر أوغندا إذ
يصلها بالبحيرات خط
حديدى وكذلك تصرف
عنها بعض متاجر تانجانيقا
والكنغو وأشهر ما تصدره :
البن الذى يزرع فى مساحات
شاسعة فى كينيا ثم السيسال
وهو نبات كالصبار يدق
فيصبح أليافاً صفراء براقية
لكنها خشنة تحكى الليف

الأبيض من نخيل مصر (سن الفيل قد يبلغ ضعف قامة الرجل طولاً)
وينسج للأشعة والغرائر والحبال ومن المواد الصادرة من هنا القطن
ذوالليفة القصيرة وقشور شجرة (Wattle) تستخرج منها الأصباغ وكذلك
العاج ، وقد زرت فى ميناء ممباسيا مستودعاً للعاج تجمعته الحكومة وتصدره

تحت اشرافها بمقادير وفيرة ومن الأسنان ما كان بالغ الطول زنة أكبرها
مائتا رطل أعنى أن الفيل الواحد قد ينتج أربعة قناطير ، ويختلف العاج
جودة باختلاف الحيوان سناً ونوعاً وكان ثمن الرطل الغفل من النوع الجيد
خمسین قرشاً ويصدر الخريت بقلة وقرنه قصير وفي مخروط مقوس إلى الخلف
وثن الرطل منه سبعون قرشاً

وغالب الأعمال التجارية يقوم بها الهنود أما باقي الأهليين فأجراء وقد
قيل لى أنه بسبب الكساد العالمى الحالى اضطر نحو نصف الجنس الأبيض
وبخاصة أصحاب الأعمال الكبرى من الانجليز أن يهروا البلاد ، وقد
لاحظنا الكثير منهم يعودون لانترا لكساد أعمالهم هنا وهاهى باخرتنا
غصت بهم يوم برحت ممباسا

قامت باخرتنا (لالجي كاسل) تشق ماين جزيرة ممباسا إلى اليسار
وأفريقية إلى اليمين وكانت الشواطىء وفيرة النبات وبخاصة شجر المانجو إلى
اليسار والرجيل الى اليمين والساحل مشرف رأسى ومن صخور الجير الذى
أصفر بمضى السنين وفي خمس ساعات أقبلنا على بلاد تنجانيقا :

تانجا : قررت عيوننا فى باكورة الصباح بجمال المناظر حول تانجا
التي دخلناها فى الليل ونحن نيام ، خليج تحفه الجزائر الصغيرة المترامية وفوق
الجزيرة الكبيرة أقيمت المدينة ببيوتها المنشرة ثم طغت على جوانب الخليج
قبالتها حيث يصب نهر سيجى Sigi الصغير ، وقد كانت عهد الألمان أولى
ثغور تانجانيقا لكنها اليوم فقدت شيئاً من شهرتها ولا يزال يصدر منها



(بعض سيدات السواحليين من المسلمات)

فوق ثلث حاصلات البلاد والأقليم حولها غنى بمزارع السيسال والكبرا
وفوق المرتفعات البن والشاي وهى منفذ طبيعى لأقليم كينجارو أهلها أحد
عشر ألفا من بينهم ٥٦٣ من البيض و٤٥٨١ من الآسيويين هاجمها الانجليز

سنة ١٩١٤ لكنهم ردوا بنحسائر فادحة ، وفي سنة ١٩١٦ فتحها الجنرال
(سمطس) ولا تزال ترى باخرة ألمانية صغيرة غرقت هناك أبان الحرب .
أقلتنا سيارة طافت المدينة وهى على نمط دار السلام ثم أوغلنا فى مجاهل
الغابات خلفها فهالنا ما بها من فصائل النبات الملتف المتعانق بين صغير وعملق
وخلاها قطع القوم فجوات زرعوها من السيسال والتايوكا لكن غالب
الأراضى مهمل يحتاج فى زرعها واستغلاله إلى جهد كبير حتى تستأصل تلك
الطفيليات التى كنا نمر خلالها فتغطى جموعنا تماماً بعضها فى أعواد وأوراق
كأنها قصب السكر والبعض شجيرات أوراقها مهفهفه خفيفة عريضة ، هنا
ذكرنا حقاً مخابىء الوحوش التى خبرنا السائق عنها طويلاً وبخاصة السبع
والشيتا نمر أفريقية الأرقط وبيننا نحن نتحدث إذا بجمهرة من القرده فى
أحجام مختلفة تجرى على بعد وتتسابق إلى الشجر وهنا قال الرجل بأن هذه
القرده أضحت من أكبر المنغصات هناك لابل وفى باقى أفريقية إلى أقصى
الجنوب فهى تسير فى جماعات وتهاجم حقول الذرة ويقف منها حارس
أو اثنان للرقابة ولا يفتأ الباكون يقطعون أكواز الذرة ويولون سراعاً ،
لقد اتبعوا فى مطاردته طريقة عجيبة هى أن يصاد واحد فى فتخ ثم يحلق شعره
كله ويطلّى جسده بدهان أزرق ويطلق صراحه فاذا أتى عشيرته وراه
الجمع هكذا خشى أن يحل به مثل ذلك فينقطع الجميع عن زيارة تلك البقعة
مدة طويلة هروباً من ذاك المنظر الخزى !

أدى بنا التسيار خلال تلك الغابات إلى مغاورها من الصاعدات



(وسط الغابات المغلقة في تانجا)

والداليات والفجوات ما يشعر بمرور نهر تحت الأرض ثقب الصخر هكذا والمنطقة حولها جد موحشة لولا مانري من جموع الفراش رائع النقوش ومن أسراب الطيور الغريذة في ألوانها الساحرة ، وبعد أن سرنا طويلا فاجأنا نهر يكاد يغطيه كثيف النبات وخليعه ومن الشجر الذي استرعى أنظارنا (البواب) الشامخ ، وكان له ثمر كأنه أكواز الشام الكبير يغطي قشوره وبر أملس ناعم إلى ذلك شجر متعدد الثمرات من بينها ثمرة حمراء هادئة كأنها التفاح قلبها ناصع البياض تتوسطه نواة ضخمة كسواة المانجو ويسمونها القوم بالسواحلية (توفاه) بمعنى تفاح ، والجوافه والمانجو التي أثقلها الثمر دون أن تجد صاحباً يستغلها . هنا حط رهطنا الرحال وأخذنا نأكل من

ذلك الثمر الشهى حتى امتلأنا بطوناً وجيوباً ، ويتخلل كل أولئك شجر
الترجيل الذى لا يغيب عن العين . طال بنا التجوال والركوب زهاء ساعتين
بين وهاد ونجاد فهمنا خلالها معنى الغابات الكثيفة حقاً فى رهبتها ووحشتها
وجملها الرائع

زنجبار : فى أربع ساعات بدت أرض زنجبار فى شبح فاتر لبث كلما
قار بناه يجلو فى جزائر صغيرة منشورة حول الجزيرة الكبيرة وحول الجميع نطاق
أبيض ناصع من تكسر موج البحر على جسور المرجان الذى يحيط بها وكان
النبت الوفير يكسوها جميعاً وفى أكثر من ساعتين رسونا على بعد من
الأرصفة وأقلتنا الزوارق الصغيرة إلى الشاطئ فبدت المدينة شبيهة بناحية
الميناء القديم فى الاسكندرية طرقها مختنقة لكنهما نظيفة وغالب بيوتها من
طابقين فى هندسة بين العربية والمصرية ويواجه الميناء قصر السلطان القديم
فى منظر لا بأس بأبهته فى أعمدته التى تحوط طوابقه كلها ويسمونه (بيت
العجايب) وهو اليوم دار الحكومة كان يرفع عليه علم البلاد فى قماش
أحمر وبجانبه القصر الجديد للسلطان على مدخله لوحة نحاسية كتب عليها
(السلطان الخليفة سيد) وهو عربى يلبس عمامة شبيهة بعمامة الهنود ومن
هنا أقلتنا الركشا إلى أرجاء عدة من المدينة أخصها شارع (دارا جينى)
وهو بجانب شعبة من البحر كأنها القناة الضيقة عليها قناطر عدة يصل بها
القوم الى مسكنهم الوطنى وهو أخصاص تقام على شاكلة تلك التى فى ممباسا
تماماً ، وفى نهاية الطريق يقوم المتحف ويسمى (دار الأمانى) تحت



(أمام « بيت العجائب » قصر سلطان زنجبار)

قبة صغيرة حوى بعض الخلفات القديمة من سيوف ومخطوطات وهدايا
وبعض المقاعد والطبول الكبيرة التي استخدمت في الحروب والمعروضات
ليست بذات قيمة تذكر ، بعد ذلك زرنا بيت الحاكم الانجليزى — وزنجبار
ومبما سلطنة تحت حماية الانجليز — وهو أفر مباني المدينة يقوم في شكل
قلعة تطل على البحر تزينا الحدائق المنسقة وأمامها متنزه فكتور ياوهو ملعب
عام وبه بعض المقاهى والمراقص ، أما أسواق المدينة فأعجب شىء بها فبى
أزقة مختنقة ذات لفائف كأنها التيه لا يعلم لها أول ولا آخر بشعابها المعقدة فبى
أشبه بحى خان الخليلى وما جاوره عندنا أرضها مرصوفة نظيفة وبها تعرض
مبيعاتهم وغالبها من منتجات هندية ويابانية ، وتضم المدينة من الاهلين

مائتي ألف نفس منهم ١٦٥ ألفاً من السواحليين وعشرون من العرب وخمسة عشر من الهنود أما الأوربيون فلا يجاوزون ٢٧٠ واللغة السائدة السواحلية التي يتكلمها الجميع والاسلام دين السواد الأعظم ، أما السحن فبعيدة الشبه جداً ومنوعة وغالبهم في جهل عميق ويقوم بالأعمال التجارية الهامة الهنود في الغالب ، وليس للبلاد تقود خاصة فهم يستخدمون النقود الهندية (مثل الروبية ، والآنه) وأعجب ما هنالك ان ساعة البلاد تسير على النظام العربي فعند الغروب تكون الثانية عشرة وترى حتى ساعات الميادين تسير على هذا النظام

والمدينة تقوم على الطرف الجنوبي الغربي للجزيرة التي يبلغ طولها خمسين ميلا ومساحتها ٦٤٠ ميلا مربعا وتبعد عن القارة بنحو ٢٢ ميلا ، والبلاد تاريخية قديمة عرفت أخبارها منذ سنة ٦٠ ميلادية وظلت قروناً أكبر من شرق أفريقية وأغناها مورداً والبيت المالك والطبقة الممتازة من العرب من شيعة أيباهي (Ibadhi) لذلك خلت مساجد المدن من المآذن والمؤذن ينادى من باب المسجد وعدد مساجدها هذه يفوق المائة أشهرها مسجد كزيمكازي (Kizimkazi) بنى سنة ١١٠٧ عند ما احتل الفرس الجزيرة والساحل المواجه لها وعماد ثروتها

القرنفل : الذي زرعه السلطان (سيد سعيد) وأمر أصحاب الأرض

أن يزرعوه وألا اغتصب أملاكهم فأصبح الغلة الرئيسية منذ مائة سنة اذ ٨٨ ٪ من قرنفل العالم أجمع يصدر من هذه البلاد وهو يشغل مساحة ٦٠ ألف



(في أحد أزقة زنجبار)

فدان ونحو ٤ مليون شجرة تنتج نحو ١٨٠ ألف قنطار قيمتها من عشرة ملايين روبية — والروبية سبعة قروش — ويحسن ألا يزيد عدد الشجر على ثمانين للفدان وشجره يثمر في سن بين الخامسة والثامنة وقد يثمر في الثالثة وغلة الفدان خمسة أرتال من القرنفل الجاف وجنى القرنفل يحتاج

إلى مهارة وألا تلف كثير من الفروع السفلى ، وهو يحفف بعمليات شاقة
وإذا نضج وترك حتى تتفتح أكلامه فقد قيمته وإذا أزهز آذى الشجرة لذلك
كان العلم بميقات جنيه ولید خبرة طويلة ، والحكومة تتقاضى عليه من
الضرائب ما یوازی ٢٠ ٪ . من قيمته لذلك اهتمت به كثيراً لأنه عماد
موردها، ومن القرنفل تستمد الأ عطار والبهار والعقاقير والفانيليا (vanillin)
وعجیب أنه جرب فی السواحل المقابلة لنجبار فی أفريقية فلم ینجح بتاتاً
رغم تشابه المناخ ، ولو أنه نجح تماماً فی مدغشقر التي بدأت تنافس زنجبار
اذ بلغ انتاجها ١٨٠ ألف قنطار وفي سنة ١٨٧٢ هبت عاصفة عاتية
اقتلعت جميع أشجاره فی زنجبار وأعيد زرعها .

قمت بجولة فی ضواحي المدينة وهي غابة كثيفة تشقها الطرق التي تعلو
وتهبط وتلتوى فی تعقيد كبير وأظهر الشجر النرجیل والمانجو ، وقد دخلت
مزارع القرنفل بأشجاره الكبيرة فی خضرة مصفرة وثمره ینمو فی عنقيد
من براعم متجاورة یعلوها زهر كأنه الوبر ثم تحمر البراعم وتقطف ثم تجفف
وكنا نرى البيوت كلها تنشره على الحصر أمام الأبواب وفي كثير من
الجهات تقوم مصانع ، وكنا نمر ببعض مصانع (الكبرا) وفيها یجمع النرجیل
ثم یعزى عن قشوره وألبانه و یحطم لبابه ویشحن إلى الخارج لاستخراج
زيتوته وتعد الجزيرة خير بلاد شرق أفريقية بانتاج الكبرا اذ صدرت نحو
١٣ ألف طن سنة ١٩٣٠ وشجرة النرجیل تزكو فی الشواطىء الحارة الرطبة
خصوصاً بین ممباسا والزمبیزی (فی کنيا نحو نصف مليون شجرة وفي تانجانيقا



(مصنع للقرنفل ينشر المحصول أمامه في زنجبار)

ثلاثة أرباع المليون) ويكمل نمو الشجرة في سن العاشرة لكنها تغل في السادسة والسابعة وتظل تثمر نحو مائة سنة ويحسن ألا يزيد عدد النخيل في الفدان على سبعين شجرة وتغل الشجرة من الكپرا بخمسة قروش وفي بعض الجهات يهمل الثمر مقابل العصير من الجذوع ذاك الذي يعمل منه نبيذ القوم المسمى (Tembo) على أن ذلك يؤذى بالشجر جداً لذلك منعتة الحكومة في بعض الجهات.

ومن الشجر الغريب هناك شجرة فاكهة الخبز ذات ورق في حجم ورق الموز لكنه مخرم مسنن في وسطه وأطرافه وثمرتها في حجم الشمام الكبير إلا أنها أكثر تفرطحاً واضيق في وسطها وظاهرها خشن محبب وباطنها مادة نشوية يتخذ منها الدقيق ، وقيل ان ست شجرات منها تمون

عائلة كاملة بما تحتاج إليه من الخبز طوال العام إلى ذلك نبات (الكسافا
أو الماهوجا أو التايوكا) ويبدو كالكروم على بعد فان دانيته بدا أعواداً
معقدة في طول قامة الرجل إذا اقتلعت العود من الأرض خرجت معه
مجموعة من جذور درنية في حجم طويل ومادتها نشوية لبنية لمساً وطعمها
ويأكلها القوم طازجة ومطبوخة ومازاد من محصولها جفف فأضحى خفيف
الوزن هشاً اذا سحق بيع دقيقاً ، وهو من أهم المواد الغذائية في شرق أفريقيا
وحيث يكثر يزد السكان ويقال انه أرخص المواد لاستخراج الكحول منه
سرنا طويلا خلال تلك المزارع الكثيفة النبات والشجر وبين آونة
وأخرى كانت تنكشف وهاد تغص بالبيوت الريفية تقام من أعواد الغاب
المتقاطعة تطل بالطين وتغطي بجداول من خوص النرجيل وكلهم مسلمون
ولغتهم سواحلية على أن النساء سافرات يلبسن دثارا فضفاضا خفيفا ألوانه
زاهية ويعلقن في آذانهم أقراطا من ورق ملون مشى وثلاث ورباع وبعضها
في حجم نصف الريال ، وسخن أجمل من سائر السود اللاتي رأيتهن إلى
آخر أفريقيا جنوبا ولون القوم أخف سوادا مما يشعر بتأثير الدم العربي فيهم
جميعاً ، وأعجب ما نرى حفلات الرقص القومي يمايلون خلاله بشكل مضحك
تصحبهم قرعات الطبول الافريقية الضخمة وكأنها البراميل المستطيلة تدق
من جانبيها

وقد زرنا في تلك الضواحي القصر القديم للسلطان (سيد برغش)
وهو أطلال وسط حدائق تزينها برك البشنين والبردى ولا تزال كثير من



(احدى قرى زنجبار)

أعمدته الضخمة قائمة وكذلك جانب من حماماته التركية بمداخلها الكثيرة
ويقص القوم أن هذا السلطان كانت له زوجات يناهز عددهن المائة جارية
من مختلف الأجناس فى هذا القصر وهذا سر تسميته (بقصر الحرير) ،
وهناك قصر آخر يطل على البحر ولا بأس بحفظه كان مقره الريفى ولا يزال
السلطان الحالى يقضى فيه يوم السبت من كل أسبوع ، عدنا من جانب
الجزيرة الآخر مخترقين الحى الأهل بالسكان فى بيوتهم ضخمة البنيان
ذات الأبواب الحديدية المصمتة الثقيلة ومن بينها دار البريد والحرية
وأسواق الخضر والسّمك ، ثم زرنا الكنيسة الانجليزية التى أقيمت فى مكان
سوق الرقيق القديم ، وقد بنى المذبح فى المكان الذى كان معدا للجلد

والتعذيب وقد صنع الصليب الذي يعلو المحراب من خشب الشجرة التي
يدفن تحتها قلب الرحالة لفرنجنستون على بحيرة بنجويولو في منابع الكنفو
دار السلام : أبحرنا الى دار السلام الخامسة صباحاً وكان البحر هادئاً
جميلاً وظل عقد من الجزائر الصغيرة يمتد من زنجبار جنوباً الى مسافة مديدة وكنا
أحياناً نلمح شاطئ القارة فاتراً على بعد ، وفي خمس ساعات بدت مجموعة
من الجزائر المتقاربة كثيفة النبت ومن ورائها مباني دار السلام وأخذنا نتطلع
الى مدخل الميناء وكان ربان الميناء (Pilot) يدير السفينة يميناً ويسرة
وكأنها السيارة على ضخامتها وأخيراً ظهر المدخل مختمناً تحفه شواطئ رملية
مدرجة لا تسمح بمرور سفينتين معاً وعنده رأينا رصيفاً منهاراً وسفينة غارقة
كان قد رمى الألمان بذلك الى قفل الميناء في وجه الأعداء من الانجليز ابان
الحرب وما ان اجتزنا هذا المضيق حتى انفسحت الميناء بشواطئها الرملية
المدودة في السن لا حصر لها تنتثر عليها المباني ذات السقوف المتحدرة
الحمراء تحفها المزارع الغنية ويكاد يخفيها شجر النرجيل وفي الحق انها لميناء
آمنة مختبئة حققت في نظري تسميتها بدار السلام التي أسسها سيد عبد المجيد
سلطان زنجبار سنة ١٨٦٢ واحتلها الألمان سنة ١٨٨٩ على أن الميناء ضحلة
المياه كأنها المستنقع ولا يمكن للسفن دخولها الا ساعة المد ، وكنا نلاحظ
عند المدخل كثيراً من الشجيرات يغطيها ماء المد في مساحات مترامية
وعجبنا لنموها في هذا الماء الأجاج ، أما منظر الميناء بجزائرها ونبتها ومبانيها
فمن أروع ما رأيت جمالا فقد أبدعت الطبيعة تنسيقها وزادها الألمان تجميلاً .



(تجفيف النرجيل لعمل الكيرا - دار السلام)

هنا أقبل البوليس الزنجي يلبس الطربوش الأصفر — وكان في ممباسا ،
وزنجبار أحمر اللون — تتدلى منه خصلة ثقيلة سوداء وبذلته صفراء ويلف
على الساق شريط أزرق (الشين) أما الأقدام فبدت سوداء براقه
بلونها الطبيعي ذلك لأن رجال البوليس في شرق أفريقية جميعها يسرون
حفاة الأقدام . جبت أرجاء المدينة بمبانيها ذات الهندسة الألمانية المتشابهة
طرقها فسيحة مرصوفة وفي استقامة تسترعى النظر تحفها الأشجار الوارقة
والحي الأوربي منها كثير الحقائق فاخر المباني لدرجة تفوق الوصف والناس
أشباه سكان زنجبار وممباسا غالبهم مسلمون وكنا نسمع المؤذن ينادي
للصلاة من أبواب المساجد أو من فوق سقوفها بلهجته العربية المحرفة والهناد

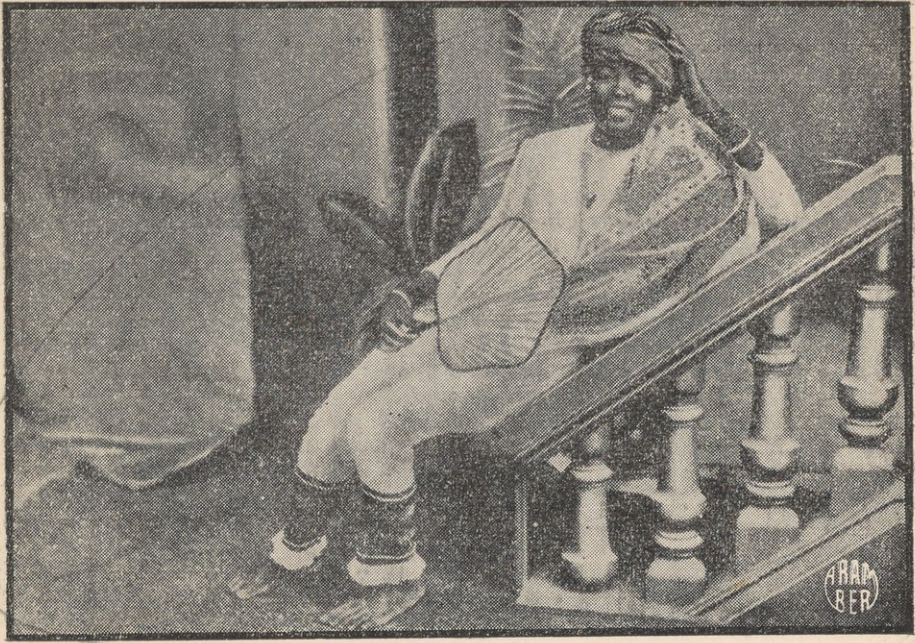
هنا كثيرون ويبدى غالبا المتاجر شأنهم فى سائر بلاد شرق أفريقيا ووسطها وقد علمت أن نحو نصف الأراضى والمباني فى دار السلام وتانجا وزنجبار ملك لأغنياء الهنود ، وهم ينبشون بين الأهلين ويخالطونهم ويعيشون معهم على قدم المساواة ولذلك فهم محبوبون إلا من الأوربيين الحاقين عليهم لأنهم فى زعمهم موضع خطر اقتصادى كبير بسبب مزاحمتهم للأوربيين مزاحمة قاتلة فى التجارة ذلك لأن معيشتهم بسيطة جداً لا يكادون ينفقون شيئاً وهذا ما جعلهم يكسبون الأموال ويذاحمون الغير بأجرهم الرخيص ونشاطهم الزائد وكما كان دهشى عظيماً لهذا النشاط الهندى الذى كان يبدو مجسماً فى جميع شرق أفريقيا وقلبها إلى البرت نيازاً فى الداخل فلم أكد أدخل ديواناً أو متجرأ إلا وهم قادته وذلك عكس ما رأيته منهم فى بلادهم عامى الفئات وذلك يظهر بوضوح مبلغ أثر الضغط وفساد البيئة فى بلادهم ذاك الذى يقعد بهمهم إلى هذا الحد الشائن أما فى خارج بلادهم حيث تحرروا من قيودهم السياسية والدينية والاجتماعية فقد ظهرت مواهبهم الكامنة وكفاءاتهم الخاملة.

ولهم هناك مدارسهم ومساجدهم وقد زرت فى ضواحي دار السلام مدرسة لصغار الفتيات من الهنود حوت نحو مائة وخمسين مجلساً على الحصر فى مكان نظيف وكان الدرس ألعاباً رياضية يقف البنات فى دوائر متداخلة ويدرن وبأيديهن عصى قصيرة من الأبنوس كأنها الصواالج وفى وسط الدائرة فتاة تعزف على شبه بيان صغير وهن يرقصن وراء النعمة



(هكذا يبدو أجناد البوليس فى شرق أفريقيا كلها)
ويغمرن بأرجلهن ويغنين وتلطم كل فتاة عصويها ثم تعود بهما فتصدم
عصوى جارتها وهكذا .
والمدينة تشهد للألمان بحسن القيام على بلدانهم وتنظيمها بدرجة تفوق
أقرباءهم الانجليز ، وقد كنت أسمع من كثير ومن بينهم موظف انجليزى
هناك كان يشغل وظيفة عهد سيادة الألمان ، أن الادارة اليوم اضطربت

منذ غادر الألمان البلاد فهم في زعمه كانوا أقدر على حكمها وتتردد الاشاعة أن تانجانيقا ستعاد للامان . وكان جو البلاد باردا لطيفا أدفا من أيام شتاء مصر قليلا والسماء يغطها السحاب المتقطع ، أما صيفهم وهو موسم المطر الغزير فبعد سبتمبر حين يسقط المطر وابلوا وقد حفروا له على جوانب الطرق مجارى كأنها القنوات الصغيرة والمدينة تقع جنوب خط الاستواء بسبع درجات إلا قليلا وسكانها عشرون ألفا نصفهم أفريقيون . وهى اليوم أكبر مين تانجانيقا تحتكر ٥٦ ٪ من تجارتها ومن الصادرات الهامة التى كنا نراها توسق فى السفن فى غرائر كبيرة البن والبقول السودانى المقشور الذى يستخرج منه المرجرين والكپرا وألياف السيسال : ذاك النبات الذى يحكى الصبار الكبير أدخله الالمان أفريقية من بلاد المكسيك فانتشر خصوصا فى تانجانيقا حيث بلغ الصادر منه فى العام بنحو ١ ¼ مليون جنيه وتقطع أوراقه من السنة الثالثة وعددها بين ٢٠ ، ٥٠ ورقة فى العام وتظل تنمو كل عام مرة وينمو العود الأوسط تعلوه جمعة (شوشة) عليها البذور وتظهر الاوراق الجديدة فى أسفله ، وبعد السنة الثامنة تموت الشجرة ويبذر البذر من جديد وتغل الورقة ٢ ¼ رطلا والفدان ٢٨٠٠ رطل سنويا وقد تبلغ اليافه المتر طولاً فى لون أبيض براق والاوراق تعطن ثم تدق وتنشر الالياف على عصى فى الشمس ثم تحزم وهى خير ما يصنع منها الحبال لمتانتها وهو يفضل فى مصانع أوروبا على قنب مانلا وللنبات فضل فى أنه ينجح فى التربة الرملية ويحتمل أشد التقلبات المناخية ولا يتطلب مالا كثيرا وزراعته لا تحتاج إلى خبرة



(احدى جميلات دار السلام)

واسعة كما أنه لا يتعرض لأمراض قط ويمكن أن يستغل ويصنع في جميع
شهور السنة وأصلح الأجواء له الحارة الجافة ومن ثم الاجواء الصحية الملائمة
للانسان ، فمصر تلائمه جدا ولا أدري لم لا نشجع إنتاجه في بلادنا رغم
توافر الظروف لزراعته وحاجتنا إلى منتجاته ، وقد بلغ ثمن الطن منه
سنة ١٩١٨ ٩٩ جنيها لكنه تدهور اليوم إلى ١٣ جنيها مما هدد زراعته
جدا على أن الأمل في انتعاشه كبير لأن الطلب عليه متزايد أذ يفضل
قنب مانلا المزاحم له

برحنا دار السلام الثانية مساء بعد أن اضطرت الباخرة أن تنتظر علو

ماء المد ثلاث ساعات وأخذت تمايل حتى أتت على مخرج الميناء وسط المناظر الساحرة وفي صباح اليوم التالى كان الجو جميلا مشمساً الا في سحب خفيفة منشورة لكنه مالبث أن فاجأنا باضطراب اعصارى شديد أعقبه وابل من المطر ولم يكن ذلك غريباً فأنا نعلم أن مضيق موزمبيق أحد مفاوز الاعاصير ، وكان السحاب يرسل القطرات فتتصل بماء المحيط في شكل قاتم خفيف وفي ساعتين انكشف الجو وعاد البحر هادئاً أما مهاب الرياح غالب الأيام فالجنوب والجنوب الشرق وتلك هى الرياح التجارية تندفع وراء الشمس إلى القارات الشمالية حيث يخف الضغط ويتخلخل الهواء

الى شرق أفريقيا البرتغالية : فى أقل من يوم دخلنا البحار البرتغالية وأقبلنا على خليج (Pemba) فى دائرة كبيرة ذرعها سبعة أميال فى خمسة وعند مدخله ميل ونصف تحوطها الربى الصخرية التى كادت تعرى عن النبات خصوصاً فى هذا الموسم من السنة وهو موسم الجفاف وعلى مدرجات إحدى تلك الربى تقوم مجموعة من بيوت صغيرة بيضاء جديدة يشقها طريق رئيسى واحد يتلوى فوق المرتفعات والبلدة تسمى پورت أميليا أقيمت منذ خمس سنوات وينتظر لها مستقبل تجارى عظيم لأنها أصلح المنافذ الطبيعية لأرض نياسا لاند وقيل لجزء من رودسيا الشمالية أيضاً ويزعم مد خط حديدى بينهما وعندئذ تتراحم مدينة موزمبيق ، والخليج عميق متسع الداخل بحيث اذا ما أقيمت عليه الأرصفة آوى من السفن مالا يحصى وأقليم نياسا الذى خلفها غنى بالزراعة والتعدين ومن غلاته السيسال



(بعض الأحياء الوطنية - دار السلام)

والنرجيل والقطن والطباق والذرة والحبوب الزيتية وقد ظلت الباخرة
يومنا توسق من السيسال والسمن والاقليم كثيف السكان من السود وان
كان البيض به قليلون والميناء تعد من أصح مين شرق إفريقيا جوا إذ ينذر
بها الملاريا والحجى السوداء وذباب تسي تسي تلك التى تتكثرفى سائر مين
البرتغال وذلك بفضل جودة الصرف الطبيعى بسبب مرتفعاتها

الملاريا: تكاد تكون كل افريقية من رودسيا جنوباً الى أقصى
السودان شمالا عرضة لهذا المرض أبان موسم المطر وهو نتيجة بعوضة
مريضة ملوثة ، وجراثيم المرض تحمل فى دم البعوضة وتنقل إلى الانسان
إذا لدغته وقد تنقل من المريض إلى السليم ولحسن الحظ قلما تلدغ البعوضة فى

ضوء النهار ولذلك قل خطرهما إذا اجتنب الانسان الأماكن ضعيفة الضوء
 نهاراً وإذا طرد البعوض ليلاً ، لذلك كنا نشاهد كل البيوت في المناطق
 الموبوءة تحمى نوافذها وأبوابها بشباك السلك وأكبر حامل للمكروب
 الأهالي من السود وبخاصة أطفالهم فإذا أبعد هؤلاء عن البيوت ليلاً قلت
 الفرصة في أن ينقل البعوض العدوى منهم إلى غيرهم ، وكان يصف لنا
 الأطباء تناول خمس حبات من الكينين يومياً خصوصاً عند تناول الطعام
 وذلك يكفي لمنع العدوى ، وبعوض الملاريا لا ينقل بعيداً إلا بواسطة الرياح
 القوية ، ولما كانت المياه ضرورية لحياته لزم ردم النقايع واستئصال الشجيرات
 والغاب المهشم الذي يتجمع تحته الماء الراكد ، فإذا تعذر ذلك وجب
 رشها بالبتروول وكثير من البط وصغار السمك يأكل بويضات البعوض
 (Larvae) بشره زائد وقيل أن سيوة في مصر تخلصت من ذلك الوباء بنوع
 من السمك اسمه تاليبيا (Talipia) جلبته من فرنسا سنة ١٩٢٧ ، ويقال
 أن بعض أنواع الخفاش أفاد في استئصال البعوض في جهات من الولايات
 المتحدة ، وإذا عني بعلاج الملاريا زالت تماماً على أنها كثيراً ما تبقى في
 الجسم محتبئة في الطحال أو الكبد وعند ما يناسبها ضعف الجسم تظهر
 ثانية ، وعدم الانتظام في علاجها مدة طويلة قد يؤدي إلى مضاعفات منها :
الحُمى السوداء : التي تسبب نزول الدم القاتم مع البول ومن هنا
 جاء اسمها وهذا المرض أخطر من الملاريا لأنه يضعف القلب ضعفاً شديداً
 لذلك وجب ألا يحرك المريض وألا يجلس وتحتم أن يباشره الطبيب دائماً



(رقصه اوزارامو في شرق افريقية)

ومن الأمراض المنتشرة هناك مرض الماشية (Nagane) الذي تنقله ذبابة تسي تسي تلك التي تنتشر في ٦٧ مليون فدان من رودسيا وجدها وتفتك بالماشية فتكا ذريماً ومما يخفف من وطأتها أنها قلما تلدغ ليلاً ولا تقارب المياه ولا تعبر الأنهار قط

لبثت باخرتنا في پورت أميليا يوماً كاملاً هاجمنا خلاله جماهير الباعة من السود كل يحمل أقفاصاً من الغاب بها مجاميع من طيور ذوات ألوان ساحرة ، وكان القفص يعرض بعشرة قروش والبيعاء الكبير بخمسة قروش والنسناش بعشرة وذلك يؤيد كثافة الغابات موطن تلك المخلوقات

قمنا الى موزمبيق : فوصلناها في نصف يوم فبدت جزيرة كبيرة حولها مجموعة من جزائر تكسوها الخضرة النضرة وأخذنا ندخل بين طياتها

وعلى منحدرات تلك الجزائر جميعاً تقوم المدينة، والجزيرة الرئيسية تبعد عن القارة بثلاثة أميال، والجزائر كلها مرجانية تحفها الشعاب المتعددة وتغص بمختلف الأصداف ذات الأشكال العجيبة التي هاجمناها جمهور الباعة. رسونا بعيداً وحملتنا الزوارق إلى المدينة، وأول ما استرعى أنظارنا القلعة القديمة بجوانبها الحجرية الضخمة الشاهقة التي يبلغ علوها ٣٥ قدماً، وهي تحيط بطرف من الجزيرة دخلناها وتسلقنا أسوارها التي تثقبها عيون تطل منها المدافع القديمة الثقيلة تحمل على عجل من خشب وفي وسط سقفها حوض غائر لجمع ماء المطر الذي كان يستقي منه الحراس، وفي أسفلها عدة مقاصير وحجرات مظلمة بنيت سنة ١٥٠٨ بحجارة كلها نقلت من البرتغال على بعد ٨٠٠٠ ميل في زوارق ذاك العصر وهي تتخذ اليوم سجنًا، ويفخر البرتغال بأن علمهم ظل يرفرف فوقها منذ أقيمت في سنة ١٥٠٨ إلى يومنا هذا بدون انقطاع.

خرجنا نجوب المدينة فراقنا طرقها الضيقة الملتوية رصفت بالحجر بجانبها اطاران بالأسمنت وإلى جانب أحدهما مجرى صغير لماء المطر الذي ينزل أبان الصيف وبخاصة في ديسمبر ويناير، أما البيوت فكلها من طابق واحد وبالحجارة الثقيلة لا تكاد ترى بها من النوافذ شيئاً فهي تحكى بيوت القرون الوسطى تماماً ويخيل اليك أنها مجموعة سجون ممتدة وكنا نرى معدن الميكا القديمة يقوم مقام الزجاج في بعض مناورها، وأجملها بيت الحاكم يطل على الميناء، والبلدة صغيرة لا يعدو ساكنوها ٧٣٦٥ نفساً منهم ٤٨٦ من



(جانب من سوق دار السلام)

البيض ، ٢٥١ من الهنود والباقون من الزوج الذين يدين غالبهم بالاسلام ،
ولهم جانب من المدينة أقاموا به أخصاصهم المربعة ذات السقوف المنحدرة
بالقش والطين والغاب وكم يروك منظر السيدات وهن يسرن في ملءات
خفيفة من أسفل الجسد إلى وسط الصدر في وجوه منكرة يزيدنها قبجاً أن
الكثير منهن يلبطن الوجه كله بعجين أبيض بحيث لا ترى منه إلا عيني
براقتين وتلك آية التجميل لديهم والسيدة إذا سارت بدا تقوسها في انتفاخ
عجزها إلى وراء وصدرها الكاعب إلى الامام في شكل مضحك ؛
أما الطرق الرئيسية فتكاد لا ترى بها مارة قط فاذا ما أطلت النظر في الأبواب
المفتحة بدا في داخلها المظلم حانوت به بعض المعروضات الضئيلة ، والمدينة

ظلت عاصمة أملاك البرتغال زمنا طويلا والاقليم الذى خافها خصب بالذرة والبقول (السودانى) والسوسم والتابيوكا والبن وظلت السفينة تحمل وسقها من البقول والسوسم والكپرا ، ويزمغ مد خط حديدى منها إلى نياسالاند التى تعد احدى منافذها الطبيعية وهى وأن قلت أهميتها اليوم عن ذى قبل ألا أنها هامة من الوجهة التجارية ففيها تجمع غلات البلاد المجاورة بواسطة خفاف السفن التى يمتلكها الأعراب وتسمى (داو Dhows) ومن هنا تصدره إلى الخارج . قمنا نشق بوغاز موزمبيق إلى :

بيرا : فوصلناها فى يوم واحد ، وكان جو يومنا مضطربا عاصفا مطيرا وقبل أن تبدو بيра بساعات تغير لون ماء المحيط فاضى عكرا كأنه ماء النيل أبان الفيضان وذلك من أثر نهر الزمبىزى الزاخر ورغم بعد بيра عن مصبه بنحو مائة ميل سبب ماؤه حدوث تيارات قاسية تحتاج المدينة الى ذلك فان المدينة تقع قرب مصب نهرين صغيرين (Pungwee من الشمال و Buzi من الجنوب) ، ولقد انتظرنا دليل الميناء ونحن نبعد عنها بنحو ١٨ ميلا مما يدل على أن مدخل الميناء ضحل قليل الغور وقد عانينا كثيرا ونحن نرسو الى رصيف الميناء ولما غاص الماء أبان الجزر هوت السفينة حتى استقرت على الأوحال فأدهشنى ذلك لكن علمت أن السفن ميسوطة من أسفلها وليست مثثة كما كنت أعتقد فلاضير أن تستقر السفينة على قاعها ، وفى الأصيل علا المد فجاوز ١٨ قدما وهذا المد العالى الذى يدرك المدينة هو سر شهرتها التجارية وان كانت الجرافات



(مزارع السيسال في تانجانيقا)

دائبة على تطهيرها من الرواسب ، دخلنا المدينة فبدأنا نسمع البر تغالية يتكلمها
غالب البيض ، أما لغة السود فلهجة أخرى تقرب من السواحلية وقد لاحظنا
في وجوه السود تغيرا فاللون أسود والشعر أمعن في التجعد والقامات أخذت
في الطول ، والبيوت مبعثرة في غير نظام وكلها من طابق واحد إلا شارع
هو آية في التنسيق له أرصفة بالاسمنت وعلى الجانبين تقوم الاشجار ومجار
للمطر تطمر بالرمل ثم أطار ضيق الراجلين وأجمل مابه بيوت في قلات أنيقة
تقوم على عمد أو شباك من قوائم الاسمنت والآجر وعليها طابق واحد متحدر
السقوف والكل تغشاها شباك السلاك الدقيق اتقاء البعوض ذلك لأن
المدينة تقع في بقعة وطيئة تكثر من حولها الاوحال والمناقع ويؤمها بعوض

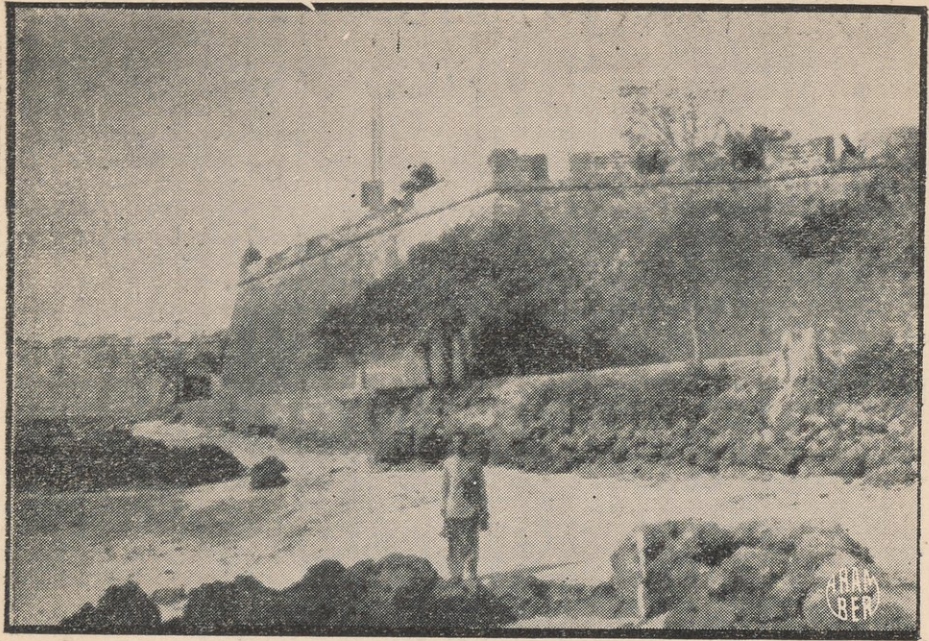
الملايا وكثير من البيوت يبنى بالواح الصاج المجزع أو من الخشب وبها
خط لسيارات الامنيوس وقد كان بها ترام لكنه أوقف لثقل دخله والهنود
هنا أقل ظهوراً منهم في البلدان السابقة والبوليس من الزوج يلبسون فوق
الرأس قلنسوة مطوطة توضع على جانب من الرأس وهم حفاة الأقدام
والغذاء القومى هنا مزيج من مدشوش الذرة يطبخ كالأرز المسلوقة
وقد تقطع عليه شطايا السمك نيء أو مقعد وياً كله القوم بشكل تعافه
الأعين ويسمونه (Milipapa) وسكان المدينة حول ١٦ ألفاً منهم فوق
الألفين من البيض وأقل من ذلك من الهنود وكثير من السود يقومون
بزراعة الأراضى الداخلية خصوصاً التى تنتج المطاط والقصب والذرة ، ولا تزال
طريقة البرتغال سائدة وهى أن يمتلكوا الأرض جميعها ويكلف السود
بفلحها لكنهم بدأوا يرون أن الطريقة الإنجليزية فى تملك الأراضى
للأهلين وتكليفهم بخدمتها مقابل ضرائب يدفعونها هى خير وأعود بالنفع
وميناء بيرا عظيمة ، حركتها التجارية لا تنجو ولا يقل عدد السفن التى تدخلها
عن ٦٥٠ حمولتها فوق ثلاثة ملايين طن ، وهى تعد مفتاح رودسيا كلها
تلك البلاد الشاسعة عديمة السواحل وتصلها بسابزبرج عاصمة رودسيا سكة
حديدية ، ونهر زمبىزى يقسم رودسيا قسمين الشمالية الأقرب للفطرة
والهمجية والجنوبية الأكثر كثرة عمراناً ، ولعل رودسيا أقدم بلاد لها تاريخ
مدون فى أفريقيا بعد مصر فأهلها الأصليون كانوا من البشمن الذين تركوا
آثارهم فى رسومهم داخل بعض المغارات هناك ولسوء حظهم كانت بلادهم



(پورت أميليا « شرق أفريقية البرتغالية »)

مفرطة في الغنى المعدني خصوصاً الذهب ، حتى غزا البلاد في عهد سليمان الحكيم شعب من الاعراب يسمون عرب سبأ أو شيبا ، وهم فرع من الفينيقيين تملكوا مناجم الذهب واستخرجوه وأغرقوا به العالم حتى لم يصبح للفضة في عهد سليمان من قيمة تذكر بجانب الذهب ، وهؤلاء تركوا من آثارهم هناك ما هو جدير بالذكر بين معابد ومناجم وقلاع ولعل أفرها البيوت الصخرية في زمبابوى في مقاطعة فيكتوريا من جنوب رودسيا قبالة نهر بيرا مباشرة وهى بقايا مدنية عريقة حقاً كان أهلها يتعبدون في الهيكل الاهليلجى الذى كان يحوطه سور من الجرانيت علوه ثلاثون قدماً وبه برج مخروطى شامخ ، ويظهر أن السبائيون سادوا أغلب بلاد رودسيا على سعتها بين ٢٠٠٠ ق م ،

١٠٠٠ بعد الميلاد حتى غلبهم جماعة البانتو من الشمال ، ولما أغار البرتغال من الشاطئ سنة ١٤٨٥ دخلوا البلاد عن طريق الزمبيزى لكنهم لم يتمكنوا من البقاء وهزموا سنة ١٧٦٠ وساد الهميج هناك فوق قرن من الزمان حتى كان عصر المستكشفين أمثال لفنجستون وسسل رودس ، والبلاد غنية بالمعادن جداً فلقد انتجت على أيدي البيض مائة مليون جنيه من المعادن ثلاثة أرباعها ذهباً — فهي ثلاثة جهات الامبراطورية البريطانية في إنتاجه والنحاس بها كثير وبعض مناجم رودسيا الشمالية تنتج سبعة آلاف طن يومياً ومجموع ما في أرضها ٥٠٠ مليون طن من النحاس ، وقد كانت باخرتنا تحمل وسقاً منه في كتل فطيرة طوال اقامتنا في بيرا ، ولعل أخطر مناظر رودسيا شلال فكتوريا على الزمبيزى وعنده تعبر سكة الحديد النهر في أعلى قنطرة في الدنيا وليس في طوق انسان أن يصور روعته ، تصور بحراً زاخراً من الماء في عرض ميل يهوى كله هوة غورها ٤٥٠ قدماً وفي قرارها يختنق كل هذا إلى مائة ياردة ويعاورد الماء ٧٠٠ قدم في الجو ويسمع دوى الماء على بعد عشرة أميال ويزيد المنظر سحراً كثرة أقواس السماء التي تنعكس بألوانها المتحركة في ضوء الشمس نهائراً والقمر ليلاً ، وفي اليوم المطير الهادى يصعد البخار في خمسة أعمدة رأسية تسمى بالأصابع الخمسة أو (بالدخان الراعد) وهذه يراها المقبل على بعد ٢٥ ميلاً وأطلق العرب على الشلال — آخر الدنيا — ويخال البعض أن الشلال حديث العهد جداً ، وأنه منذ ثلاثة قرون فقط كان الزمبيزى يجري إلى كالا هارى ويفذى أخوارها ومناقعها التي يرى



(أمام قلعة موزمبيق ويفخر البرتغال ان عليهم ظل يرفرف عليها منذ حلوها)
ماؤها اليوم آسنا ما الحافما تحول النهر هكذا جفف اقليم كالاهاى وزاد
مناخه تطرفا ، وللاستاذ شقارتز مشروع هائل به يعيد صلة الزمبىزى بتلك
المجارى القديمة فيملاها ماء هي وسائر بحيرات كالاهاى فيعود للمكان
خصبه وبذلك يمكن رى عشرة ملايين من الافدنة . وأهل رودسيا يعيشون
على فطرتهم وهم قبائل عدة وتتعدد لهجاتهم ويعبدون الجن ، ولعل أعجب
قبائلهم قبيلة (أواتوا) الذين يعيشون فوق منافع لوكانجا وتقوم أخصاصهم
من الغاب والطين وسط الماء ويتنقلون فى زوارق نحيلة أقدامهم مكفوفة
كأقدام الوز وهى فى الحقيقة رخوة لدرجة تجعلهم لا يكادون يطيقون الوقوف
على اليابسة لذلك حق عليهم التسمية بالانسان المائى وهناك قبيلة شبيهة

بهم حول منافع بنجويلو وتسمى قبائل (وونجا) شعارهم التمساح وقبائلهم لا تزال تتعقب أنسابها عن طريق الام

وبعض النحاس الغفل الذي كان يوسق في السفن ونحن وقوف في
يرا يفد من (كاتانجا) في جنوب الكونغو البلجيكية وتلك مقاطعة أثبت
البحث الحديث أنها غنية جداً بالمعادن وبخاصة النحاس والراديوم ففي
سنة ١٩٢٢ كشف الراديوم مختلطاً بمعادن اليورانيوم ويصدر الخام إلى بلجيكا
ونسبة الراديوم كبيرة جداً ففي أمريكا أغنى بلاد الدنيا إلى سنة ١٩٢٢ كان
يستخلص من طن الخام ٢٥٧ مليجرام من الراديوم لكن الطن في كاتانجا
ينتج ٢٢٧ مليجرام ويقدر ثمن الجرام بنحو ١٢٠٠٠ جنيه ولذلك يقدر
ثمن الطن من الخام بنحو ٣٠٠٠ جنيه والبوليس يحرس المناجم في كاتانجا
اليوم وكأنها مناجم الماس وقد كانت أمريكا تنتج أربعة أخماس محصول
الدنيا لكن ستزاحمها كاتانجا تماماً ومجموع إنتاج الراديوم الآن ثلاثون جراماً
وثروة هذا الأقليم أخذت تجتذب سكة حديد الكاب والقاهرة إليها فبعد
أن كانت تنتجى ناحية شرقية انعرج الخط إلى الكونغو ، وأرض كاتانجا
مرتفعة تلاثم سكنى الجنس الأبيض وقد فكر البلجيكيون أبان الحرب
الكبرى لما أن كادت ألمانيا تمحو بلادهم من أوروا بأن يتخذوا أمثال تلك
المقاطعة من الكونغو وطنهم الثاني وأن ينتقلوا إليها تحت أمير وطني بلجيكي
فمنا عصر الجمعة إلى الجنوب وبعد ساعتين بدت على بعد إلى يميننا
قرية سوفالا التاريخية القديمة التي كانت آخر محاط العرب قديماً ، ويزعم



(مباني موزمبيق تبدو كأنها سجون « طره »)

البعض أنها الفاصل بين الشرق والغرب إذ النفوذ الغربي سائد بعد ذلك إلى أقصى أفريقيا جنوباً ، أما في كل ماسبق من سواحل أفريقيا فلا أثر العربي لا يزال سائداً رغم خروج تلك البلاد من أيدي العرب وفي الصباح بدت :
لورنزومار كوز : في خليج عظيم الأمتداد يناهز طوله ٢٦ ميلاً بين شواطئ رملية مشرفة لونها أحمر تنكسو أغلبها الأعشاب وقد أسماه البرتغاليون خليج (دلاجوا) ومعناه من (جوا) لأنه اتخذ مرسى لسفنهم الوافدة من الهند صوب البرتغال ، أما السفن التي كانت تفد من البرتغال إلى جوا فكانت ترسو على خليج (الجوا) ومعناه (إلى جوا) وهو اليوم مكان ثغر پورت اليزبت في المكاب .

نزلنا المدينة فهالنا ما رأيناه من مبالغة في التنسيق والنظافة، جميع الطرق
رحبة تتوسطها الماشى ذات الأشجار وبجانبها أطاران عريضان أحدهما
يرصف بالأسممت وبين آونة وأخرى كنا نمر بمتنزه صغير أنيق تزينه
الجواسق الخشبية سامقة السقوف وهذه يتخذها القوم مقاهى ومشارب للشاى
تحوطها أرصفة من الودع الملون وجزء من المدينة مقام على منخفضات
الشواطىء أما غالب الأحياء الممتازة فتبنى فوق الربى من خلفها وتمتد
الشوارع بين هذا وذاك فتصعد بانحدار قاس وأنت تكشف من طرفها
المرتفع المدينة كلها والخليج الرائع من دونك والبيوت كلها (قلات) من
طابق واحد هي آية في النظافة والجمال ، ويتوسط المدينة سوقها فى بناء فخم
يحوطه متنزه جميل تقوم على أركانه الأربعة الجواسق الانيقة ولعل تلك
الجواسق أظهر ما يميز المدينة ، دخلنا السوق فى باكورة الصباح فكان
القوم من السود نساء ورجالا يفترون سلعمهم وبخاصة مواد الغذاء والفاكهة
على مناضد من حجر وتسمع جلبتهم وهم يساومون الباعة وبخاصة للنساء
بصدورهن البارزة وأعجازهن المنتفخة وعلى ظهورهن يربطن أطفالهن
وكأنهم صغار القردة وكانت تسترعى نظرى رءوسهم بشعرها الفلقل وناصيتها
المدببة وجبهتها المشطورة المتحدرة ومن أفر مبانى المدينة محطة سكة الحديد
التي تعد من أجمل محاط أفريقية كذلك حديقة النبات التي تغص بفصائل
المناطق الحارة وهي تقام على مدرجات بعضها فوق بعض وفى جانب صغير
منها حديقة للحيوان وفى طرفها الآخر متحف جميل حوى مجموعة من



(أشرف على الحى الوطنى المكتظ - موزمبيق)
الحيوان المخطط المحشو بكامل حجمه تحوطه نماذج من بيئته ويغلب أن ترى
الحيوان ممسكا بفرسته
ومن أعجب ما رأيت أفعى تمسك بقرد صغير ، وأخرى تمسك بغزال
التفت حول جسمه وهى تمتص الدم من رأسه الى ذلك مجموعة من الأسماك
المخططة وبعض الحشرات ومن بينها ذبابة تسمى فى حجم يزيد قليلا على
الذبابة العادية وأجنحتها مجزعة كالوراق الشجر وهى اذا لدغت انسانا بدت
عليه عوارض الجنون ثم يستلقى وبعد شهور قليلة يصبح جسمه عظاما بالية
وفى الطابق العلوى بعض المخلفات الحربية لهمج أفريقية يوم فتحها البر تغال ،
والدخول للمتحف بغير أجر وهناك سجل دونا فيه أسماءنا

وفي ناحية متطرفة من المدينة نسق شاطئ البحر في مدرجات وطرق ملتوية وجواسق وحمامات هي آية في الابداع ، وتسمى ناحية بولانا وكم يعجبك منظر الشاطئ الوطى ومن خلفه تقوم شرفة عالية من الرمل الاحمر تتخلله منابت العشب البري ، وحقا لقد اكبرت تلك المدينة في نظري من شأن جماعة البرتغال وأيدت حسن ذوقهم ، أما في المساء فالمدينة مظلمة هادئة إلا في مصابيح الكهرباء وإشارات المرور وهذه على أحدث نظم فالمصباح معلق وسط مفارق الطرق ويتعاقب اللون من الاحمر (لايقاف المرور) الى الاصفر (للاستعداد للسير) الى الاخضر (لفتح الطرق) في فترات منتظمة كل ذلك يتحرك بنفسه بدون جندي يباشره (اوتوماتيكى) وسكان المدينة ٣٧ ألفا ربعهم من البيض والمسلمون هناك قليلون جداً وليس بالمدينة مساجد قط ويظهر أن جمعيات التبشير هناك ناشطة لأننى كنت أرى جماهير السود يمسون بأناجيلهم تلف في مناديل من حرير وهم يسرون زرافات إلى الكنائس يوم الأحد ، والمدينة عاصمة شرق أفريقيا البرتغالية أما بيرا فعاصمة أملاك الشركة التجارية البرتغالية وكل منهما له حكومته فهذه تديرها حكومة البرتغال رأساً أما منطقة بيرا فتديرها الشركة ولكل تقودها الورقية وطوابع البريد تغاير ما للأخرى حتى أننى لم أجد هنا من يقبل تقود بيرا وكذلك لم أستطع وضع طوابع شريقتها من بيرا على خطاباتى هنا ، وقيل أن الشركة ستسلم بلادها للحكومة بعد ست سنوات ، ولهجات السود هنا متعددة فأهل بيرا لا يفهمون أهل لورنزامار كوز على أنها من لهجات البانتو



(الى جانب احدى حسان موزمبيق وقد كست وجهها بالعجين تجملا)
البانتو : هم جميع السود من جنوب خط الاستواء الى حدود
جنوب افريقية لغاتهم وإن اختلفت لهجاتها إلا أنها ترجع إلى أصل مشترك
والبانتو ليسوا سكان البلاد الاصليين بل زحفوا من الشمال ، فريق من الشمال
الشرقي وهم أخف سواداً ويسمون بالشعوب النيلية التي دخلهم الدم الحامى ،
ولما كان الدم الحامى هو الذى ميز دم البانتو عن السود وكان الحاميون

شعبة من الشر كس أقرباء الاورو بين قال البعض بأن البانتو أقرب الى الجنس الابيض منهم الى الاصفر أو الأسود أو الاحمر وفريق أسود وفد من جانب الكونغو ، والفريقان تقدا من البحيرات جنوبا وبعضهم زحف ناحية كلاهما والبعض الى الجنوب الشرقى وكانوا أكثر غلبة وقوة فأسسوا امبراطورية مونوموتوبا في القرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر غزاها فريق آخر أشد شراسة وحل ناتال وتبع هؤلاء قبائل (باروتسى) ضخام الاجسام فى لون اسود نحاسى وشعر جعد ولحى نادرة الشعر وأنوف فطساء ، وفى القرن الثامن عشر الباقندا والباكوينا الى الاورنج والدمارا الى جنوب غرب أفريقيا ، وكل قبيلة كانت تحمل اسم رئيسها مسبوقا بكلمة Ama بمعنى الشعب أو الناس .

والبانتو عموما لهم نظام قبائلى تدعمه أسس دينية وكل قبيلة تقدر زعيمها وسلطته زمن الحرب مطلقة وزمن السلم تتوقف على قوة أخلاقه ومثانة عادات القبيلة وتقاليدها التى يفسرها للناس مستشاروه (Indunas) الذين يجب عليه أن يعمل بمعاونتهم وبلى هؤلاء مقاما مجالس القبيلة وغالبهم من أقرباء الزعيم لأنهم يقدسون البيت الملك وفروعه وأغنياء الزعماء يتزوجون أكثر من سيدة والزوجة الاولى تسمى زوجة اليد اليمنى والثانية زوجة اليد اليسرى وهناك الزوجة العظمى وابنها وارث الملك وهذه الزوجة تأتى متأخرة فى العادة ، ولذلك غاب أن يتولى الوارث الملك طفلا تحت وصاية عمه أو أحد أقربائه ، وقد كان هذا من



(بيرا « شرق افريقية البرتغالية » بيوتها مبعثرة في غير نظام)

أسباب كثرة المنازعات خصوصا عند ما يبلغ الصبي الرشد ويتسلم مهام الملك أما أولاد الزوجتين الإنى واليسرى فيعطون رجالا وقطعانا ليؤلفوا عشائر جديدة تنضم للقبيلة ولذلك صعب على الأوروبيين هناك أن يقفوا على مقر السلطة وصاحب النفوذ الحقيقي منهم فقد يمضون معاهدة مع رئيس ويظهر لهم أن الباقيين ليسوا مرتبطين بها لاهم ولا ورثته بعد موته ، وكان يوقف استبداد الزعيم برعاياه سهولة نظام التبنى والتحول من عشيرة لأخرى فان استبد هجروه وانحازوا الى رئيس غيره والرؤساء في الغالب عادلون ، ولهم محاكم وقضاة ويسمحون للمتهم بالدفاع والاستئناف وكل عقوباتهم تنفذ (بالكي) بالحديد الذى يسخن لدرجة الاحمرار وعند بعضهم يحول على

الطبيب الساحر ليشتم فيه رائحة الاجرام ويلصق به التهمة على أن أغلب العقوبات تنحصر في شيئين الاعدام أو الغرامة التي تدفع ماشية ، أما السجن فغير معروف بين قوم يقطنون بيوناً واهنة

وكان عقاب السحرة الموت واغتصاب أملاكهم لأنهم ارتكبوا جرماً سياسياً ودينياً ، ويعتقدون في إله واحد يسمونه (امكولونكولو Umkulunkulo) هو الذي خلق الناس وكل شيء حتى من الطين وساخه من عود الغاب وكانوا يرون في هذا الإله أباً أشبه بآدم عندنا منه باله ويحيط كل هذا عالم للأرواح الطيب منها يجب أن نسعى لنتصل بها والخبيث يجب الابتعاد عنها وهؤلاء هم الذين يتصل السحرة بهم ليلحقوا بالإنسان ضرراً أو بالماشية والمحاصيل

وكان من وظيفة طبيب السحر أن يشتم هؤلاء وأغلب الشبهات كانت تحوم حول المفرطين في الغنى ، وقانون القبيلة كان يحفظ في ذاكرة الساسة الحنكين ، (أندونا) أما الكتابة فلم تكن في لغتهم وكما كان الرئيس لسنا فصيحاً قدره الجميع وحاولوا النقل عنه وتكثر بينهم المناظرات ، التي هي في أوروبا أساس البرلمانات وللنساء هناك — عكس أوروبا — قدرة مدهشة على استماع تلك المناظرات ، ولذلك كان من نصيب المرأة عند البانتو أن تزيد في ثروة اللغة من ناحية التعابير الموسيقية الجذابة ولكي يجتذب النساء ذكر أسماء الذكور من أقرباء أزواجهن كان لزاماً عليهن أن يخترعن كلمات جديدة ، واليوم نرى بين نساء الزولو — أشد قبائل أفريقية



(البانتو يأكلون « الميليابا » من مدشوش الذرة ونثير السمك)

رجعية — لغة خاصة بهم مجموع كلماتها نحو خمسة آلاف كلمة
ولهجات البانتو ٢٧٤ تمتاز كلها بكثرة التعابير وبأن أواخر كلماتها
متحرك في الغالب وبأن أوائل الكلمات متحدة الحروف مما يجعلها كلها
متشابهة متوافقة النغم على أن بعض لهجاتها لا تخلو من التهمة وضروب
اللكنة التي سرت إليهم من لغة الهوتنتوت

والبانتو من الناحية الاقتصادية رعاة ماشية يمارسون الزراعة كعمل
ثانوى واعداد الاطعمة والشراب المسكر وزرع الحبوب وفلح الارض
وتعهد الحدائق من نصيب المرأة أما رعاية الماشية فعمل الرجال ، والماشية
ذات القرون ثروة القبيلة ومفخرتها ، ولذلك قدسوا الماشية وأقاموا بيت

الماشية في الوسط ومن حولها بيوتهم ، وإذا أرادوا الاتصال بالموتى سلخوا ثوراً حياً وسط بيت الماشية يمثل القبيلة وآخر يمثل العدو والذي يظل حياً مدة أطول يدلهم على مبلغ نجاحهم أو فشلهم في الحرب المقبلة كذلك كانت تدفع الغرامات والتعويضات ماشية ، وشعر ذنب نوع من الماشية خير علاج للأمراض لديهم

والماشية هي خير غنم في الحروب وبها يدفع المهر (Lobala) الذي تفاخر به الزوجة والذي يعدونه سر انتاج الذرية ، اذ لولا الماشية لأصبح الاولاد غير شرعيين ! وحياسة الاراضي أساسية لديهم فالارض والرجال دعامة القبيلة ، والبيت الاعظم (كراال Kraal) للزعيم في الوسط وحوله تقوم البيوت الاخرى وحول هذه جميعا مساحات الارض المملوكة لهم ، وقد تتداخل في أملاك القبائل الأخرى فان تنازعوا على أرض كان السيف هو الحكم فمن هزم خسر أرضه وقد تستأصل القبيلة كلها وتضيع أرضها والأرض ملك القبيلة كلها ، وليس من حق الزعيم أن يبيعها أو يهبها ، وهنا موضع خلاف شديد بينهم وبين نزلاء الاوروبيين الذين يتقيدون بالعقود المكتوبة أما البانتو فلا يعرفون للعقود قيمة فليست الارض لديهم هي الهامة بل الناس الذين فوقها وكل فرد من القبيلة بحكم نشأته فوق الارض له الحق في هوائها ومائها وعشيمها وحطبها وحيوانها ولذلك فأن هؤلاء إذا باعوا الارض للنزلاء كان معنى البيع لديهم أنهم يمنحون بعض الامتيازات التي لا بنائهم على تلك الارض مقابل ثمن من الماشية أو الضأن أو الأسلحة وكان معنى



(أحد أبراج زمبابوى مقر كنوز سليمان الحكيم)

ذلك فى نظر الزعيم أن النزلاء أصبحوا أتباعه ! ومثل تلك النزعات
والافكار المتناقضة أدت الى كثير من الارتباك بين الفريقين وجرت إلى
الحروب التى طالما خاضها البيض مع الكفرة فى جنوب أفريقيا ، والبانى
عامل من العمال الذين تعوزهم المهارة والصبر التى اشتهر بها أهل الشرق ،

وهو خامل بفطرته لأن حاجياته قليلة ويمكن الحصول عليها بسهولة من العنابات وقنص الحيوان لذلك فهو يميل إلى الرعاية أكثر من الزراعة التي يقع عبؤها على المرأة ، ورغم احتكاكهم بالجنس الأبيض فانك اذا زرت مساكنهم (تسمى كرال) بدت لك فطرتهم فهم لا يعبأون بالكماليات والمسرات وهم قادرون على سد حاجاتهم القليلة وعدم الاهتمام بالراحة التي نهتم لها نحن كثيرا ويدهشك عدم شعورهم بالمسؤولية العائلية تلك التي تقلق بالناس كثيرا وهم يملكون الأرض على طريقة المشاع ، ومع أنهم ليس في مقدورهم انهاء الثروة فهم لا يسعون إلى ذلك قط إلا أن الفقر ليس معروفا لديهم فكل أفراد القبيلة متساوون لا يتصدق أحدهم على غيره لان المال حق للجميع إلى ذلك مورد الأب من مهور بناته ، كل ذلك يشجع البائتو أن يعيشوا على فطرتهم وأن ينصرفوا عن العمل .

ميناء لورنز وماركوز : والميناء مزودة بأحدث الوسائل وأوفاهها من أرصفة وروافع وسكك حديدية ، وهناك رافعة للفحم تستطيع تفريغ ٨٠٠ طن في الساعة يندر وجود أمثالها وهي تجلب الفحم من الترنسفال إذ تتصل بها بخط حديدى فهي أقرب المنافذ لمعادن الترنسفال وذهب الراند أغنى مناجم الأرض جميعاً إلى ذلك فهي تصدر فاكهة جنوب أفريقية ، وقد لبثت باخرتنا توسق من أقفاص التفاح والبرتقال ، وقد أعد لها مخازن ذات مشال على الميناء ، وتقارب متاجر الثغر مليون طن في العام غالبها من الترنسفال :



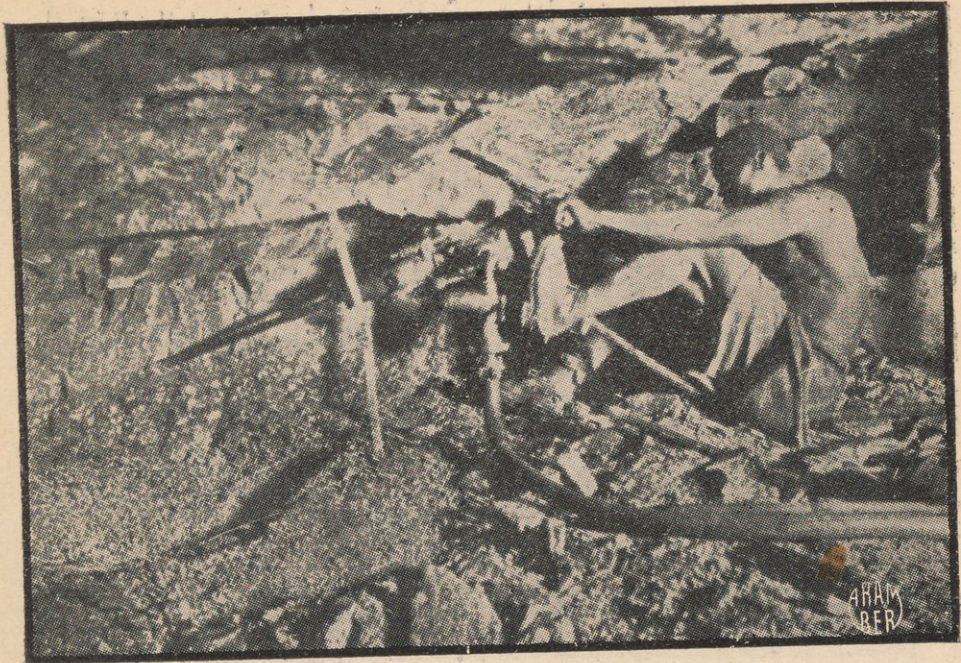
(أمام محطة لورنزو ماركوز البرتغالية)

أرض الذهب : حق للعالم أن يسمى بلاد الترنسفال بأرض

الذهب ، فقد زاد مجموع الذهب الذي استخرج منها رغم صغر مساحتها على ألف مليون جنيه في نحو أربعين عاما وأغنى بقاعها الرائد الذي يفل من الذهب أربعين مليون جنيه في العام مع أن انتاج الذهب في العالم كله

٨٥ ¼ مليون جنيه سنوياً فالترنسفال وحدها تنتج ٥٢ ¼٪ من ذهب العالم
(أما الولايات المتحدة فتنتج ١٢٪ فقط)

وأول من كشف الذهب هناك رجل افريقى اسمه (ووكر) وهو يحفر
ليقيم منزلاً سنة ١٨٨٦ فاعترضته صخور من الجمعات (كنجلمرات)
وبعض الرمل الفضى بدا تحتها الذهب فى عرق يتلوى فى امتداد أفقى
لمسافة لا تقل عن ٨٠ ميلاً وفى سمك قد يبلغ أحياناً خمسين ميلاً وامتداده
من الغرب إلى الشرق وقد بدأ الرجل يعمل فى استخراج الذهب لكنه
قبل أن يؤتى شيئاً يذكر مات صاحبه فقيراً ولقد أطلق الناس على هذا
العرق اسم (عرق سبأ Sheba reef) إشارة الى عرب سبأ وقوم سليمان
الحكيم وما حازوا من ثروة من ذهب تلك الناحية قديماً فقد أثبتت الآثار
انهم استغلوا الذهب فى مناجم تمتد من زمبابوى الى الراندو يعتقد الجيولوجيون
بأن العرق نهر قديم كان يجرى فوق صخور الجرانيت وكان النهر يحمل
تبر الذهب فى رواسب وكانت له دلتا وهى التى يمثلها إقليم الراندأغنى البقاع
بالذهب اليوم ثم مالبت أن طمر الجرى ورفعته القوة الباطنة ولقد تسكن
العلماء عن مستقبل الراند فقدروا أن الخام الذى به لا يقل عن ٥٥٠ مليون
طن وبعضهم قال بأنه ١١٦٠ مليوناً مع العلم بأن كل ما استخرج من الخام
الى اليوم لم يصل ٣٠٠ مليوناً وقال الدكتور (فاجنار) أن بالراند الآن
ما لا يقل عن ١٢٠٠ مليون جنيه من الذهب، وتقوم المناجم على نجاد تتخللها
نوائى الجرانيت وقد حفرت فتحاتها وتعمقت الى ٧٠٠٠ قدم حتى قيل انها



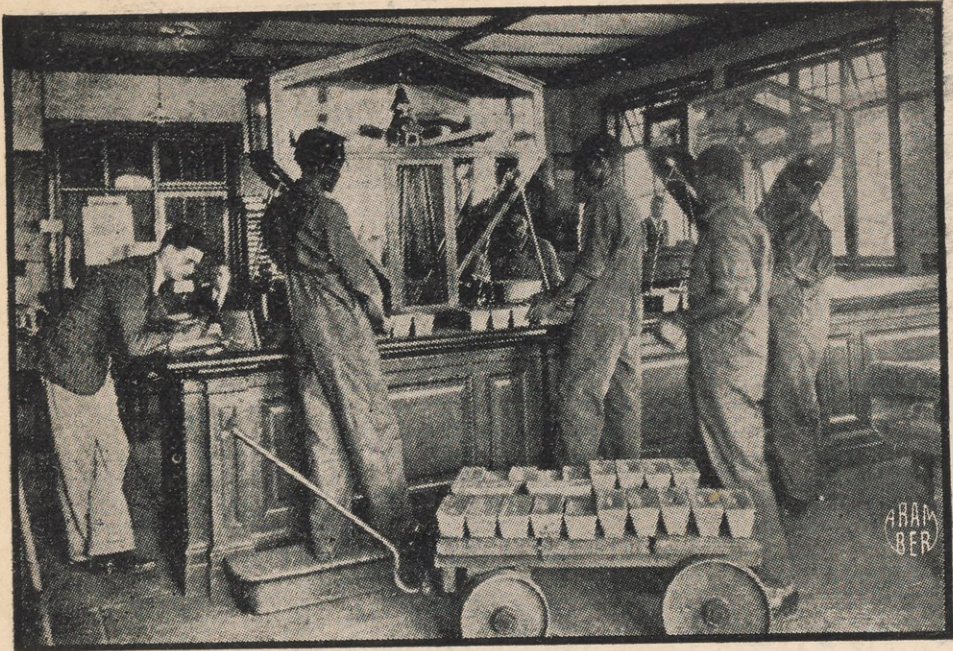
(في الراند أغنى مناجم الذهب في العالم تستخدم أحدث الآلات في الحفر)
أعمق مناجم الدنيا وفي بعضها يشتغل العمال على عمق ٧٦٤٠ قدماً وهذا
يصحبه زيادة في الحرارة وزيادة في الأجور والنفقات وهذا ما يهدد التعدين
هناك وينقص من قيمته عن ذي قبل على أن تحسين وسائل الانتاج لا تزال
تعوض على المعدنين خسائرهم

ولقد درت تلك المناجم على العمال خيراً كثيراً فقد دفعت المناجم
للبيض من العمال في العشرين سنة الأخيرة ١٦٣ مليون جنيه وللأسود
١٢٠ مليوناً ولا يقل عدد البيض عن عشرين ألفاً والأسود مائتاً ألف
ورأس المال الموظف في الراند ٦٣ مليون جنيه وتعد المناجم أبداع مناجم
الدنيا وأتقنها نظاماً تحتكرها ٤٧ شركة يمثلها أعضاء في غرفة تعدين الترنسفال
ويقولون أن نحو ٨٥٪ من سبائك الذهب التي صدرت من الترنسفال

عادت الى البلاد نقودا ، وتلك الثروة الخيالية هي التي قامت من أجلها مدينة جوهانسبرج في الراند وقد بلغ أهلها في أمد وجيز نصف المليون نصفهم من السود والنصف من البيض ولا تزال تضخم بسكانها وقد أقيمت على نتوء جنوب نهر قال (ومنه أخذ اسم ترنسفال أي عبر نهر قال) ، وقد بدأ عدد العمال من السود قليلا فاضطروا الى جلب الصينيين الذين هددت كثرتهم البلاد فرحلوا ثانية بعد أن أحرقوا جثث موتاهم وأخذوا رمادها ليدفن في بلادهم ، أما اليوم فإن العمال السود كثرون جدا وقد أحبوا العمل في المناجم حتى أن أبناءهم لا يعدون رجالا إلا بعد أن يبدأوا التوظيف في المناجم ، وتراهم يقيمون حفلاتهم يرقصون على أنغام طبولهم وموسيقاهم الخشبية (شرائح خشبية كالبيان تضرب وتعطى أنغاما مختلفة) كلما حل موعد تسلمهم لمرتباتهم وكانوا يتبارون في ذلك لدرجة كانت تخرج بهم إلى النزاع والحرب أحيانا خصوصا إذا مالعبت الخمر بلبهم

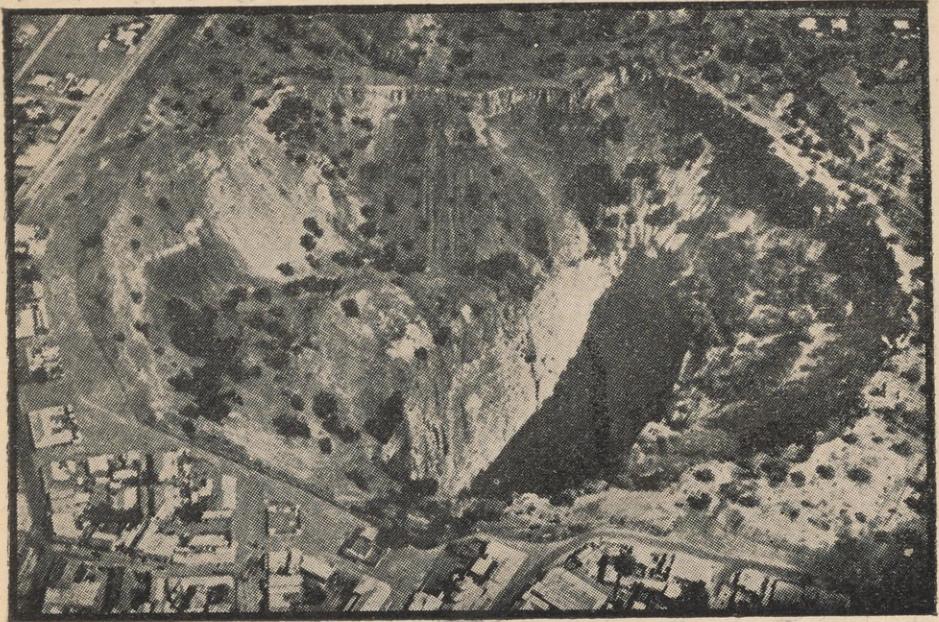
ومن معادن الترنسفال الهامة : البلاتين والماس فالبلاتين ينتظر أن يزاحم أكبر البلاد إنتاجا له وهي روسيا في إقليم أراو ومحصولها السنوي ربع مليون أوقية ثم كولومبيا في أمريكا الجنوبية وتنتج ٥٥ ألفا وثمان الأوقية منه ١٥ جنيهاً والعالم يستهلك في السنة ٢٠٠ ألف أوقية من المعدن الجديد و ٩٠ ألفا من القديم المعاد صهره

أما الماس ففي منجم (برمير Premier) حيث أقيمت مدينة بريثوريا من أجله ، وجدت أول ماسة هناك زنتها ٢٠٢٣ قيراطاً وحجمها ($\frac{4}{3}$) ×



(في مناجم الراند وترى ٣١ سيكة من ذهب ثمن الواحدة ٥٠٠ جنيه)
٢ ½ × ٢ بوصة) والمنجم كأس بر كانية يكسر صخرها بالديناميت ثم يحمل
الهشيم ويركز كل ١٢٠٠٠ طن منه الى قدم مكعبة وهذه تفحص باليد وقد
استخرج من هذا المنجم ٦ ½ طن من الماس قيمتها ٢٨ ½ مليون جنيه مع
ان ثمن الأرض كلها لم يبالغ ٥٢ ألف جنيه على أن مصادر الماس الهامة
في جنوب أفريقية حول نهر أورانج وأقدم ماسة وجدت في جنوب أفريقية
عثر عليها صبي اسمه يعقوب سنة ١٨٦٦ في قرية (هوپول) على الأرنج ،
وكان يلعب بها وزنتها ٢ ½ قيراطا وثمنها خمسمائة جنيه ، وهذا الصبي هو
الذي نبه الناس الى وجود الماس كما فعل ووكر الذي عثر على عرق الذهب

في الترنسفال ، وبعد سنين عثر آخر من الهوتنتوت على قطعة زنتها ٨٣ $\frac{1}{4}$ قيراطا بيعت بمبلغ ١١٢٠٠ جنيهها ، وهي التي يطلق عليها اليوم (نجم جنوب افريقية) وثمنها اليوم ٢٥ ألف جنيهه وسرعان ما ذاعت الاشاعات المبنية على الوهم والمبالغة في أوروبا عن الوديان التي تنتشر بقطع الماس وعن أكواخ الزوج من الطين ترصعها قطع الماس الثمينة فدفع هذا بالكثير الى المهاجرة الى (وادي الماس) وفي سنة ١٩١٣ عثروا على قطعة ثمنها ثلاثون ألف جنيهه وفي ١٩٢٤ وجد طفل قطعة زنتها ٤١٦ قيراطا ولقد ازدحم المهاجرون حول كبرلي التي تحفها المناجم فيما لا يزيد على ميل ، وقد انتجت تلك المنطقة وحدها بنحو ٢٥٥ مليون جنيهه من الماس في أقل من نصف قرن وقد كان الممولون يشترون المزارع الصغيرة بألاف الجنيهات ثم يبحثون عن الماس وكان بعض تلك المزارع يغل ملايين منه ، ويكثر الماس في تربة من الطفل الأزرق والعادة ان العمال يماؤون عربات صغيرة من ذلك الطفل ثم ينشرونه شهورا في العراء والشمس حتى يقل تماسكه ويمكن تكسيه بسهولة وتسمى تلك المساطح (floors) يحرسها رجال مسلحون وتحوطها أسلاك شائكة واذا ما صلحت للعمل حملت ثانية في عربات وحلت بالماء وبآلات ذوات أسنان حادة ، ومن كل مائة عربة تستخلص واحدة تحوى الماس ، وهذه تدخل آلة تفصل الماس الى ست درجات حسب الحجم والوزن ومن كل سبعين ألف طن من الطفل الأزرق يستخرج عشرة أرتال من الماس وعادة القوم عند البحث عن الماس أن يجتمع الحفاريون تحت قيادة رئيس ثم يقفون



(احدى حفائر الماس الكبرى فى كمبرى)

فى صف ويصدر الرئيس الأمر بالجرى فيهجمون سراعاً ويختار كل مكاناً يثق فيه وتبدأ ثم يحفر حوله. وفى سنة ١٩٢٧ كان أكبر سباق من نوعه هناك حين بلغ عدد أفراد عشرين ألفاً جروا كلهم فى وقت واحد

والحكومة هناك تشاطر فى نحو ٦٠ ٪ من الأرباح هذا خلافا لما تتقاضاه من ضرائب الصادر وضرائب الدخل من أصحاب المناجم وقد سنت الحكومة قانوناً بالاتفاق مع اتحاد المعدنين تحدد به مقدار المعروض من الماس كل عام حتى لا يهبط ثمنه هبوطاً فاحشاً يصحبه إيقاف العمل وطرد آلاف العمال من المناجم

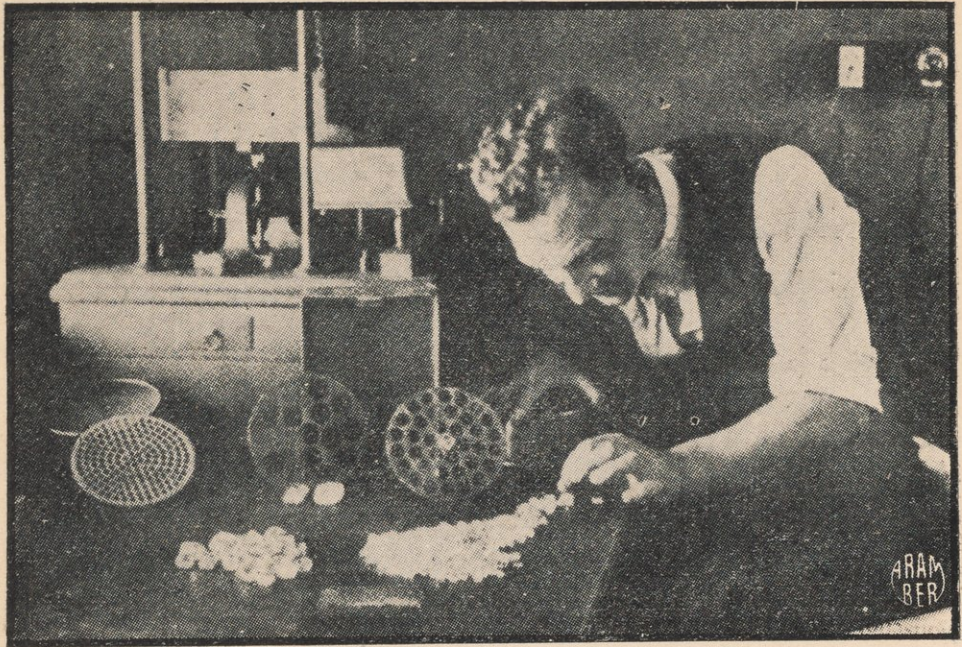
ويظهر أن الماس يعم الاراضى التى يجرى فيها نهر أورانج كلها لأنهم

يعثرون عليها في كل أرجائه الى مصبه حيث ينتثر الشاطئء بالماس إلى شمال
مصب الاورنج بنحو ٣٠٠ ميل وقيل ٦٠٠ ولذلك أطلق على هذا الجزء
اسم (شاطئء الماس) ويرجح العلامة الدكتور فاجنار أنها حملت مع
رواسب النهر ودفعها تيار بنجويلا الذي يسير أزاء الشاطئء شمالا بدليل
صغر بلوراته كما سرنا شمالا مما يؤيد أن في الارانج بطونا للماس لم
تستكشف بعد على أن الماس هنا يعيبه صغر حجمه رغم جودة نوعه

الى الناتال : أقلمت الباخرة في با كورة الصباح (الاثنين ٢٥ يولييه)

والبحر هادىء والجو مشمس بارد كأنه شتاء مصر إذ كنا تقارب بلاد
جنوب أفريقية في شتائها الذى يحكى جوينايير عندنا وفي صباح اليوم التالى
دخلنا خليج دربان أكبر بلاد الناتال وهو في دائرة تحوطها الربى من
جميع نواحيها تكسوها الأعشاب النضرة والأشجار الوفيرة

وأرصفت الميناء ومعداتها هائلة صاخبة وظلت باخرتنا تحمل وسقها من
غرائر السكر الناعم الذى تستخرجه الناتال من القصب المنزرع في مساحات
شاسعة وقد علمنا أن الفدان هناك ينتج بين ٣٠ و ١٠٠ طن من القصب
حسب جودة الأرض ومن السكر بين ١ ١/٤ و ٤ ٣/٤ طن ويظهر أن دراية الزولو
سكان البلاد من السود بزراعة القصب كبيرة لأن الفدان في جاوه مثلا
ينتج ٤٠ طنا من القصب فقط وفي كوبا ٢٠ طنا وفي هواي ٤٩ طنا وهي
من أحسن البلاد انتاجا على أن هبوط ثمنه هذا العام الى أربعة ملايين
لرطل عاكس انتاجه بعض الشئء ويعزى هذا الهبوط الى كثرة انتاج

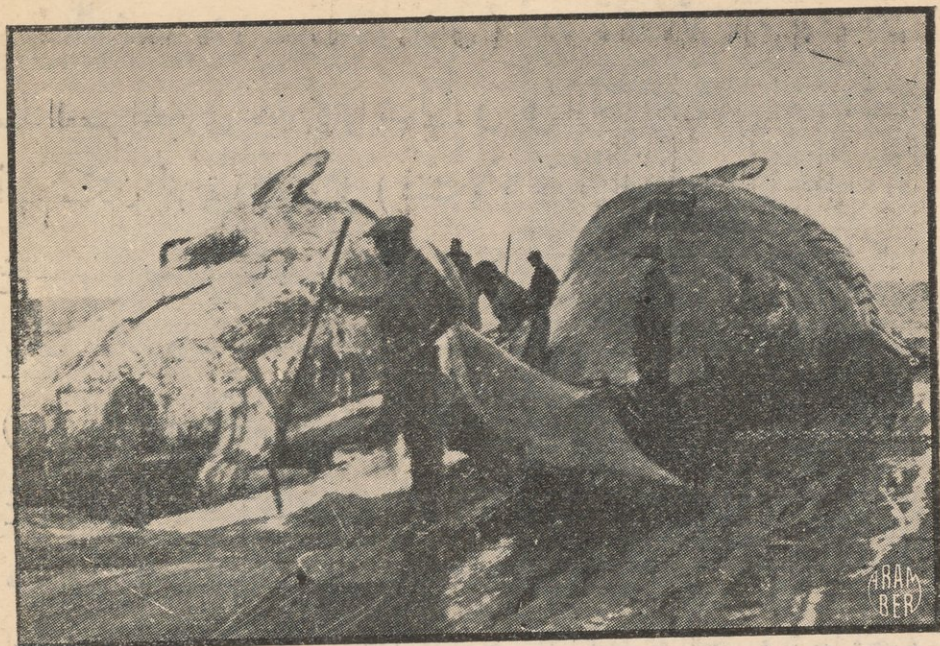


(كيف تفرز قطع الماس بحسب الحجم والجودة)

العالم من السكر الذي بلغ ٣٠ مليون طن مقابل ١٨ $\frac{1}{4}$ سنة ١٩١٤ من القصب والبنجر معا . ولقد أنتجت الناتال ٧٨٨ مليون رطل صدرت نصفها بنحو ١ $\frac{1}{4}$ مليون جنيه سنة ١٩٣٠

ولقد أخذ يحتل القصب الاراضى التى تزرع هناك شايا ذلك لأن الشاى يتطلب خبرة الاسيويين وهؤلاء قد منعت القوانين الجائرة هجرتهم الى جنوب أفريقيا على أنى كسب أرى كثيراً من النجاة يكسوها الشاى وعلمت أن المساحة المنزعة ثلاثة آلاف فدان ولا تسد سوى ربع حاجة جنوب أفريقيا من الشاى وشجرته هناك تنضج بعد سبع سنين لكنها تعطى

محصولا يسد نفقاتها في الرابعة ، ولذلك وجب على زراعه أن يبدأوا برأس مال كبير ينفقون منه حتى ينتج ويربى وإذا غنى بالأرض ونظافتها يؤتي الشاى ثمره لمدة خمسين عاما بدون حاجة الى تجديد زرعه ومتوسط محصول الفدان فى الناتال ٣٥٠ رطلا جافا — كل أربعة أرتال من الورق الرطب تصبح رطلا جافا — وهذا دون المحصول الذى شاهدته عامى الفائت فى جزيرة سيلان بالهند ولعل خبرة الهنود وتوافر عددهم دخلا فى ذلك فان أجرة العامل فى الناتال تزيد على أجرته فى الهند ثلاثة أضعاف ونصف . وقد رست باخرتنا إلى جوار رصيف الحيتان وهو المكان الخاص بأعداد ما يصيده القوم من الحيتان الكبيرة والنااتال من البلاد الشهيرة بصيدها ، وقد كان يلقى أمامنا منها ما لا يقل عن خمسة فى جثث هائلة وقيل لنا أن ما يصاد منها فى جنوب أفريقية لا يقل عن ثلاثة آلاف حوت فى السنة ثمنها نحو نصف مليون جنيه وقد صدرت البلاد خمسة ملايين جالون من الزيت بثلاث مليون جنيه ومن الحوت يأخذون الزيت وثمان الطن منه ٢٥ جنيها ثم اللحم وهو غنى جداً بمادته الغذائية ثم السماد ثم العظام وهى ثلث وزن الحيوان وبها ٢١ ٪ من فسفات الجير ، ٨ ٪ من النشادر ويمكن تحويل الجثة كلها الى سماد غنى ، ولقد أسرف الانسان فى صيد الحوت حتى هدد بالانقراض اذ بلغ ما صيد من نصف الكرة الجنوبي ١٧٥٠٠ حوتا وفى العالم كله ٤٥ ألفا فى السنة ، ولسوء الحظ أن حمايته متعذرة لأنه خارج عن حدود كل دولة فلا يحميه إلا القانون الدولى

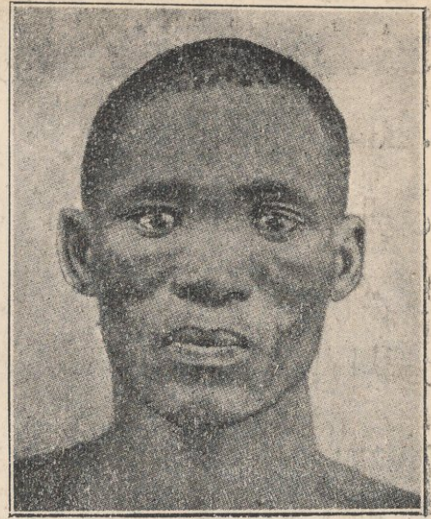
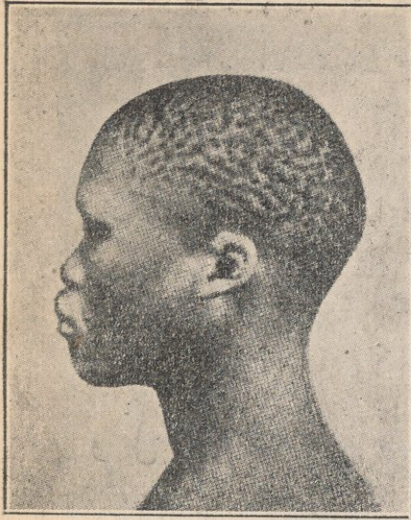


(صيد الحيتان مهنة هامة في دربان)

ولعل أول ما استرعى أنظارنا تعدد السحن واختلاف الأجناس البشرية ، إذ كنا نرى الهنود والملايو مجسومهم الناحلة والسود بقاماتهم الطويلة وعضلاتهم المقتولة خصوصاً المتاييل والزولو أشد سكان الأرض فراسة وقسوة فهم أخطر من الهنود الحمر في أمريكا وزنوج استراليا وما أوري زيلندة وأظهر ما كنا نراهم وهم يسوقون الركشا يلبسون في رؤوسهم القرون الكبيرة علامة على القوة وحولها الريش علامة على السرعة وخفة الحركة الى هؤلاء المولدون الافريقيون بسحنهم الاوروبيه في لون أسمر ثم الهولنديون والانجليز فالناس هناك خليط لا أول له ولا آخر

ولعل أعجب الشعوب جميعاً الهوتنتوت والبشمن :

البشمن : (شعوب واق الواق) أقدم سكان أفريقية فهم هناك منذ العصر الحجري حين كانوا يتنقلون في كل أرجاء القارة على أنه يشك في أنهم سكان أفريقية الأوائل (ذلك لأننا عثرنا على أقزام في وسط القارة يخالفونهم) ولم يكونوا يعرفون النار ، ولقد استحضر منهم فرعون عددا كان يرقص أمامه ويسليه ، وقال المسعودي بأن أهل السواحل عرفوا سكان (واق الواق) وكانهم القردة أولئك الذين عاشوا مع سائر الحيوان قبل أن يخلق الله الإنسان من الطين ، وهؤلاء الحق أن اعتقدوا بأنهم غير آدميين فهم أبعد الناس عن الآدميين لقصرهم (فهم دون خمس أقدام) ولشعرهم المنفوش ولا ذانهم التي لاشحمة لها ولوجوههم المثلثة عديمة اللحم وكانها وجوه الثعالب ، وكانت عيونهم غائرة تحت حواجب مشرفة بارزة وكانت سوقهم الدقيقة وأقدامهم الصغيرة تبدو وكأنها لا تكاد تحمل بطون الرجال المنتفخة ولا الثدي الهادل والعجز الضخم للنساء ، وكانوا رعاة يتنقلون في عشائر عدد الواحدة ٣٠٠ على الأكثر يقودهم زعيم كأنه القائد الحربي والروابط العائلية كانت واهنة بينهم يتزوجون أكثر من واحدة وشبانهم يقتتلون من أجل الحصول على الزوجات ونسائهم وقورات وروابط الزوجية واهنة أيضاً فلا يكاد الطفل يستقيم على سوقه حتى يهيم على هواه والمسنون والمرضى يهجرهم ذوهم لأنهم عبء لا يستطيع الانتقال ، وعبادتهم الجن والتمسك ببعض التقاليد الخرافية وبعضهم كان يقدس (كاآنج Kaang) رئيس السماوات والبعض عبدوا النجوم والقمر ولغتهم فتيرة اللفظ لا تعدو كلماتها



(البشمن)

(الهوتنتوت)

٦٣ وهى غاصة بأصوات التهمة واللكنة (Clicks) ومخارج الأنف فدراستها توضح لغة الإنسان الأول وكيف تطورت ومنها فهم البعض أسرار أصوات بعض الطيور والحيوان وكيف تطورت إلى الكلام وأنت تسمع أصواتهم فى مخارج متقطعة وكأنها عواء القردة .

ويختلف المعنى بحسب طريقه التعبير والتهمة واللغة خالية من صيغ الجمع ومعرفتهم بالحساب لم تتعد الثلاثة لكنهم عوضوا بعض هذا النقص فى اللغة والحساب بالحفر والرسم وفى هذين فاقوا انسان العصور القديمة ومن مواهبهم غرامهم بالأقاصيص وحركات الوجه والرقص الذى يمتاز به كل

سكان أفريقيا وفيما عدا ذلك فليس لهم من متاع الدنيا شيء قط حصلوا على النار من أثر الاحتكاك وسكنوا العشب وردائهم عباءة من جلد خفيف يتخذونها غطاء لهم في الليل وتزينوا بالودع وبيض النعام يحملون فيه الماء ودخنوا نباتا كالطباقي اسمه (dagga) وثملوا بنجر أعدوه من العسل البري وبعض الجذور النباتية ولم يستأنسوا من الحيوان سوى الكلب ولم يعرفوا المعادن ولا الزراعة ولا النسيج ؛ وكان عمادهم في الغذاء على الجذور والتمل وأصداف البحر وما يصيده الرجال من الحيوان بسهامهم المسمومة يتخذون السم القوي من حشرة هي أصغر من البعوضة حجماً وهم في القتال بواسل ولهم قدرة مدهشة على الحصول على الماء من النبات فهم يمتصونه حتى من الغاب الأجوف ومن جذوع الشجر ومن بعض فصائل القرع التي تنمو في الصحراء . ولقد كانوا يقاومون حياة الرعاية التي عاشها الهوتنتوت ويرمونها بأنها حياة خمول كذلك لم يتفوقوا مع النزلاء أبداً ولذلك فني منهم في القتال كثير إلا أقلية تقطن الصحاري فيما جاور كالاهاري ولا يزال العالم حائراً مدهوشاً لما خلفه أولئك المنحطون من الفن الجميل في الحفر والتصوير على الصخور في كل أرجاء جنوب أفريقيا ، وقد أرجعها بعض العلماء إلى ما وراء ٨٠٠٠ سنة ق م .

الهوتنتوت : وهم أحدث عهداً من البشمن ويخال البعض أنهم قبل مجيء الهولنديين بألف عام كانوا يقطنون حول البحيرات ثم زحفوا جنوباً ويرى البعض أنهم انحدروا إلى الساحل الغربي ولازموه إلى الكاب



(بقايا نقوش « البشمن » على الصخور في ناتال)

ثم شرقا إلى الناتال ، وآخرون يرون أنهم ساروا أزاء الساحل الشرقى ، وكان
زحفهم لاجتناب الاحتكاك بالبانثو من جهة وللتخلص من ذباب تسى تسى
حول الزمبىزى من جهة أخرى وأجسادهم أكبر من أجساد البشمن وقاماتهم
أطول ، وكانوا يسمون أنفسهم (خوى خوى Khoi Khoi) أى رجال من
رجال ، وكان لهم لحى وجسومهم أنحف من الأوروبين وظهورهم مجوفة
وأقدامهم صغيرة وعيونهم متباعدة وخدودهم غائرة وذقونهم مدببة ولونهم
زيتونى مصفر ، ورغم شعرهم الجعد الصوفى وشفاههم الغليظة وأنوفهم الفطساء
فإن لونهم يقرب من ألوان الأوروبين ، وهم يزينون شعرهم بالودع
والنحاس وكلا الجنسين يلبسون جلود الأغنام صوفها يلامس الجلد شتاء

ويكون من الخارج صيفاً ، بيوتهم نصف دائرية ومن الحصر والعصى وهم وسط بين العصرين النحاسي والحديدي وعلى ذلك فهم يتقدمون البشمن بمراحل استخدموا النحاس بكثرة والحديد على قلة ، وهم رعاة قبل كل شئ ، ويقع عمل الرعاية على الرجال واعداد اللبن والغذاء على النساء وليس هناك من رابطة بين القبائل يسيطر على كل قبيلة رئيس وراثي ، على أن الثروة لديهم أهم من الزعامة وأغنياؤهم يتزوجون بأكثر من واحدة وعنايتهم بالمسنين والمرضى لا توجد ، ولغتهم أغنى قليلا من لغة البشمن وقد ورثوا عنهم كثيرا من التهمة ، وقد امتزجت بها اللغات الحامية ، وهم يحبون القصص والرقص كالبشمن ، لكنهم أقل منهم شجاعة وفناً إذ لا يعرفون الحفر ولا التصوير أسلحتهم الحراب والسهام ذات الأطراف المعدنية والدروع والتروس من الجلد ، وبعضهم يمرن الثيران تتقدمهم في القتال ليحتموا خلفها وبعضهم يعبد الجن والبعض ارتقى واعتقد في إله الخير ومحوه السماء الحمراء وإله الشر ومقره السماء المظلمة السوداء ، ولا يكاد يوجد الجنس صافياً اليوم رغم أنهم كانوا كثيرين يوم دخل الهولنديون البلاد ، وقد وصفهم ثان ريببك بأنهم مرحون قدرون كرام لحد التبذير كسالى نهمون في الطعام يتناولونه أنى وجدوه شديدو الصبر أبان المحل يحبون التطيب بالأعطار وهم مخلصون صادقون شكورون .

ومشكاة السكان في جنوب أفريقية من أعقد مشا كل الدنيا
فاليبيض منقسمون على أنفسهم لا بحسب الجنسية فحسب بل وأيضاً بسبب



(سائقو الركشا من الزولو والقرون شعار البسالة والريش شعار خفة الحركة)
ماشجر بينهم من النزاع في الماضي كذلك أهل البلاد متعددو
الأجناس والقبائل مختلفو النزعات والى هؤلاء عدد متزايد من الهنود
وعم مبغضون من الفريقين السابقين ، فكيف يمكن لكل أولئك أن
يتمزجوا ليكونوا جنسية لها قومية واحدة ! تلك مشكلة معقدة ، فالبيض
هناك هم القادة والسادة والسود الخدم والأتباع رغم كثرتهم الهائلة - فعددهم

٥١ مليوناً والبيض مليون ونصف - وزاد الأمر تعقيداً أن السود مختلفون في مقدار الذكاء فالبانتو ومنهم الزولو أذكى من الهوتنتوت وهؤلاء أذكى من البشمن ، إلى ذلك كثير من المولدين الذين يحاولون أن ياحقوا أنفسهم بالبيض ويرفعوا مستواهم اليهم

وأكثر ما يرى الهنود في الناتال حيث جلبوا من بلادهم للقيام بشئون الزراعة التي تنحى عنها في البدء أهل البلاد - وهم اليوم نادمون على ذلك - أما في السكاب فالهنود أتى بهم الهولنديون من الملايو وجزائر الهند يوم أن كان جنوب افريقيه تحت حكمهم وكثير من الباعة هناك من الملايو ولهم أحياء خاصة وكثير من نساءهم محجبات يلبسن القناع وكثيراً ما تسمع المؤذن يدعوهم الى الصلاة لأن سوادهم مسلمون

والهولندي والانجليزى القح أخذ كلاهما في الزوال والاقراض والذي يحل محلها اليوم الافريقى (Afrikander) الذى يظهر فيه الأثر الهولندى أكثر من الأثر الانجليزى ، يؤيد ذلك احصاء الجنس الأبيض هناك الذى دل على أن ٧٠ ٪ من البيض فى السكاب هولنديون و ٨٥ ٪ فى الاورنج و ٦٠ ٪ فى الترنسفال ، ولا يسود الدم الانجليزى الا فى الناتال حيث تبلغ نسبة الهولندى ٢٥ ٪ فقط ، ويرى البعض فى سكان جنوب افريقيه الذين اندمج خليطهم اندماجاً تاماً هكذا سيادة المرأة الهولندية وحماسة شبان فرنسا وحنكة السن الألمانى ، ولكثرة توغلهم فى البرارى الداخلية أضحوا نصف متوحشين وأهملوا نظافة البيوت الهولندية وافتقروا الى النظام



(كيف يجدل جميلات « الزولو » شعورهن)

الاجتماعى وعاشوا عيشة شبيهة بعيشة الرعاة الممثلة الى ذلك فان اشتغالهم بالصيد ودوام أكل اللحوم وتعدد الحروب مع الكفرة والبشمن جعلهم أكثر جفاء من الأوروبيين، على ان نظام المعيشة العام يبدو انجليزيا ولغة القوم السائدة مزدوجة انجليزية وتاليه (Taal) وهى لهجة هولندية يحرفها ذووها بين بلد وآخر لكن اللغة الكتابية أقرب الى الهولندية ، أما العامية فقد بسطت كثيراً

ودخلها كثير من الكلمات الغريبة ، وكثيراً ما يسمع المرء ثلاث لهجات هولندية مختلفة : الهولندية التي يتكلمها أهل هولندا ولهجة محلية تستخدم في التعليم والتالية ، ولقد كان لهذا الخلاف فضل في ظهور اللغة الانجليزية إلى جانب الهولندية ، وأغنياء الهولنديين هناك يعيشون عيشة انجليزية ويوفدون أبناءهم ليطموا تعليمهم في جامعات إنجلترا ، وكان يطلق على أولئك الهولنديين شعوب البوير : والسكامة معناها المزارعون لأنهم كانوا يزعمون الأرض لاطعام ماشيتهم وقد كانوا يحتقرون الأهلين لذلك تجدهم مبغضين من السود وهذا مما ساعد على تقدم الانجليز إلى جانبهم في جنوب أفريقية والبويرى حريص في المال شحيح في معاملاته ميال للمرح والذكاك عنيد إلى الحد الأقصى ويحاول البوير منذ قامت حكومة الاتحاد أن يسلبوا غالب الأعمال من أيدي منافسيهم الانجليز لأنهم يشعرون بأنهم الاغلبية التي يجب أن تمسك سلطة البلاد بيدها وتتصرف في أموالها ، ولقد كنت ألمس ذلك في عين السخط التي كان ينظر بها هؤلاء إلى الانجليز جميعاً وهم دائبون على مضايقة الانجليز في أعمالهم ووظائفهم لدرجة أن كثيراً منهم أخذ يترك تلك البلاد إلى غيرها وقد كان معي في سفينة العودة نحو اثمانية من الانجليز الذين فصلهم رؤسائهم من البوير وكانوا يقصدون شرق أفريقيا بحثاً عن عمل جديد وأظهر ما يكون ذلك الشعور في الترنسفال والأوراج أولاً ثم في السكاب والناقل هذا إلى انصراف البلاد تدريجاً عن الاتجار مع الانجليز وشذوذها عن إنجلترا في الاحتفاظ بالنقد الذهبي رغم خروج إنجلترا



(لا تزال تلك العربات تجرها قطر من الثيران أداة النقل في ريف جنوب أفريقية)
عن معيار الذهب مع أن ذلك قد أحدث أثرًا سيئًا في صادرات جنوب أفريقية.
ولغة البلاد الرسمية مزدوجة الأفريقية (الهولندية) والانجليزية وتطبع
جميع الأوراق بهما معا ولا يقبل في الوظائف إلا من يجيدهما وكانت أرى
الاعلانات وأسماء المتاجر تكتب بهما معا وتدرسان في المدارس جميعها

الحاجز اللوني (Colour Bar) ضرب من الرق المستور: ما كان أشد
دهشى واستنكارى للمعاملة السيئة التى يعامل بها البيض في جنوب أفريقية
الشعوب السوداء، رغم أنهم أصحاب البلاد وليسوا دخلاء متطفلين كالبيض
فقانون (الحاجز اللوني) هناك يحرم على السود القيام بالعمل الممتاز الذى
قصر على البيض حتى ولو وجد من السود أكفاء لهذه الأعمال وخص
بالسود العمل اليدوى الميّن إلى ذلك فليس للسود حق دخول الوظائف

العامّة ولهم مدارسهم الخاصّة يدرسون فيها مبادئ القراءة البسيطة وليس لهم دخول مدارس البيض ولا يد لهم في تصريف شؤون البلاد لأنهم ممنوعون من التصويت في الانتخاب ولا يباح لهم دخول النزل والمقاهي وما شاكلها فلهم محالهم الخاصّة بل وفي بعض الأحيان بلاد وأحياء خاصّة وفي بعض البلاد يحرم عليهم دخول الأحياء الأفرنجية بقاءً ولا يقبل الخدم منهم ويعامل الأسيويون وبخاصّة الهنود والصينيين كذلك ، فهم في النأقال ممنوعون من فتح المتاجر بجانب البيض وكم ناقشت القوم في هذا التشريع غير المعقول ذاك الذي ينافي النواميس الطبيعية فكانت تعلاتهم أن أجور هؤلاء زهيدة جداً لدرجة تزاحم البيض مزاحمة قاتلة وهم لا ينفقون في معيشتهم شيئاً يذكر بجانب ما ينفقه البيض لذلك وجب إبعادهم بتشجيع بقاءهم في حياتهم الريفية الهمجية وبسن قوانين تحدّد لهم دائرة أعمالهم وخشية أن يحتاج السود الجنس الأبيض (لأن السود هم الأغلبية الساحقة) يحظر القانون على البيض الزواج من السود أو اتخاذ نسائهم خلائل لهم ولا يباحق بالسود الأسيويون فحسب بل والمولدون وهم من النزلاء والأوائل الذين اختلطوا بالدم الأسود ويميزون على السود قليلاً إذ يسمح لمن يزيد دخله على مائة جنيه في العام بالاشتراك في التصويت العام ولهم أن يقيموا مقاهي وحانات خاصّة بهم أما السود فممنوعون من الخمر بقاءً هذا في الكاب فحسب ، أما في باقي جنوب أفريقيا فالمولدون يعاملون معاملة السود وأدهى من ذلك أنهم يعاملون بعض الدول الأخرى معاملة شبيهة بذلك تلك



(ملك من الباتو يرأس حفلة رقص حربية أمام قصره)

الدول التي يضعونها تحت نظام اسمه (Quota System) وما كان أشد
ألمى عند ما علمت أن المصريين كذلك ! لذلك لم أعجب عند ما علمت أن
(المهاتما غاندى) قد اضطرته معاملة جنوب أفريقية لبنية من الهنود بهذا
الاضطهاد المزرى أن يصبح على مانع له فيه من التطرف في الدفاع عن
صالح بنيه لأنه أمضى شطراً من حياته مشغولاً بالقانون في بلاد جنوب
أفريقية وعان بنفسه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان

وتعجب إذ تعلم أن كثيراً من العمال من البيض كسالى يعوزهم النشاط
فهم لا يفترقون عن السود كثيراً ومع ذلك تجدهم ممتازين وقد قيل أن نزلاً،
الجنس الأبيض الذين حلوا جنوب أفريقية وجدوا العبيد فاتخذوهم رقيقاً لمدة
قرنين فقد البيض خلالها نشاطهم وفضائلهم الخلقية — وتلك من سيئات

نظام الرقيق حيثما وجد — وقد بدأ ذلك في المائة عام التالية لإلغاء الرقيق تلك التي أظهرت في البيض الخمول وكرهية الممل اليدوى فلو أنهم بعثوا الى هناك أفواجا ولم يزودوا بالعبيد لكان اليوم منهم شعب نشيط وحيث طال أمد الرق في جهات من الكاب تضاعل عدد البيض أكثر من ذى قبل ولقد كثر عدد العاطلين من العمال البيض قليلى الخبرة فأضحت مشكلاتهم معقدة لأن مزاحمة السود لهم خفضت مستوى أجورهم جداً ولذلك صعب على البيض اللاجئين من القرى إلى المدن أن يجدوا عملاً، إلى ذلك فكثير من البيض وبخاصة فى الترنسفال كانوا يعيشون على صيد الحيوان والاتجار فى لحمه وجلوده لكن عدد الحيوان البرى ندر اليوم فقلت مواردهم، كذلك كان فريق منهم يعيش على أجور النقل فى عرباتهم التى يجرها الثيران فى قطارات طويلة واليوم أخضعت سكة الحديد عليهم موردتهم هذا فلجأت الحكومة إلى تشجيع استغلال المزارع واحلال البيض محل السود فيها وفى السكك الحديدية وكذلك فى الأعمال ذات الأجور الممتازة فى المناجم فهناك يبلغ متوسط أجر العامل الأبيض ٣٦٠ جنيتهاً فى العام وهذه من أغلى الأجور العالمية ولقد كان أمام السود مجال فى الأعمال الكتابية وفى الوظائف فى المحال التجارية لكن قانون (الحاجز اللونى) الغريب قد حدد ذلك لابل وكاد يحرمهم منه بتاتاً ولقد أدركت الحكومة هناك مدى الأحماف فى هذا التشريع فبدأت تقصر تنفيذه على المدن دون الريف .

وعجيب أن الحكومة تجبى ضرائب على الراشدين من السود فكل



(تسعة اخوة من زوجات عدة - قبائل الباتو)

واحد يدفع جنيتها في العام ونصف جنيه آخر عن كل زوجة من زوجاته وقد شجعت تلك الضريبة على العمل اليدوى وان عا كست تعدد الزوجات كثيراً ، وفيما يختص بالاسيويين سنت قوانين بعدم دخولهم في الاتحاد بتاتا وهم يغرون من يميل الى العودة الى بلادهم بالسفر حتى على حساب الحكومة على ألا يعودوا وهم يحرمون على الموجودين هناك دخول المدن وقد قصرت اقامتهم على الارياف ، والبيض قلقون جداً بسبب الزيادة المطردة في عدد السود بنسبة تتلاشى أمامها زيادة البيض ويخشون أن يجتاحهم السود اجتماعيا واقتصاديا ومن الاحتياطات التي يتخذونها لمنع ذلك تشجيع الحكومات الوطنية في الريف تحت حاكم أيض وتشجيع



(جبهة من أ كواخ البانتو - كراال)

الملكية واهمال فكرة الشيوع في الارض والمسك بذاك القانون الظالم الذى
يخصص العمل الممتاز للبيض دون السود ذاك التصرف الذى ينقده الكثير
لمنافاته للانسانية ولأنه يجعل البلاد عاجزة عن منافسة العالم اقتصاديا بسبب
علو أجور البيض لكنهم يعترفون بانهم مضحون فى ذلك مقابل ضرورة
تحويل البلاد جميعها الى مواطن للجنس الابيض دون الاسود الذى يرمقه
البيض بنظرات الحنق والاحتقار فلا ينادونه إلا بنغمة الأمر ولا يتحدثون
عنه إلا باسم (كافر) مما كنت أتألم له كثيرا ، على أن القلق وعدم الرضى
من جانب السود أخذ فى الزيادة لأن احتكاكهم بالبيض علمهم أن
يتمسكوا بحقوقهم وصوالحهم التى شعروا بأنها مهضومة ضائعة وقد أخذ
يبدو ذلك فى حركات الاضراب حيثما يكثّر العمال من السود هناك

جنوب أفريقية

كيف منعت من دخوله

تقدم المسافرون على الباخرة الى ضابط المهاجرة ولما أن جاء دورى فاجأنى الضابط قائلاً : آسف أن أبلغك بأن حكومة الاتحاد لا تسمح لك بالنزول فى بلادنا ، كما يقضى قانون المهاجرة ، قلت ولكنى سأخولست مهاجراً وجواز سفرى يؤيد ذلك وهامى أوراقى الرسمية التى تثبت بأنى موظف فى الحكومة المصرية وانى جمت فى رحلة علمية ، قال هذا أمر المنع ولا طائل فى المناقشة ، قلت ولكن الباخرة سائرة بعد السكب الى انجلترا رأساً وليس ذاك طريقى فهل يسمح لى بالنزول حتى آخذ أول باخرة عائدة إلى شرق أفريقيا ، قال لا يكون ذلك الا بأن تزج فى معسكر المهاجرة حتى تجيء الباخرة قلت ألا أستطيع أن آوى الى نزل تحت رقابتكم بعد أن أدفع التأمين الذى تطلبون قال هذا لا يكون وتركنى

موقف قلق لم أخبره طوال حياتى ! أقوم برحلة كبدتنى كثيراً من الجهد والمال قصد البحث العلمى الخالص فأودع السجن ! أية عدالة فى الدنيا تسبغ ذلك ؟ لبثت ليلتى أتردد فوق ظهر الباخرة من مقعد لآخر ورجل البوليس يراقبنى ويسير خلفى أنى سرت ، وركبان الباخرة يرمقوننى بنظراتهم التى كنت أقرأ فى بعضها العطف وفى البعض سوء الظن بأنى مجرم أثيم ،

ثم آويت الى مضجعي ولكن كيف ينام الحائر القلق الاعزل . وفي صباح
اليوم التالي علمت أن باخرة العودة ستجىء بعد ثلاثة أيام فأثرت السجن
لكى أتخذ رحلتى بعد أن أكدوا لى أن المكان مريح وأنى سأكون
ممتعا داخله بكل ما أريد وسأدفع نفقات الحجز والرقابة والحرس وحمل
المتاع ، ولقد استكتبونى صكاً بقبول السجن ودفع ما أطلب به من نفقات
ولم يكن يدور بخلدى أن فى الأمر شيئاً خفياً

جىء بى إلى معسكر كبير وما أن دخلته حتى بدأت الغلظة الأليمة
والمعاملة التى تذكرها النفوس الأليمة وبخاصة من رئيسهم المسمى (هلاول)
الذى بدرنى فى نعمة الأمر بقوله : أمعك نقود ؟ اسرع واطهرها ، ثم نظر
الى شذراً وصاح : مالك تضرب فى مشارق الأرض ومغاربها هكذا !
ادفع ثمن هذا غاليا الآن ! قلت وما شأنك فى هذا ؟ انى مستعد أن أدفع
ما تطلبون ، ثم هم يفتشنى بشكل قبيح وهو يقول : نحن لا نحب أن نرى
وجوه المصريين هنا

قلت ألا يصح أن أعامل معاملة هى خير من تلك كما وعدتمونى
قال لا تعارض فتلك أوامر يجب ألا تناقش بعد أن وكزنى ووجهه مقطب
كثيب ، ثم التفت إلى الحقائب وقال افتح هذه لنرى ما فيها ثم أمرنى
أن أخرج منها ما أريده داخل السجن ، وكلما أخرجت شيئاً قذفنى بنكاته
القارصة ، من ذلك أنه رأى زجاجة (صبغة اليود) فقال حذار أن تشربها
اللييلة ! ورأى المشط فقال : وكذلك الشعر لا بد أن تمشطه ! ورأى بعض

السكرتير فقال وما تلك ؟ قلت بعض مؤلفاتي في الجغرافيا والرحلات فقال :
إذن فأنت الرجل الذي أبغضه منذ الصغر ! وما إلى ذلك من هراء القول .
فشارت ثأرتي وقلت أنا لا أطيق هذه الاهانات وخير لي أن أعود إلى الباخرة ،
قال لا فقد انتهى الأمر .

حملت متاعى والسجان أمانى يصيح في خشونة (أدخل هنا !) وإذا بي
أجوز باباً حديدياً مصمتاً في أعلاه أعواد الحديد إلى ردهة صغيرة سماوية
إلى يسارها صف من القاعات المحتنقة المظلمة فاسدة الهواء إذ ليس بها سوى
فتحات عالية محتنقة بها شباك الحديد والسلك ، أما الباب فحديد مصمت
حاولت أن أحركه حول مفصله لتتسع فتحة مدخله فلم أستطع لثقله ، وليس
بهسوى ثقب مقبي يعشاه الزجاج وهذا ليطل خلاله السجان فيرى ما أنا فاعل
داخل ذاك الحب ، أما الأرض فالأسفلة القاتم الأغبر والسقف ألواح
الحديد ويلاصق الجدران لوحتان من خشب للجلوس أمامهما ثلاثة أسرة
هى أعواد ثقيلة من خشب متباعد عليها قطعة من لباد أغبر و بطانيتان
رقيقتان باليتان أقدر من أن تسيغ لك نفسك لسهما ، تلك هى مقرى داخل
السجن ، وفى الجانب الآخر من الردهة مقصورة للمياه تعاف النفس دخولها
وصادف ان كنت فى كل هذا السجن وحيدا وقد ترك معى عبد أسود
ضخم الجثة غائر العينين يراقبنى أنا ويتهادى مشيا على مرأى منى أنا آخر
وكلمت مضت فترة سمعت صليل أبواب وحدائد مزعجة وإذا به حارس آخر

يدخل ليرمقني ثم ينصرف ، وكان كلما دخل واحد بدرني قائلا (أمعك نقود ؟) . صور نفسك في هذا الموقف ، وقد أرخى الليل سدوله وساد السكون الا في وطء أقدام ثقيلة لذاك الزنجي خلال فترات متقطعة . وكما أقبل ميعاد الطعام وفد الغلام (بصينية) من حديد أسود صدىء بها بعض أطباق من الزنك والى جانبها (براد) من زنك قديم قدر به شاي مازجه اللبن ومنطال (كوز) لآتناول فيه الشاي وأقسم لو وجدته في مرحاض لما مسسته ، وهذا هو الطعام الممتاز الأوروبى الذى سأدفع عنه أكثر من سبعين قرشاً كل يوم .

جن الليل واشتد البرد ونوافذ الطاقات مفتحة ليس بها أبواب والفصل هناك شتاء قارس يعادل برد يناير في مصر تماما ، ومفروض أنى سأنام ملء جفونى لأنى لم أنم الليلة الفائتة الا غرارا ! مفرش قدر يابس وغطاء منتن خفيف لا وسائد ولا تكات والقاعة واطئة مرطوبة نز الماء يلمس فى جدرانها ، على انى لا أعظم القوم فضلهم فقد كان من وسائل الترف فى تلك الغرفة مصباح كهربائى ضئيل وقطيلة (فوطه) خيل إلى من شدة قذارتها أن الزنجى مسح لونه فيها . هكذا افترض أن أقضى ثلاث ليال كنت أسرح فى مداها اللانهاى واذا بالغلام يتحدث الى فيقول : متى تسافر ؟ قلت يوم السبت فى أول باخرة قال : ومن يدري ! فطالما كان المسجونون أمثالك يقولون أننا سنسافر بعد يومين فيقيمون عشرات لا بل وشهورا ، قلت ولماذا قال لأن القوم هنا يستفيدون بطول المكث نفقات من المسجونين فيفوتون

عليهم باخرة وثانية وثالثة بحجة أنها ممتلئة وليس بها أما كن خالية . وأنا أعلم أن لو أفلتتني الباخرة المقبلة انتظرت بعدها ثمانى ليال أخرى حتى تجي الثانية !

قلت يا لله أهكذا يعامل الأبرياء في بلاد تدعى المدنية وتنتحل لها جنسية أوروبية نفورا مما تسميه بالهمجية الافريقية ، وهل بعد ذلك وحشية وتجرد عن الانسانية ! أهكذا يكافأ البحث العلمى الخالص فينقلب الثواب عقابا قاسيا ممضا !

في الساعة والنصف مساء أقبل الحارس وأخذ يحادثني عن سبب سجنى ولما عرفنى قال : ولكن كيف يتصرفون مع رجل مثلك هذا التصرف المشين ، وأخذ يطعن على العقول المدبرة لتلك البلاد بشكل دلنى على أن الفساد شائع ، وهذا عين مقاله لى الحارس فى الباخرة بالأمس ، وفي نهاية الحديث أبدى أسفه ولما أخذ ينصرف قال هذا (الجردل) لقضاء الحاجة ، ثم أغلق على الباب بمفاتيحه الثقيلة . أظنك تقدر مدى جولات الفكر فى عزلة القلق الأعزل ، أخذت الساعات، تتلو بعضها البعض والسكون يزداد ونحشة إلى منتصف الليل حين اضطجعت وإذا بطفيليات البق وغيره تتسابق الى وتترامى على من كل جانب فقامت فزعاً عيوفاً ، فكم من مجرم أثيم ملوث الدم موبوء الجسد لامست تلك الحشرات ! لم يسعنى إلا المكث على مرارة الخشب بعيدا عن هذا الفراش الموبوء حتى الصباح ، وأخذت تمر الساعات وأنا كلما أسمع جلبة أخال الحارس أقبل ليفتح الباب فتزول بعض

الوحشة حتى الساعة الثامنة والنصف صباحاً حين فتح الباب وقدم طعام الإفطار في صمت وتقطيب ولبثت أتوقع أن يحمل الزنجي الفراش (والجردل) وإذا بي أنا المكلف بذلك فلم تسع لي النفس عمله وتركت الأشياء مكانها كتبت للرئيس أقابله شاكياً شارحاً ما لقيت فرفض طلبى وكم كنت أخشى أن يطول بي المكث ويفوتنى هؤلاء الأندال الباخرة فأظل في هذا الحب ما شاء الله وكم كنت أرى من نقوش على الجدران خطها من أصابهم سوء الحظ أمثالى فزجوا في ذاك الحب وكلها تدل على الإيلام الممض منها من يصف تلك البلاد التى تدعى المدينة بأنها أظلم ما على سطح الأرض ، والبعض يشبه المكان بجهمم والبعض يكتب : سأبرح هذا الجحيم غدا بعد أن قضيت فيه شهراً ونصفاً !

وفي الصباح كتبت أرجو مقابلة الرئيس للمرة الثانية فجاءنى الضابط البغيض (هالاول) وأخذ يتهكم فى قحة زائدة ولم يسمح لى بمقابلة الرئيس وقال إن كان لديك شكاية فيها أنا ، فقلت له أيليق هذا المكان برجل مسئول مثلى سيدفع عنه جنيها فى اليوم ، قال : وأى مسئول أنت ! قلت موظف فى حكومة لا تقل احتراماً عن حكومتكم ومدرس ومشتغل بالعلم والتأليف ، فأخذ يتهكم ويقول : نعم المكان لا عيب فيه فهل تظن أننا سنقيمك لك من جديد !

أقبلت الليلة الثالثة وأمضيها على مضض انتظاراً لما عساه يجيى به الغد وعند الفجر شعرت بألم مبرح فى أحد جنبي من أثر برد المكان

ورطوبته وحاولت أن أقاومه ولكن ليس في الوسع شيء ولو ناديت حتى
اختنقت فلن يسمعني أحد ، أخيرا أقبل الغلام بالافطار وهو يقول : أنت
ستذهب الى الباخرة اليوم لأنني رأيته على الميناء أمس ولأنني أخبرت المطعم
ألا يجهز لك طعام الظهر فاستبشرت ، وفي العاشرة جاء الضابط الذي ابتلاني
الله به وناداني في سوء أدب وخشونة قائلا : محمد ! محمد ! امستعد للخروج
فرمقته شذرا ولم أجبه فقال ستخرج بعد نصف ساعة وحاول أن يكون
متظرفا ، ولما خرجت وصعدت الى الطابق العلوي لأتسلم تقودي طلبت أن
أقابل الرئيس ، فقال لماذا ؟ قلت أريد التحدث اليه ، قال ولكنه خرج
ولن يعود إلا اليوم الاثنين بعد باكر فهل تنتظره ! فأسرعت وقلبي يسابقني إلى
الباخرة ، وأخذ بعض ألباعه يتألم لما حل به وقال بأن هؤلاء الضباط جميعا
أنذاك تلك طبيعتهم هم يشوهون سمعة البلاد دائما ونحن الموظفون تحتهم
لا نستطيع الكلام نتألم لما يجري أمامنا ونحن صامتون وهنا أقبل ذلك
النذل وجلس الى جانبي وقال :

أظنك غاضبا ! قلت وأية نقمة وغضب وبخاصة لما لاقيته على يديك
أنت شخصا ! قال ولم ! قلت لأنك عاملتني معاملة الكلاب قال لم
يحصل شيء من ذلك ، قلت في صوت جهوري ألسنت أنت الذي قلت كيت
وكيت وذكررت بعض اهاناته لي ولما رأى جموع المسافرين منصتين لقولي ،
قال : بل كنت أمزح لأنني رأيته في موقف حرج فأردت أن أسرى عنك
قلت هل تبادلنا الاخلاص والتعارف من قبل وهل تقاطيع وجهك كانت تدل

على المزاح، وهل قولك بأنكم لا تحبون المصريين قول المازح؟ قال إذن ستشكوني
 خاصة قلت نعم إلى كافة النواحي المسئولة في مصر وانجلترا بل وفي كل بلد أتصل
 به، فبدت عليه علام الأرتباك وقال لكن حذار أن تقول غير الصدق
 فأنا خادم الحكومة أنفذ قوانينها فحسب، قلت نعم لكم أن تمنعوني
 من الدخول في بلادكم ولكن ليس لكم أن تلحقوا بالناس مثل تلك
 الاهانات فليس ذلك من القانون في شيء، فتركني وأقلعت الباخرة
 والناس من حولي أقص عليهم أمرى فيذهلون ويستنكرون ويرمون
 القوم بكل خسة وتوحش

هنا باغتني شاب بمساوى قائلا: لقد أخطأت التصرف فلقد حل بي
 مثل ذلك يوم حللت البلاد منذ ثلاثة شهور لكني كنت أحسن حظا
 منك إذ لجأت إلى تصرف مالي مهدى لى سبيل الدخول ولقد أيد ذلك كثير
 من المسافرين ومن بينهم بعض العائدين من الانجليز!

وقد شرعت أكتب احتجاجي لرجالهم وكبريات جرائدهم من
 ظهر الباخرة، فجاءني رد جريدة (ناتال مركورى) بأنها عاينت مكان
 السجن فإذا به حوشى مشين، ورد وزير داخلهم في شبهة اعتذار بأن
 القانون قضى بذلك ويؤكد في آخر خطابه بأننى (على الأقل لاقيت أحسن
 معاملة على أيدي رجاله!) فعجبت لتلك المغالطة اذ كيف تعد تلك الشتائم
 وذاك السجن المرزى من حسن المعاملة.

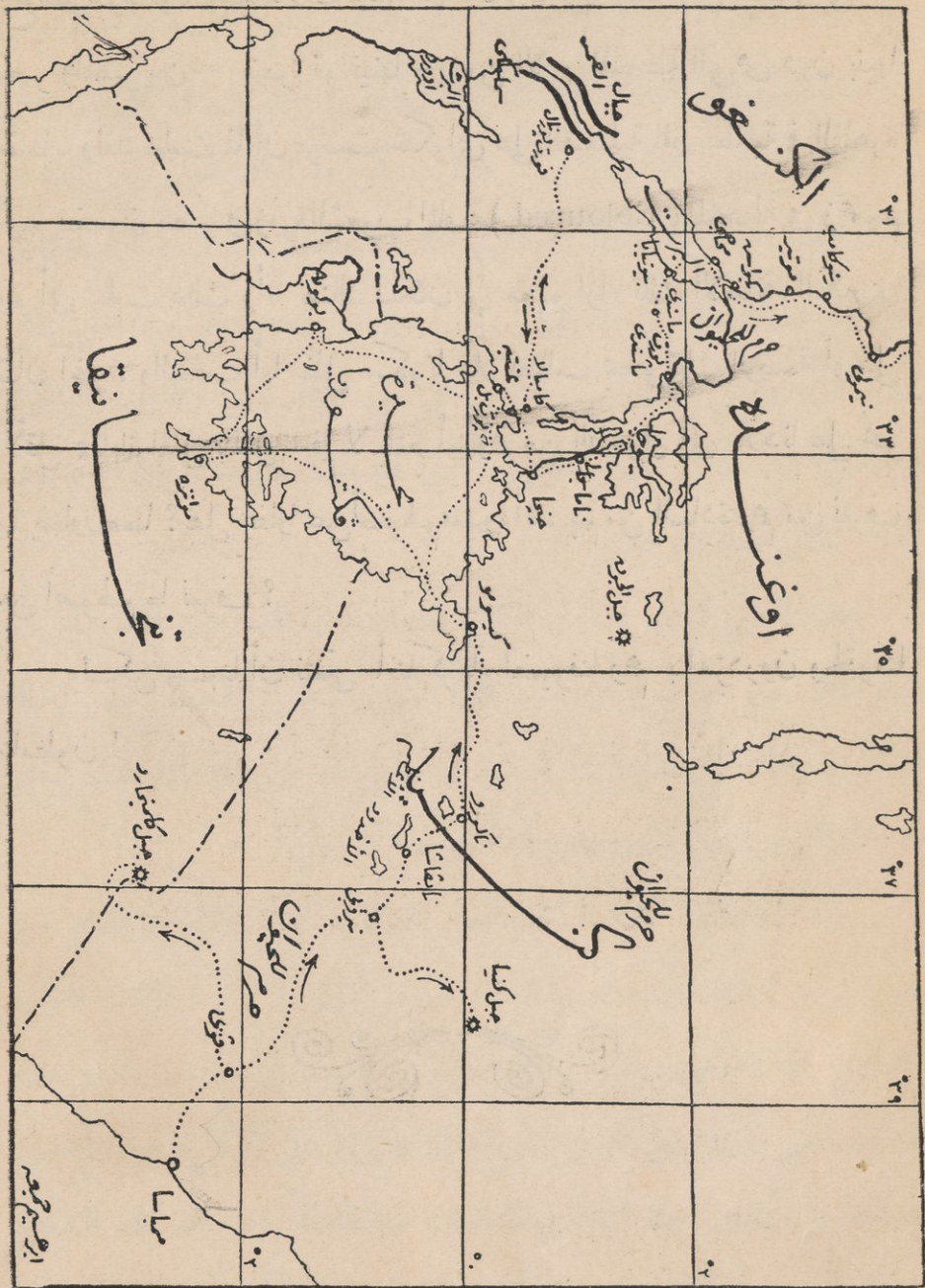
غابت عن ناظري تلك البلاد التي سأظل أحمل لها أسوأ الذكريات، بلاد لم

ترع للعلم حرمة ولا للمجاملات الودية عهدا ، ولكن كيف تفعل ذلك وهى تعد
مصر والمصريين — بنص قوانينها — من الأثم المنحطة التى هى دون بنيتها
مقاما . ولقد علمت لما أن عرضت شكواى على القنصلية البريطانية فى القاهرة
أنهم يضعون مصر فى زمرة الشعوب الملونة (Coloured) المنحطة فى زعمهم
ولو أنى علمت ذلك وأنا هناك لكان لى معهم ازاء تلك الالهانة الكبرى
شأن آخر . والعجب أنا نظل سكوتا فلا نطالب بمحو تلك الوصمة أو على
الأقل بمقابلة المثل بالمثل ، فلم لا يمنع أبناءهم من الدخول إلى بلادنا على نحو
ما يفعلون معنا ؟ هل غفلوا عن أصولهم فعدوا أنفسهم من السادة وهم من نعرف
من أصولهم ما نعرف ؟

ولكن حسبنا أن نتغنى بأننا كرماء لضيوفنا وهم بنا مزدرون ولحقوقنا

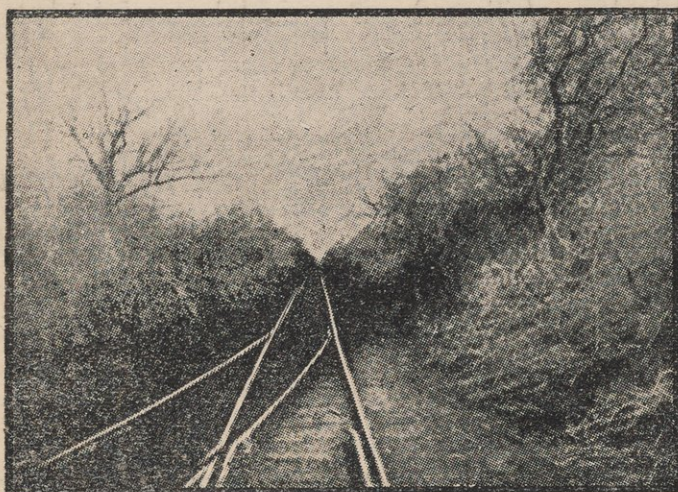
غامطون !





بلاد كينيا

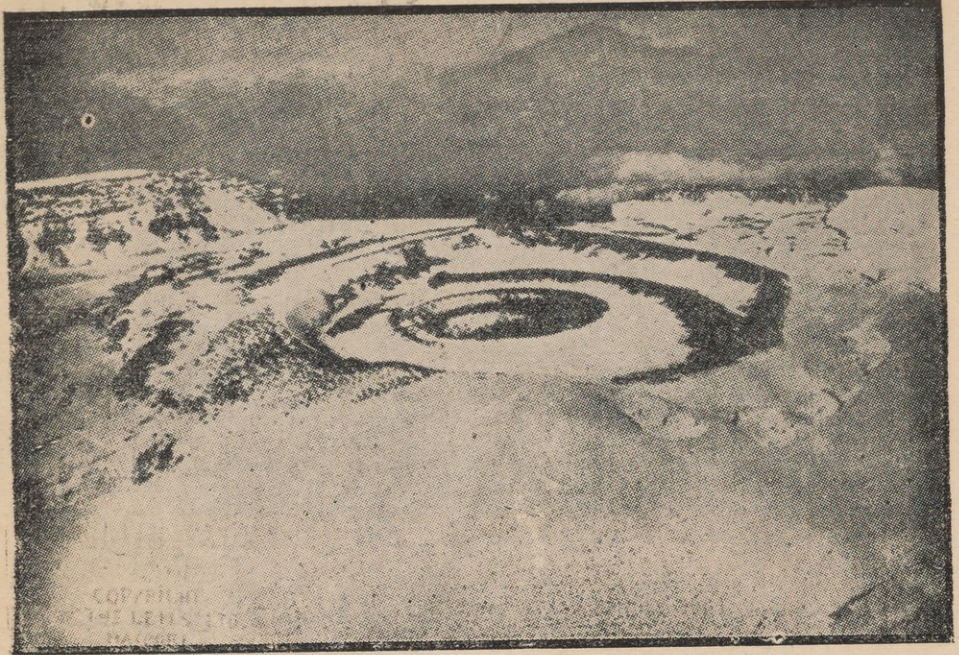
عود الى ممباسا : ركبت البحر عائداً من حيث حئت ومررت
ثانية ببلاد افريقية الشرقية البرتغالية ثم بلاد تاجانيقا ثم بلاد كينيا ولما ان
حلت بمباسا قمت بقطار (البضاعة) اخترق قلب بلاد كينيا ، ولم يوافق



(تبدو هضبة كينيا موسم الجفاف شبه صحراوية)

يومي يوم قطار للمسافرين (mail) وذلك يقوم مرتين في كل أسبوع ، وفي
كل يوم عداهذين قطار للبضاعة تلحق به عربة أو اثنتان للمسافرين .
أخذ القطار يسير بنا وسط جنة من المنبت الوفير والشجر الكثيف
وكان أظهره النرجيل والمانجو وبعد مسيرة خمسة عشر ميلا وهي عرض
السهل الشرقي الساحلي الوطني ، أخذنا في الصعود السريع في ليات عجيبة

وبين آونة وأخرى كانت تنكشف وهاد مغضنة وفيرة النبت عديدة النقائع مشعبة المسایل فی مشاهد خلابة حتى أقبل الليل ، وكان كلما تقدم القطار قل النبت فصار عشبا ، وفي الصباح كنا نسیر فوق هضبة شبه مجدبة شتان بينها وبين المنحدر الساحلى الذى كان بالأمس غنيا بالشجر ، وكاد الشجر ينعدم فی تلك البرية شبه الصحراوية ألا فی شجيرات نصف شائكة والارض يكسوها كلاً جاف لذلك يسميها الأهليون (Nyika) ومعناها البرارى وأجف جهاتها قطعة وسطها تسمى تارو (Taru) ، وزاد الاقليم جفافا أنا كنا نجوزه أبان موسم الجفاف الذى يكاد ينعدم مطره ، والمحاط صغيرة ونائية عن بعضها والجهة تكاد تخلو من الاهلين اللهم ألا جمهرة من السود كانوا يفدون اليها كلما وقف القطار من أكوأخهم المنشورة وكانوا فرحين كأنهم وجدوا بعض الانس فی ضوضاء القطار ، ويختلط بهم كثير من الهنود الذين يكونون السواد الأعظم من موظفى المحاط والقطر ، والكل يتكلم السواحلية التى يفهمها الجميع وان كان لكل قبيلة لهجة خاصة لا تفهما جارتها فالسواحلية أصبحت لغة التفاهم (Lingua Franca) وهنا فاجأتنا سحابة كثيفة من الجراد الذى يغير على الاقليم منذ ست سنين ويهدد المزارع وطالما فتك بإنتاجها ، وكثير من الاهلين عرايا إلا فی أزار فضفاض من الجلد ويدهم القسى والسهم والى جانبهم الخناجر الكبيرة على فطرتهم الاولى ، أما الجو فكان أميل الى البرودة وبخاصة فى الليل وبأكورة الصباح اذ جا كى شتاء مصر تماما — رغم أنا تقارب خط الاستواء قلب المنطقة



قمة جبل كلمنجارو أعلى ذرى أفريقية وأصلها كاس لبركان خامد تبدو
كالطبق المقلوب

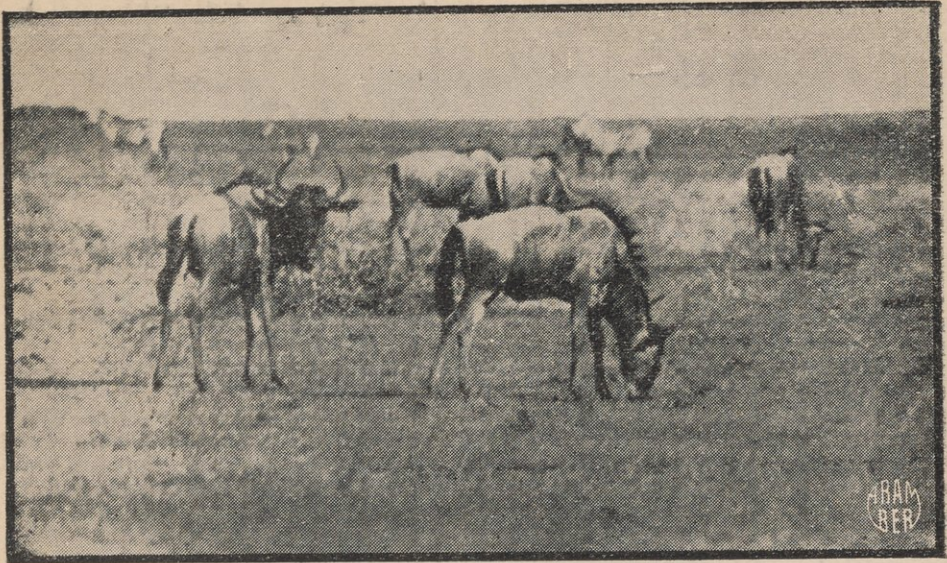
الحارة . وذلك من أثر الارتفاع الذى كان يناهز خمسة آلاف قدم وكانت
السماء صافية مكنتنا أن نمتع البصر بمشهد :

جبل كلمانجارو : أعلى ذرى أفريقية جميعا يشمخ فى السماء الى

١٩٧١٠ قدم تتوجه عمامة من الثلج الوضاء علوها ٧٠٠٠ قدم وحدها ولذلك
لم أعجب لما علمت أن معنى كلمان جارو الجبل الأبيض وأصله بركان خامد
تكسو جوانبه الغابات من علو ٦٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ قدم تحتها شجيرات
وأعشاب ومزارع تعم مدرجاته الهادئة وفوقها عشب قصير الى ارتفاع

١٣٠٠٠ قدم حيث تبدأ الثلوج ، تلك التي تبعث بالسن من الثلجات عديدة تنزل إلى علو ١٢٥٠٠ قد. في جنوبه الغربي وإلى ١٨٧٠٠ فقط في الشمال ويسمى شعوب المساي ذروته الغربية المسماة (كيمو) ببنت الله (نجاجي نجاي Ngaji Ngai) ويعمل البعض ندرة ثلوجه على سفوحه الشمالية والشرقية التي كنا نراها الى تيار هوائى دفى يمر في سماء تلك الجهة ، وقد حدثنا بعض القوم بأنه يرى في أعلاه وكأنه الأبناء المقلوب وهو أسهل جبال أفريقية جميعاً لمن أراد تسلقه ، وان تلك الغابات التي نراها ملتفة كشيفة الى حد مخيف يليها علواً إقليم شبيه بجبال الالب في عشبه وزهوره ثم يعبرى أديم الجبل في صخر بركاني قائم مسافة طويلة تؤدي بنا الى الثلوج الوضاء وهناك يخف ضغط الهواء لدرجة تجعل نبرات القلب تدق سراعاً حتى لتكاد تسمعها فيمن يجاورك من الصاعدين ولا تقوى على احتمالها إلا القلوب الراسخة القوية وسكة الحديد يخرج منها فرع عند محطة (قوى) الى حجر ذلك الجبل العتيق ، وكانت أخص المزارع أسفل من البن والموز تتصاعد أعمدة الدخان من آلاف الاخصاص المختبئة فيها

واصل القطار بنا سيره في قلب كينيا وما لبث أن وقع البصر على جماهير من الحيوان البرى في أنواع مختلفة وقطعان لا تدخل تحت حصر ذات اليمين وذات الشمال تعرفت من بينها الزبرا والزراف والتمياتل والنعام . هنا علمت أننا بجانب أكبر حرم للحيوان في الدنيا (Game Reserve) لا بل أكبر حديقة طبيعية للحيوان يحرم القانون



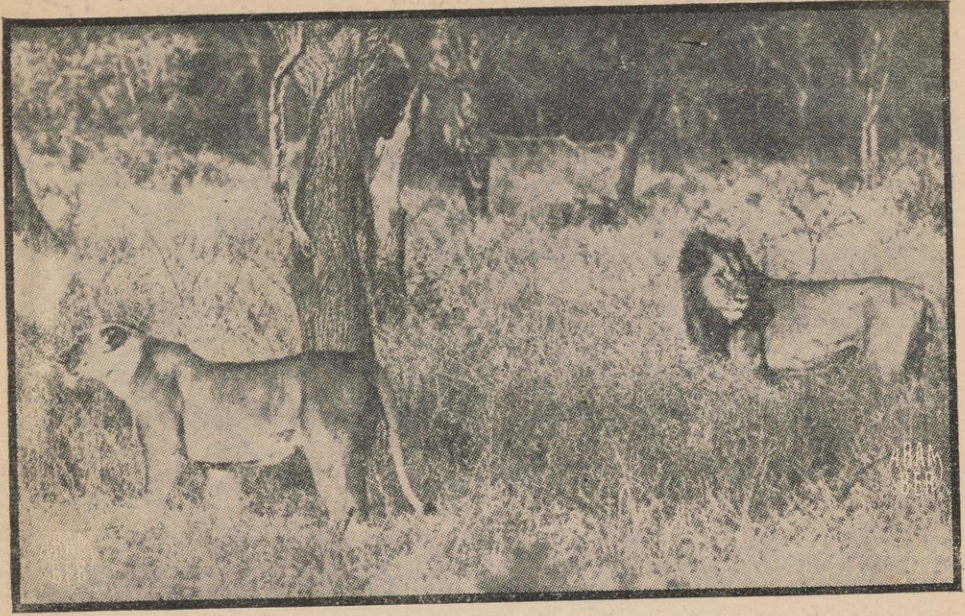
(قطع من وايلديست فى حرم الحيوان)

صيد الحيوان أو قتله داخل حدوده ، ولقد كان شريط سكة الحديد هو الحد بين الحرم إلى اليسار والصيد المباح إلى اليمين ولبت كذلك زهاء ثلث الطريق بين ممباسا ونيروبي عاصمة كينيا وجموع الحيوان تبدو قريبة منا فى كثرة هائلة وبعضها كان يسير وراء رئيس كأنه القائد وكأن الحيوان قد عرف حرمه فإذا ما أحس قرب القطار و كان إلى جانبنا الايمن خارج الحرم عدا سراحا إلى عبور الخط إلى يسارنا وهناك أبطأ السير ثم وقف يرمقنا بنظراته وكأنه أمن شرنا واحتفى فى القانون متحديا أيانا ونحن نشير إليه بايدينا فلا يعيرها أهمية، وليلة الأمس دهم قطارنا زرافة وهى تتخطى القضبان فقتلها ، ووقف لذلك برهة فكنا نرى الجمع الباقي من الزراف يقف آمنا مستأنسا وقد حاولت أخذ صورة شمسية لتلك القطعان لكن كانت تعوزنى

(العدسة المقربة) التي يستخدمها هواة الحيوان وقد خبرني القوم أنهم كثيرا مارأوا جمعا من الحيوان يجفل ويولى الأدبار في دعر شديد لأنه أبصر بأسد كلسر على بعد منه ، ومن أنواع الحيوان التي لم أرها من قبل : الجاموس والبقر البرى ويسمون نوعا منه جنو ، وآخر اوريى والهارتبيست والويلديست وكثير غيرها

حرم الحيوان ومسرحة : لبث الانسان زمانا يبرر قتل الحيوان البرى لأسباب منها الاستفادة باستغلال الاراضى الزراعية والأتجار فيما يصيد من الحيوان إلى ذلك ما يستفيد به صحيا من وراء مطاردته ومن اتقاء الاوبئة التي يحملها هذا الحيوان لكن الفكرة السائدة اليوم حماية الحيوان فى مساحات من الارض تعتبر إما ملكا عاما أبدا الدهر ويطلقون عليها مسارح الحيوان (National Park) وأما حرما يمنع القانون صيد الحيوان فيه حتى ينسخ ذاك القانون بقرار برلمانى ويسمونه (G. Reserve) ويراعى فى تلك البقاع أن تلائم الحيوان الذى يراد حمايته وأن تكون شاسعة غنية بالاعشاب والمياه وأن تنأى عن البقاع التي يراد ترقيتها وأن يسهل على الزوار دخولها وأن يندر سكانها ومعادنها لذلك تلتقى غنية بالمناظر الجمابة والجو المغرى الجميل .

ولقد بدأت تتغير وجهة نظر هواة الصيد فبعد أن كان يلذ للانسان صيد الحيوان والاسراف فى قتله ذاك الاسراف الذى خشى معه انقراض كثير من فصائل الحيوان — آثر اليوم استخدام آلة التصوير ذات



(سباع مجاهل كنيا طالما تفتك بالكثير من الاهلين)

العدسات المقربة بحيث يمكن تصوير الحيوان وجموعه وهى فى حالتها الطبيعية الى ذلك فان تلك المسارح أصبحت خير الوسائل لدراسة الحيوان خصوصا وأن الحكومات أقامت بها جواسق يستأجرها الرواد بثمان زهيد ومن أشهرها مسرح (كروجر) فى شرق ترنسفال فى جنوب أفريقية ومسرح البرت شمال شرق الكنفو البلجيكية بين بحيرتى ادورد وكيكو ويؤمنها من العلماء ما يقرب من ١٥ ألفا كل عام . أما حرم الحيوان فمتعدد خصوصا فى كنيا واوغنده والسودان

والحيوان لاشك متأثر بالعشب حوله ففى مرتفعات شرق أفريقية حيث يكثر الغذاء طوال العام لا يرغب الحيوان على التجول بعيداً كما هى الحال فى رودسيا ونياسالاند والعادة أن حيوان المناطق التى تكثر بها الشجيرات

أكثر تجوالا وسفراً من ساكن السهول ، الى ذلك الألوان الواقية للحيوان التي تجعله يحكى الوسط من حوله فان لم تكن واضحة استعاضت بقوة الحواس الشم والبصر والسمع ، وقد قيل أن القرون من أكبر العوامل في ارهاف السمع الى ذلك خفة الحركة والراحة الكريهة التي تنبعث من بعض الحيوان واللحم كرية المذاق ، وعجبت من بعض الغزلان في أفريقية لأن أنثاه تفقد رائحتها تماما اذا ما قاربت الوضع لكيلا يهتدى عدوها الى مكانها وفي يومين أو ثلاثة من ميلاد صغارها تعدو في سرعة الأم تماماً ، وبعض الحيوان يشتم رائحة عدوه على بعد ثلاثة أميال والبعض كالنسر مثلاً يرى بقع الدم على الأرض من علو عشرة آلاف قدم ولعل للحيوان إحساساً لاسلكياً لم يتوصل اليه ماركوني إلا هذه الايام يهديه الى ما يحوطه من خطر حتى في حلكة الليل . أليست الغريزة التي أوتيتها الحيوان أبعد أثراً من العقل الذي وهبه الانسان !

ولقد كانت أفريقية غاصة بالحيوان في بدء كشفها حتى أن الكاشفين كانوا يطلقون اسم الحيوان الشائع على الأنهار والجبال والبحيرات وما إليها لكن دخول الجنس الأبيض طاردها الى المجاهل فالسباع مثلاً كانت تجوب القارة كلها الى الكاب وكان كثير منها يوجد في حدائق المنازل هناك أما قطعان الغزال — ذاك الذي فاق ٣٢ فصيلة — والزبرا فكانت تسد الآفاق لكن اسراف الناس في قتلها أباد كثيراً من أعدادها لابل وفصائلها ولا تزال شرق أفريقية تغص بالحيوان على اختلافه . ولقد قص



(ملك الغاب)

على القوم هناك من أنباء الحيوان وعاداته شيئاً كثيراً نروى هنا بعضها :
السبع : يعرفون منه في أفريقية ثلاثة أنواع ذا الرقبة البيضاء والحراء
والسمراء وهذا أشرسها والنوع الذي يوجد شمال السودان لا معرفته وهو أقل
وحشية ومتوسط طول السبع من الذنب الى الانف ثلاث ياردات ووزنه بين
ثلاثة قناطير وخمسة وينقص وزن الانثى عن الذكر بمقدار الربع ، والاسد
يعمر بين عشرين سنة وثلاثين ، وهو حيوان يسير في جماعات ويهاجم
كذلك في جماعات ، وهو يمتاز عن الشيتا — نمر أفريقية الارقط —
بذنبه الذي يحره في الارض وراه إذا سار على عكس ما يفعل الشيتا ، وهو
لا يهاجم الانسان قط إلا اذا كان جائعاً والجروح التي يحدتها سامية ، وقوته
لا يصدقها العقل حتى قيل أن الأسد يستطيع قفز حائط مرتفع وفي فمه
عجل وخير الطرق لقتله أن تصوب الرصاصة بحيث تحترق الحلق

الى الرئتين أو بين العينين ، واذا أصابت الكتف أعجزته عن السير لكنه
يظل حيا ساعات وهنا الخطر الا كبر ، ومعرفة السبع تحف عادة اذا كان
من سكان الشجيرات وزئيره نتيجة لذبذبة في الحلق لا تصحبها حركة
ظاهرة في الفم ولذلك ينخدع السامع في تحديد مصدر صوت السبع على
بعد ، وهو يزأر ليلقي الرعب في قلوب فرائسه ، واذا سبغ لا يهتم أبدا بما يرى
من صيد وحيوان ويعرف سائر الحيوان فيه ذلك فلا يعبأ به وهو شعبان
وكثيراً ما يخترق السبع قطيعاً من الزبرا أو الهارتبيست في شرق أفريقية
وهي لا تتحرك ، وكم فتك السبع في كينيا بالجواهر من الناس أبان مدسكة
الحديد بين ممباسا وفيكتوريا حتى أن الأهليين كانوا يعتقدون أن أرواح
زعمائهم تحمل أجساد تلك السباع لتفتك بمن يشتغل في مد الخط لأن ذلك
كان في زعمهم أهانة كبرى لهم ، ويظهر أن السبع يلحق جلد الانسان
ليشرب دمه طازجا قبل أكل لحمه وقد ثبت ذلك من الجثث التي انقذت
من براثن السباع قبل تمام أكلها اذ كانت ترى قطع من الجسد وقد أزيل
عنها الجلد وبدا اللحم من تحتها جافاً خالياً من الدم

والسبع يتعقب فريسته في سكون ثم يهاجم على أن الفرقة تزعجه ، حدث
مرة أن هاجم سبع تاجراً على حمار في محطة (قوى) وقبل أن يمسك به
ذعر الحمار فدوى رنين بعض الآنية التي كان يحملها فخاف السبع وفر هارباً
واذا فاجأ قوماً وصاحوا في وجهه ولى عنهم ، وعجيب أن يبدأ السبع
أكل فريسته من الذنب متبجها نحو الرأس فكلما أزعج وترك فريسته كان

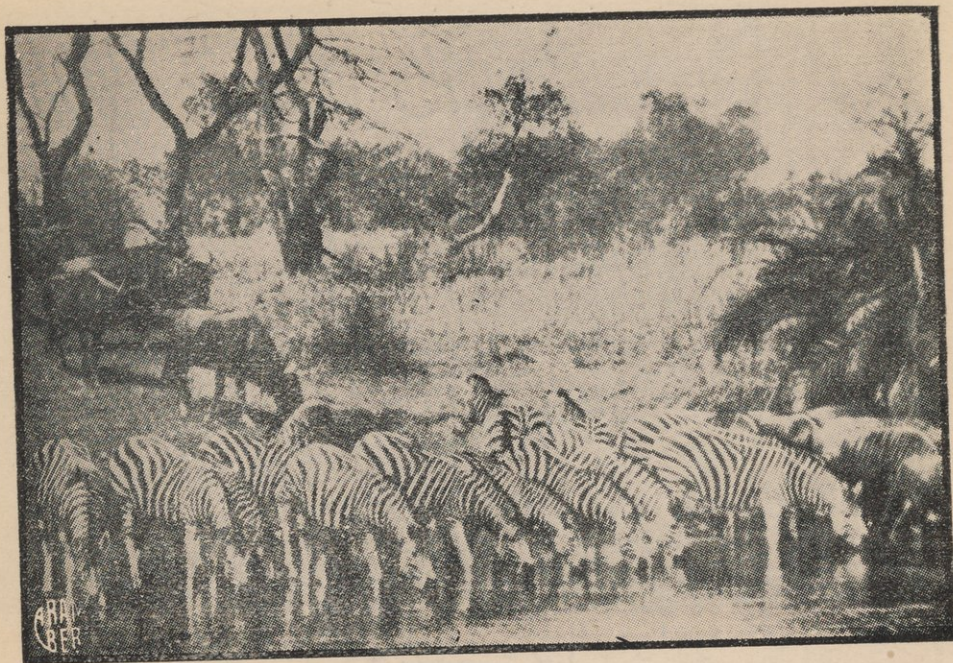


(أحب اللحم للسباع حمار الوحش والسبع يبدأ أكل فريسته من ذنبها)
أسفلها منهوشا ، وقبائل (واكامبا) هناك تلتهم لحوم السباع والفهود نيئة
بعد سائح جلودها ، ويعتقد الهنود أن شحم الأسد خير علاج لمرض
(الروماتزم) وأمراض أخرى وإذا أكل السبع قصد مجرى للشرب وعندئذ
يستلقى في أول مكان ظليل يلاقه دون أن يهتم بأحد ، فهو لا يخشى حيوانا
قط سوى الانسان والى الآن لا يزال الانسان في أفريقية بعيداً عنه ومن
أحب اللحوم لديه لحم الزبرا ، والمجب أن يتبعه ابن آوى أو ضبع ويقرب
منه وهو يأكل فريسته وكلما لمس اللحم نفر السبع فيه فتنتحى قليلا ثم
عاود الكرة وأخيرا يأكل ما تخلف من الاسد ، ويقول الاهلون ان السبع
يأكل لحوم جميع فصائل الحيوان اذا دعت ضرورة الجوع حتى لحوم السباع
نفسها لكنه يأنف من لحم الضبع وابن آوى ، فهو لا يأكلها ولو أشرف

على الهلاك جوعاً وذلك احتقاراً لسانهما .

ولا يزال السبع يكثر جداً في أوغندا وشرق السودان إلى حدود الحبشة وأجمل أنواعه في بلاد كينيا ، وقد خبرني ناظر احدي المحاط وهو هندي أنه كثيراً ما كان يستيقظ ليفتح الطريق للقطار ، وإذا بسبع أو اثنين قد كمنّا تحت مقاصير المحطة وزئيرهما يصم الآذان فلا يجسر أن يفتح الباب ويظل القطار واقفاً وهو يصفر حتى تذعر الاسد وتفر ، وكثيراً ما تهاجم أرصفة المحاط فيختبئ العمال داخل المسكاتب وفي مخازن الماء (الفناطيس) ومن الحيوان المفترس كثير الوجود هناك الى جانب الأسد الفهد والشيتا : الفهد أصغر من النمر قليلاً وزنه قنطار ونصف ولعله أخطر حيوان في الوجود اذا جرح وهو من أصعب الوحوش مراساً وأشدّها حذراً بحيث يتعذر قنصه أو ضربه وموطنه الشجر والغاب وطعامه من القردة والغزلان والدجاج والفيران وإذا أعوزته تلك سطا على الخراف وخطره يطارده الناس ويقتلونه أنى وجد ولذلك ندر جداً .

والشيتا : يصعب تمييزه من الفهد ولا خطر منه الا اذا جرح وحتى وهو جريح لا ينكص راجعاً على صياده ولونه جميل أصفر أو أحمر تزينه بقع سوداء وبطنه أبيض وذنبه طويل لكن يظل مرفوعاً وهو يترنح في مشيته وهو أسرع الحيوانات طراً وقيل أنه يجري بسرعة خمسين ميلاً في الساعة ولسهولة صيده كاد ينقرض والشيتا هو نمر أفريقية الارقط إذ لا يوجد نر المخطط في تلك القارة أبداً .



(قطع من « الزبرا » يرد الماء في حرم الحيوان)

الزراف: كم كان يروقنا منظر أسراب الزراف وهي تتهدى في مشيتها ورقابها الطويلة تترنج وأعجب ما ترى الزرافة وهي راكضة أو رابضة على الأرض بجوار شجيرة ورأسها يشمخ وكأنه جذع له شعاب وإذا قاربتها ألفتها وديعة اليفة ، علوها وهي واقفة في مسقط رأسي من طرف قرننها الى الأرض قد يقارب ستة أمتار ولها قرنان قصيران يغطيها الجلد وتتوء من عظم يطول كما تقدم الحيوان في السن حتى يرى أحيانا وكأنه قرن ثالث وخلف الدماغ قرنان صغيران جدا ، وقوة البصر لديه حادة ولحمه لذيذ وجلده قيم في صنع السياط الطويلة فقد تتخذ منه سيور في طول يفوق ستة أمتار اذا شق الجلد بطول الرقبة ، والزراف يكثر في السهول الجافة كثيرة الشجيرات

والاعشاب الشوكية على أنه آخذ في الانقراض ولذلك حرم قتله بقاتا ،
وكثيرا ما تشتبك رقاب الزراف بأسلاك البرق فتقطها وهى تجرى فى
الظلام وشعر ذنبها سميك تتخذ منه بعض الاساور أحيانا .

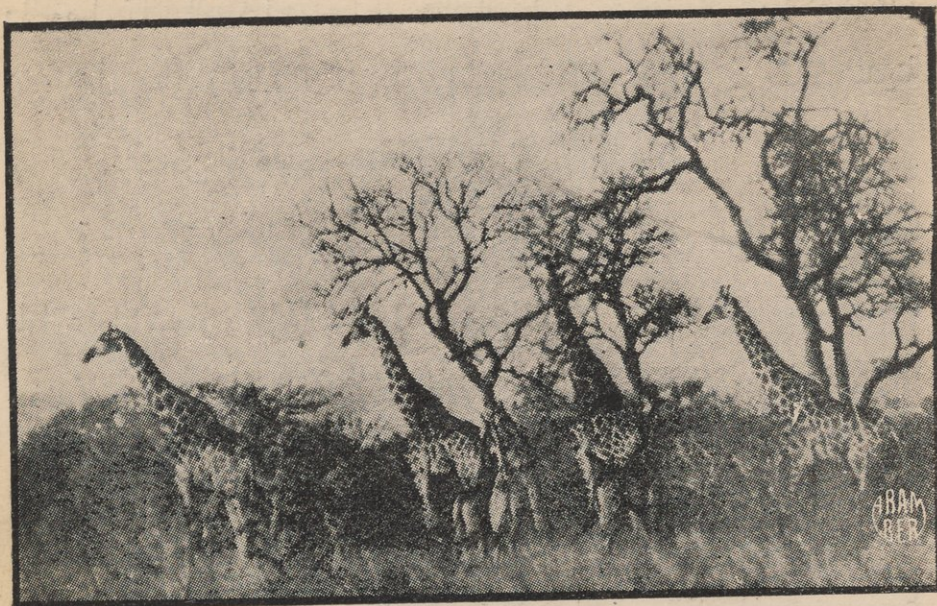
النعام : ومن أكثر الحيوان ذيوعا هناك النعام بين أغبر رمادى
وأسود — وغالب الذكور كذلك — وقد استأنس القوم منه الكثير
— خصوصا فى جنوب أفريقية — وأول أفراخ استؤنست منه فى سنة ١٨٥٧
ثم أخذ ذلك فى الانتشار حتى داهم التجار انحطاط ثمن الريش اليوم الى حد
أخذ يهدد تربية النعام بالانقراض وقد أرسلت حكومة جنوب افريقية بعثة
سنة ١٩١١ لجلب نعام شمال افريقية وغربها وهو أجود لأن ريشه أقصر
وأكشف ومتوسط ما ينتجه الطائر بين ٢٠ — ٢٦ أوقية من الريش
و ٦٠ — ٦٢ ريشة طويلة بيضاء و ٦٠ — ٧٠ ريشة سوداء هذا خلاف
الريش القصير، والظليم (ذكر النعام) يزيد انتاجه الثلث على انتاج الأنثى
ويربى النعام بالتفريخ عادة فتوضع الطيور الكبيرة فى زرائب مساحتها عشرة
أفدنة حيث يعنى باطعامها يوميا ويجب ألا تزعج بأية حال ثم تؤخذ صغار
الأفراخ الى زرائب مساحتها حوالى مائة فدان حيث يعنى بها وباطعامها
بمقصود العشب وهشيم العظام والحصى وما شاكلها ، وأكبر عدوها
ابن آوى ، ويتقى القوم شره بوضع الأفراخ داخل حظائر تغلق ليلا ، ولما
كانت الذكور كلفة بالنزال وضرب أندادها فصل بينها بسياج من شوك
ويفرخ زوج النعام ثلاث مرات فى السنة وتفقس كل مرة بين ١٦ و ١٧



(الشيتا أسرع الوحوش قاطبة)

بيضة ويؤتى الفرخ نتاجه من الريش في الشهر السادس من سنه وذلك بأن تقص أطراف الريش وتترك خوافيها ثلاثة أشهر حتى تدبل ثم تنتزع دون أن تسبب للحيوان ألماً ، وبعد ذلك بستة شهور أخرى يبدأ المحصول الثاني بالنظام نفسه وخير أنواع الريش ما نمت في الربيع والخريف ولقد هم القوم سنة ١٨٨٠ بتربيته وبنوا عليه آمالاً تبشر بالأرباح الطائلة فبلغ الثمن لزوج النعام ٢٠٠ جنيهًا وإذا كان من نوع ممتاز بيع الزوج بألف جنيهه ، ولما نزل سعر الريش عقب سنة ١٨٨٦ أفلس الكثير من التجار ، ثم عاد الثمن الى الصعود حتى بدء الحرب الكبرى حين هوى الثمن من ثلاثة جنيهات للرطل الى جنيه ونصف فكان ذلك ضربة قاضية يضاف اليه الجفاف الذي

توالى هذه السنوات وكذلك التغير الذى حدث فى أزياء الناس وأذواقهم
مما نزل بعدد النعام الى العشر فى جنوب افريقية فعدد المستأنس منه اليوم
١٠٤ ألفاً تغل سنوياً ٨٦ ١/٢ ألف رطل ثمن الرطل نصف جنيه ، وتفرض
الحكومة غرامة مائة جنيه على من يصدر النعام وخمسة جنيهات على من
يصدر بيضه ، وفى سنة ١٩٣٠ بدأ يدخل الريش فى النسيج بنسبة ٧ ١/٢ ٪
ويمكن أن يزداد الى ٢٥ ٪ كذلك بدأ القوم يدبغون جلد النعام الذى
يساوى الواحد منه ربع جنيه ويبيع لحمه بخمسة قروش للرطل مما جعل قتل
الحيوان أربح من تربيته فأخذ هذا يهدد بانقراضه ، وجلده هذا متين جداً
مخطط تخطيطاً غريباً يلائم القفازات والحقائب (المحافظ) والفُرُش ، وغالبه
يصدر الى أمريكا ، ويلاحظ نقص شديد هذه الأيام فى المصادر من منتجات
النعام فى شمال افريقية وغربها والريش الافريقى يفضل ريش استراليا
وارجنيتيا بأمريكا كثيراً فى جودته ، والنعام أكبر الطيور حجماً ومن أشدها
حذراً وأقواها بصراً لكن مخ النعامة لا يزيد على مخ الغراب ولحمها لذيد
الطعم جداً والسباع تحب لحمها ويغيبط الأهالى إذا رأوا أسداً يفترس
نعامة لأنهم يسرعون الى المكان لأخذ الريش الثمين ، والنعامة تأكل أوراق
الشجر والحشرات كالعقارب والجعلان وكذلك الحصى ان دعتها الضرورة
نبرونى : فى ثمانى عشرة ساعة بعد قيامنا من ممباسا وصلنا نبرونى
عاصمة مستعمرة كينيا البريطانية . وهى تقوم فى وهدة تتغضن من حولها
التلال ، وهى على علو ٥٤٩٠ قدم لذلك كان الجو بها بارداً وبخاصة لما جن



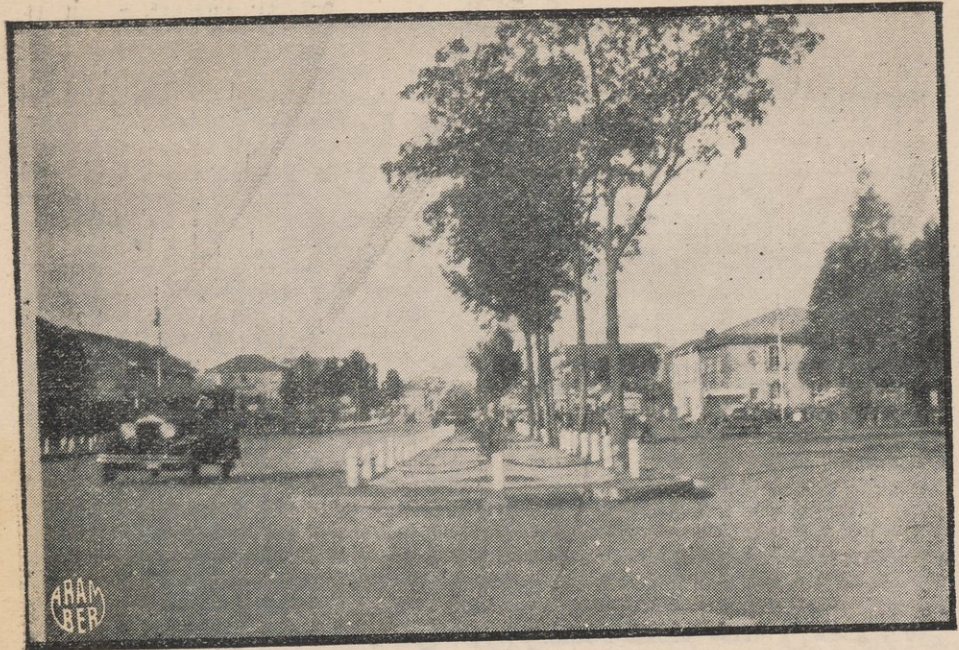
(قطع من الزراف)

الليل حين كنت أشعر برعشة شتاء مصر القارس وأنا في غرفتي مساء ،
وهنا أدركت حقا أثر الارتفاع في زيادة الفرق بين حرارتي الليل والنهار وأن
الليل هو شتاء تلك الاقاليم الاستوائية المرتفعة والمدينة لم تكن شيئا منذ ربع
قرن حين كانت مجموعة من أكواخ بائسة أما اليوم فهي مدينة ذات مبان
فاخرة وطرق معبدة فسيحة تتوسطها المزارع ويجانبها الشجر في تشذيب
جميل على أن اختيار موقعها لم يكن موفقا لانها عرضة لسيل المطر الذي يهوى
إليها من النجداد حولها أبان المطر وموسمه هنا مرتان من مايو الى يولييه ، من
أكتوبر الى ديسمبر فتصبح رطبة نزهة ، وقيل أن سبب اختياره أن عاملا
رئسيا ممن كانوا يشتغلون في بناء سكة الحديد كان يحمل قضيبا من حديد

ولما وصل تلك البقعة أجهده الحر والتراب فألقى به هنا ولما جاءه المهندس قال لا بأس باتخاذ هذا المكان قاعدة لأعمال الشركة ومن ثم نشأت المدينة مع ان هناك من المرتفعات حولها ما كان أجدر بها وأولى

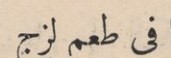
قامت بجولة في أطراف المدينة فأخذت السيارة تعلق في طرق متلوية تحتها المزارع والاشجار وبخاصة شجر (وتل Wattle) الذي ينزع القوم قشوره وعند ما تجف تقطع شظايا ثم تصدر في غرائر لاستخراج الاصباغ الحمراء منها ، ثم شجيرات البن التي تغطي مساحات هائلة في ارتفاع قصير وتنمو في صفوف مستطرة في دقة وتنسيق فائق وحبوب البن تنمو متجاورة واحدة فواحدة على طول الفروع في حجم النبق وفي لون أخضر فاذا ما احمرت جمعت باليد وكل ثمرة في داخلها حبتان متلاصقان بناحيتهما المشقوقتين ، وتتوسط أغلب المزارع مصانع تعدد للتصدير وكلها في أيدي الأوروبيين وبخاصة الانجليز ويمتاز بن شرق أفريقية برأخته الزكية القوية وهو يزكو في كينيا على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم وقد صدر منه سنة ١٩٣٠ فوق ٣١٠ ألف قنطار ومتوسط الصادر بمليون جنيهه وشجرته تثمر في سنتين ومرتين كل عام ويجني من كل شجرة بين رطل وثلاثة في المرة الواحدة والشجرة تعمر طويلا ففي نيكارا جوه بأمر يكا الوسطى تثمر الى سن الستين وعلى سفوح كلنجارو يزكو البن العربي الشهير

وكنا نمر بمساحات شاسعة من الأرض الخصبية ذات التربة الحمراء السمكية وهي وقف على الأهليين لا يباح لغيرهم امتلاكها (Native)



(الشارع الرئيسى فى نيروبي عاصمة كينيا)

(reserve) شأن كثير من أراضى كينيا وكينا نرى أكوأخهم المستديرة تتناثر خلالها وهم يزرعون فيها كل ما يحتاجون وبخاصة الذرة وهم لا يهتمون بالزراعة للبيع والاستغلال لأنهم لا يكادون يعرفون للنقود قيمة اذ كانت حاجياتهم فطيرة محدودة والعادة أن تقطعهم الحكومة تلك الأراضى مجاناً مقابل دفع ضريبة بسيطة لاعلى الفدان بل على الكوخ الواحد بمعدل جنيه ونصف فى العام ولما كان الرجل منهم يتزوج أكثر من واحدة — اذ الغالب لا يقل عن خمس نسوة — اضطر أن يدفع الضرائب مضاعفة بقدر ما يمتلك من بيوت وهذا ما يدفع أولادهم الى العمل لى يحصلوا على ما يسدون به تلك الضرائب وعلى أمهار زوجاتهم وفيما عدا ذلك لا حاجة لهم

بالمال وقبائل تلك المنطقة يسمون : الكيكويو : يسرون عرايا نساء ورجالا
 الا في أزار من جلد يتدلى من أمام ومن خلف الى الركبتين وهو مفتوح
 الجوانب غير منتظم الأطراف ولا يرون عيبا في ظهور كل أجزاء الجسد
 عارية فكأنه أمر طبيعي وترى النسوة يلبسن في السوق الحجال من النحاس
 أو الفضة في أساور أو ثعابين قد تباع العشرين تحت بعضها أسفل الركبة
 وعند العرقوبين لغير المتزوجات وفي الأذرع دون الأرجل المتزوجات
 ويعلقن حلقات ملونة كبيرة من الخرز تحت الأذن ولتقلها ترفع الأذن
 بشريط من خرز يلف على الجبهة ويربط في قوف الأذن ليساعدها على
 حمل تلك الأوزان وشحمة الأذن تحرق وتشخذ فتتسع للحلقة في حجم الريال
 الكبير تعلوها أخرى وثلاثة أصغر منها ثم تحترقها قطع من خشب اسطوانية
 الشكل الى ذلك عقود الخرز العدة وكثير من الرجال يفعل ذلك أيضا أما
 الرؤوس فتخلق ناعمة وترى النسوة يسرن طوال الطريق وهن يعلقن وراء
 ظهورهن أحمالا من الحطب أو المتاع أو الأطفال في قطعة من جلد يرفعها
 سير يمر بأعلى الجبهة والى جانبها يتدلى اناء من جلد به مزيج الذرة وجذور
 التايوكا كأنها البطاطا في طعم لزج  العجيين والرجال يحملون الحراب
 والدروع وسلاحهم الرئيسي القسي والنسهم المسمومة وهم يبردون الأسنان
 الأمامية لتبدو مدببة حادة ويتخذون أخصاصهم في أعماق الغابات حتى انه
 ليصعب الوصول اليها وان وصلتها تعذر عليك دخولها الا حبوا وهي مجدولة
 جدلا جميلا يدل على شيء كثير من حسن الذوق والاستعداد للرقى على انها



وسط مزارع البن (كينيا)

قدرة جدا يعيش داخلها الناس والقطعان وهم زراع لحد كبير ويعرفون بين
جيرانهم بالغدر والجبن والمكر على انهم مسالمون نشيطون وهم يخافون آلة
التصوير خصوصاً نساءهم خشية أن يؤثر فيهن سحرها أثراً سيئاً وكنت كلما
رأيت جماعاً منهن أعرض (الفتوغرافية) لهن مداعبة فكن يصحن ويولولن
ويضطربن في مرأى مضحك ، وهم كلما شعروا بضعف في إنتاج أرضهم للذرة
والبطاطا لجأوا الى غابة جديدة فأحرقوها واستنبتوا مكانها حتى أتلفوا
مساحات شاسعة من الغابات هناك لذلك بدأت تمنع الحكومة ذلك وتعمل
على اعادة استنبات الأشجار والكيكويو وثنيون في عقائدهم كثيرة
الخرافات ومن عاداتهم ختان الفتيات دون الذكور وقد سرت منهم تلك

العادة الى الكثير من السود من حدود السودان وهم في الختان لا يكتفون
 بقطع الزائدتين (الشفرتين) فحسب بل وما حولهما ثم يربط الفخذان أياماً
 فيلتحم طرفا الجرح ويسد المكان كله عدا موضع غابة رفيعة توضع وسط
 الجرح وتحرك قليلا في كل يوم فاذا اندمل الجرح لم يترك الا ثقباً ضئيلاً هو
 موضع تلك الغابة وعند الزواج يحاول الزوج فضها فتحمل اليه الزوجة في بيته
 وأهلها من حولها ويحاول الزوج ذلك فان صاحته أخذوها منه الى بيته
 على أن تعاد في الليلة التالية ويعاد ذلك حتى يستطيع فضها ولا يزال القوم
 خاضعين لنظام القبيلة وزعمائهم يقومون بالفصل في الخصومات بينهم فان
 عجزوا وهذا نادر تدخلت الحكومة في الأمر

لبثنا نسير في تلك الجنة صعدا ومن حولنا المروج والغابات في أراض
 مغضنة رائعة المناظر ومن بين تلك المنحدرات ما كان يزرع شاي على انه
 لا يصادف هناك من النجاح كثيرا وأخيراً أدى بنا السير الى نزل منعزل
 فوق ربوة تعلو سبعة آلاف قدم هي جنة ساحرة لولا ما كان يحوطها من
 برد زمهرير يقصدها الكثير للراحة أياماً محدودة فان طال المكث أضر
 بالقلب بسبب خفة ضغط الهواء الذي يعجل بالاجهاد لذلك كنا نشعر بالتعب
 عاجلاً كما سرنا على الأقدام قليلا ومن تلك الربوة بدا على بعد جبل :

كنيا : الذي يشمخ في السماء ١٧٠٤٠ قدما وهو ثانی ذری

أفريقية وأول من بلغ قمته السير ما كنדר سنة ١٨٩٩ والقمة تتدلى منها
 خمس عشرة ثلاجة وهي بقايا لبركان خامد قديم هشتت الثعيرية من ارتفاعه



(سيدات الكيكويو يلبسن ازارا من جلد)

مالا يقل عل ٣٠٠٠ قدم، لذلك لانرى الفوهة اليوم واضحة وتكسوه بين ارتفاع ٥٥٠٠، ١٢٠٠٠ قدم غابات من الارز (cedar) والكافور والخيزران (البامبو) وعلى جوانبه تتدرج النباتات من الاستوائية الكثيفة الى أعشاب جبال الألب وزهورها فى جلاء تام والاقليم الذى حوله أخصب بقاع كنيا جميعا وأكثرها ملاءمة لسكنى الجنس الابيض ومن أغناها بالقنص بما فى ذلك الفيلة وأخص قبائل الاهلين حوله :

المساي : أولئك الذين كانوا نذير الفرع وسادة الحرب لجميع أهل

أفريقية من فكتوريا نيانزا الى ممباسا حياتهم حياة قتال وحرب على أن
عديدهم تضائل بسبب توالى الحروب وفتك الجدرى بهم وأول ما يسترعى
نظر السائح نظامهم العسكرى المحكم ، فالضبية رعاة مسلحون الى سن ١٦

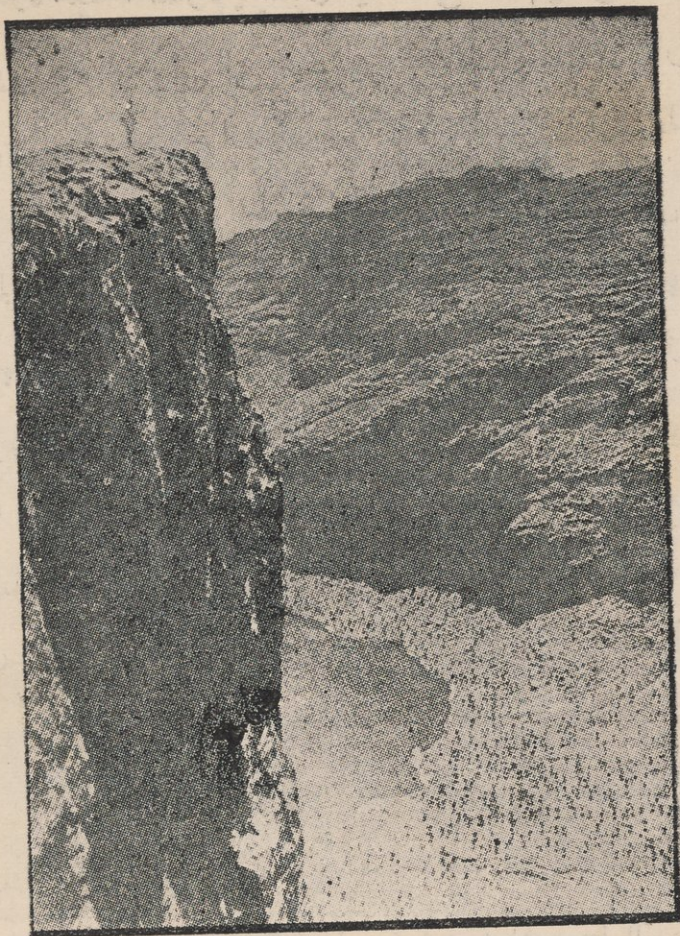
حين يصبحون من المقاتلة Elmorani الذين يخضبون حراهم بدم الغير
ويخلصون لوطنهم ويمتنعون عن الزواج والتدخين والمسكرات ويعيشون
عيشة زهد وتقشف حتى تنقضى مدة خدمتهم والى جانب الحراب ذات
الحدين والدروع يحملون سيفاً تراه معلقاً من حزام من جلد غفل ومنظرهم
وهم فى أردية الحرب يلقى الرعب فى القلوب وبخاصة غطاء الرأس الذى
يطوق الوجه كله فى شعور نافشة وكلما هاجموا محلة kraal قتلوا الرجال
المدافعين جميعاً بالحراب ، أما النساء فيقتلون فى المساء بالهراوات وهم
يفأخرون أنهم لا يتخذون من بعضهم أسرى ولا مسجونين بل يقولون
حيثما تمر جنودنا لا تعقب من الاحياء نفرا ، وقد لا يقتلون النساء أريحية
منهم ولكن يتخذوا منهن خدماً ، وغرضهم الأول من تلك الغارات
الاستيلاء على قطعان الغير لأن المساءى رعاة لازراع تقدر ثروتهم بحسب
قطعانهم ، وعجيب أنهم لا يصيدون الحيوان الذى تغص به بلادهم احتقاراً
للهم إلا السباع ، غذاؤهم الرئيسى لحم البقر واللبن والدم الطازج الذى يتخذ
من الحيوان وهو حى والنساء يقمن بالتبادل التجارى البسيط ، وقد تكون
القبيلتان فى قتال مستعر والنساء على الحدود يتبادلن تلك المتاجر ، وهم
يعبدون لها اسمه (نجاي N'gai) ويطلقون هذا الاسم على كل ما لا تفقهه
أفهامهم ومن عاداتهم الغريبة اقتلاع السنين الأمامين من الفك الأسفل
وتلك أخص ما يميزهم عن جيرانهم ويخال البعض انها عادة شاعت اثناء
مرض تصلب الفك الذى كان منتشراً لديهم ، حدث مرة أن تابعى فى



(أحد المقاتلة عند الكيكويو ويرتدي قرطا وكأنه الكوب الكبير)
ضواحي نيروبي وكان من المساي صادف جمجمة في الأرض فأسرع إليها
ورفعها باحترام وقد عرف أنها لمساي مثله لنقص السنين الامامين ثم عكف
على بعض العشب — وهم يقدسون العشب لأنه سر نمو قطعانهم — وابتصق
عليه وحشا به تجاويف الجمجمة والتفت إلى وقال : ذلك لكي نزيل الشر
(٩)

عنا ودهشت لما صادفنا صديق له في الطريق فبصق هو في وجهه وتلك
عادتهم في التحية ، ويسترعى النظر آذانهم وما فيها من الحلى فهم يشحذون
شحمها طويلا ثم يثقبونها وتتدلى منها أكواب وصفائح وقطع من خشب
في احجام مخيفة ، والرجال يلبسون جلود السباع وأذنان القردة على رجولهم
وريش النعام فوق رؤوسهم ، وعند العرقوبين يضع الرجال أجراسا لتدل
الناس على اقترابهم ، والنساء يغطين أجسادهن بأطواق النحاس في البطن
والخصر والسوق والسواعد والرقاب في أوزان مبهظة ولا تعد السيدة من
النبيلات إلا بكثرة تلك الاطواق ، وهم لا يدفنون موتاهم خشية تدنيس
الارض بل يحملون الجثث في العراء وترك لتلتهمها جارحات الطير والوحوش
ولا يدفن سوى الزعماء فوق تلال تقوم مشرفة عليهم والمساي أنبل المتوحشين
وأكثرهم استقامة وهم يتخذون من القبائل الاخرى خدما ورقا ، خصوصا
قبائل (اندزوبو) واذا جاءك مسالما مد ذراعه الايمن بمحاذاة كتفه وشد
أصابعه الى أعلى بحيث تواجد راحة اليد من أراد مسالمة

ولقد كان نظامهم العسكري المحكم من أكبر العقبات والمشاكل أمام
الحكومة التي أخذت تقاومه وتصرفهم عنه بمنع المران العسكري وتحريم حمل
الحراب والدروع لكن سرعان ما حدا بهم هذا إلى التدهور والفناء وتحاول
الحكومة صرف مجهودهم الى استثمار منتجات الالبان وهي تقيم لهم المصانع
والمدارس لذلك ويساعد الحكومة في ذلك زعمائهم رغم احتقارهم للعمل اليدوي
كذلك فهي تشجع تصاهرهم مع الكيكيويو ، والمساي صحيحو الأجسام نحيلو
السوق قرييون في الشبه من المصريين الاصفياء لونهم نحاسي ولغتهم قريبة من



(جبل كنيا الرائع)

لغات أعلى النيل وهم يعدون أنفسهم الطبقة الارستقراطية في أفريقية يؤيد
ذلك مظهرهم الوقور وبسالتهم وكبرياؤهم واستقلالهم وذكاؤهم وهم ضعيفو
الايمان بالسحر وزعماء الدين لديهم (laibons) يقصر عملهم على الدواء
والعلاج واستنزال المطر ، والحالة الصحية حولهم رديئة فمنازلهم تطل على بروت
البقر وتقام في دوائر كى تقي البقر داخلها فينتج من هذا انتشار التراب

والذباب بكثرة مخيفة ، نساؤهم يعيشون عيشة هـى أسهل من نساء القبائل
الزراعية ، وتهـددهم الوحوش التى تجرى وراء قطعانهم ، وقديما كان جل
مرانهم على صيد السباع بالحراـب والدروع كخطوة لمران الحربى فلما قاومت
الحكومة هذا الروح تشجع الحيوان الوحشى وأضحى لا يخشى الناس
فأباحـت الحكومة لعدد محدود منهم حمل الحراـب لوقاية قطعانهم ، ومن
أسوأ عاداتهم تخضيب حراـب المقاتل الحديث بدماء الغير ولا يزال بعضهم
يهاجم الغرباء ويقتلهم رغم تحريم القانون لذلك والنساء هن اللاتى يشجعنهم
على ذلك لأنهن يسخرن جماعات من كل مقاتل لم تخضب حربته ومن
حفلاتهم قبل التخضيب أن يصارع الفتى ثورا أسود يظل يوما كاملا يطعمه
القوم اللبن ويسقونه الحـمـر ويتبارى الكل فى حفل ويحاول كل فتى أن
يمسك بالثور التمل السكران من قرنه الأيمن ، وسرعان ما يلقى الثور على
الأرض ويسلخه حيا ويقطع الجلد الى سيور يترين بها الفتیان جميعا حول
العرقوبين والرسغ ولتقديسهم للمـبـقر لا يذبحونه لاخذ اللحم لذلك كان جل غذائهم
مزيجا من اللبن والدم ويستخرج الدم بطريقة مدهشة إذ يربط الثور ويضرب
الرجل بسهمه فى وريد الرقبة فيسيل دم الحيوان ويجمع فى أناء لحد لا يميت
الحيوان ثم يضمـد جرحه ويترك الحيوان ليستعيد قواه ودمه ثم تعاد العملية
مرارا ، ويقال أن وباء فتك ماشيتهم سنة ١٨٩٠ فأباد قطعانهم ولوثت
عفوناتها أرجاء الهواء ومياه الأنهار فمات من المساي جماهير عدة ولم يستعيدوا
عديدهم وسلطانهم بعد تلك الصدمة فكان هذا من حظ النزلاء البيض من
الانجليز فى تلك الجهات حيث لم تكن مقاومة المساي لهم كما كان القوم يتوقعون.



(المساي في كامل ردائهم الحربى)

عدت الى ناحية أخرى من نيروبي هى مسكن الطبقة الارستقراطية
من الهنود والهنود هنا كثيرون وبينهم المفرطون فى الغنى ويدهم غالب
المتاجر والوظائف المتوسطة فى مصالح الحكومة وفى الانزال وهم المشرفون
على الخدم من السود فى كل مكان وأن الانسان ليعجب لنشاط الهنود
وسعيهم بعيدا وراء كسب المال وكأنهم اليهود فى الحرص على المال أو جماعة

الاغريق في ريف مصر ، وكلهم مكثزون للمال لا يكادون ينفقون منه شيئاً لبساطة معيشتهم وغالبهم هناك من المسلمين ولذلك أقاموا لهم مسجداً على نظام تاج محل هو آية في الهندسة والجمال والشيعة منهم أقاموا بناء ضخماً صفت به المقاعد ، وكأنه المدرسة يفد اليه الصبية كل يوم بين السادسة ومنتصف الثامنة مساء وهم يرتلون بعض أدعية ويصلون ثم ينصرفون ، أما مساكن الاوروبيين ففي ضاحية تسمى التل تطل على المطار الفسيح والى جانبها مباشرة حرم الحيوان وقد كنت أرى به آلاف الغزلان والثيرات (هارتبيست وويلديست) وغيرها .

المتحف : زرت متحف المدينة وهو على صغره قيم في محتوياته راقى به مجموعة من الحيوان المحنط وأعجبه دب النمل Ant bear وكأنه القنغر شكلاً وحجماً والسماك ذو الرئة في طول مترين وكأنه كلب البحر (shark) ثم مخلفات الانسان من جماجم أسنانها بالغة الضخامة وجباهها متحدرة ، ومقاعد وآلات وآنية من خوص وخشب وزينة من أقراط وأساور من نحاس وخرز وأسلحة من حراب وتروس وآلات موسيقية منها طبول منقورة في جذوع الشجر وقيثارة ذات أوتار بعضها طويلة وبعضها عرضي (وقانون) من غاب غليظ أجوف يرص متجاورا وتعلوه سيور الجلد بدل الأوتار ورباب ومزمار كذلك أخفاخ للأرجل من جديلة من خوص تتوسطها عصي مدببة تسكاد تتلاقى في وسط الدائرة فتخز جلد المجرم المعاقب وخزات مستمرة أليلة ، وسفن شراعتها من جدائل الخوص ، وثم قسم جيولوجي وآخر نباتي به نماذج من ألواح الخشب على اختلاف صنوفه ، وقرن هو ثمرة شجرة Entada طوله



(يلبس المساي جلد السبع الذى يصيده بحربته ليدل على رجولته)
متر ونصف وبه أربع عشرة فولة الواحدة فى حجم قطعة الصابون الكبيرة
ينمو قرب السواحل الحارة ، وأعجب الكل ثمرة سوداء كأنها خشب
الأبنوس فى فلقتين متجاورتين كأنهما قربتان بيضيتان متلاصقتان لونا
وحجما ، وشجرتها تنمو فى الشواطىء وبخاصة فى جزائر سيشل وتسمى

جوز البحر Coco de mer والنخلة تصل مائة قدم وأوراقها عشرين
والثمرة تكاد تكون أكبر ثمار الدنيا حجما تنضج في عشر سنين ، عثر
عليها الكاشفون أولا طافية في البحر والثمرة تؤكل وتصلح لعمل بعض
الأدوية . و ثم قسم للحشرات من بينها حشرة العصي stick في طول شبرين
وكانها العصي تماما والحشرة المصلية (praying) تحكى (فرس النبي) تأكل
لحوم غيرها وسميت كذلك لأنها ترفع رجليها الاماميتين وكأنها تصلى دائما
ومجموعة من فراش بديع ، والمتحف رغم صغره قيم جدير بالزيارة .

الى الاخود الاعظم : غادرت نيروبي فأخذ القطار يعلوفى
صفحة غنية بالمزارع أظهرها البن ، وكما توغلنا زادت وعورة المنحدر وتعقدت
ليات السكة ويمكنك تقدير ذلك إذا علمت أننا علونا فى الأميال الخمسة
والثلاثين الاولى الى قدم ، والقاطرة هنا من ذات المحركين كى تستطيع
مغالبة ذاك الصعود ، وكان الخط بجانب سلسلة ملتوية تهوى من جوانبها
الوديان المختنقة الى قرار الوهاد المغضنة من دوننا والمناظر من حولنا رائعة ،
لبثنا نعلو والوهاد تنكشف حتى مررنا بمحطة (كيكويو) نسبة إلى خافة الهضبة
التي تعلوها ومن يقطنها من قبائل الكيكويو ، هنا بدا الانسان على فطرته
عارى الجسد فى غير ازار كلا ولاستار للعورة نساء ورجالا اللهم الا اغنياء
منهم وهؤلاء يلبسون أزارا من جلد ليس تحته شيء ، وفى تلك المرتفعات
متسع للرعاية وبخاصة للبقر والماعز التي كنا نرى منها القطعان الكثيفة



(سيدات المساي)

والبقر يلفت النظر بلونه القاتم ذى البقع البيضاء وبما يعلو كتفه من سنام
ناقى ، غليظ ، ولما قاربنا الذروة زادت غابات شجر واتل (Wattle) فى ورقه
القاتم المثقب المبهف وزهره الذهبى العطر ذاك الذى تستغل قشوره للاصباغ
وخشبه اللوقود وكثير من قاطرات سكة الحديد تحرقه بدل الفحم ويقولون
أن الاقليم كانت تسده الغابات والاحراش منذ نصف قرن فقطعت وزرع
هذا الشجر مكانها ، وحيث تبدو التربة الحمراء السميكة تقوم منابت الذرة .
أخيرا وصلنا الى الذوره فى محطة (Upland) على علو ثمانية آلاف قدم ،
وما كاد القطار يبرحها حتى شعرنا بأنه ينزل ذاك المرتفع عاجلا ، وهنا باغتنا
منظر أذهل الفؤاد بروعته اذ تكشف من دوننا :

الاخود الاعظم : (Great Rift Valley) في مشهد
سيظل يشغل من الفكر حيزا لا تمحوه السنون فلعلة أروع مشاهد أفريقية
على الاطلاق ، هنا بدا الوادى المغضن الفسيح في هوة لا تسكاد تدرك العين
قرارها ذاك القرار الذى كان ينأى من دوننا بالفى قدم فكانت تبدو
وديانه المختنقة الانهائية تتلوى وسط الربى المخروطية الى قصارى مسارح النظر
منظر دونه المناظر التى رأيتها فى سويسرا واسكندناوه وجبال الهملايا ،
وقد زاد المسكان جمالا أبنائه الأبرار الذين لم تمسهم مساوىء المدينة من
الانسان الهمجى عارى البدن وطوائف الحيوان الوحشى التى كنا نمر جوارها
وبخاصة أسراب النعام والتبتل والزبرا حمار الوحش بديع النقش ذاك الذى
كانت جموعه تسير فى مئات ترعى وجميع رؤوسها فى اتجاه واحد وفق
عادتها . ظل القطار يهوى فتستبين تلك الربى النائية وما جاورها من
أكواخ مكورة ساذجة ، وكل تلك الربى مخاريط لبراكين خامدة كانت
ثائرة غاضبة يوم أن التوى سطح الارض وانفطر فحلف ذلك الأخدود
الهائل الذى يمتد من موزمبيق وبحيرة نياسا جنوبا الى البحر الاحمر فالبحر
الميت فى فلسطين شمالا أعنى مسافة ذرعها خمسة آلاف ميل وهو يبدو
واضحا بين الحافتين المشرفتين : كيكويو الى الشرق وماو الى الغرب وسعة
ما بينهما ١٢٨ ميلا ويقولون أن سبيلنا هذا خلاله بواسطة سكة حديد كينيا
هى خير بقاع الاخود روعة وجمالا ، أخيراً أدى بنا الهبوط الى مشهد
سلسلة من البحيرات تطوقها حافات المخاريط البركانية القديمة ومن أسماها



(بعض أردية الحرب عند المساء)

مكانا (لونجونوت) الذى يعلو ٩٠٠٠ قدم وتتسع فتحتة الى ميلين ونصف
وهى غائرة العمق تكاد تسدها الغابات وتتخللها شقوق تصعد غازات سامة
ومن ورائه تبدو سلسلة من بحيرات أهمها ماجادا ، نايفاشا ، ناترون ، المنتايتا
ونا كورو وبارنجو

وبعد أن جزنا محطة (لنجرونوت) وبجيرتها وبركانها بدت نايقاشا
 (١٢١ × ١٥ ميلا) في شكل هلال تتوسطه جزيرة ملالية هي ناحية من
 شفة ذاك المخروط البركاني الهابط ، وهنا كثر الطير والزبرا وافراس الماء
 بشكل استرعى أنظارنا ، وكانت منحدراتها تنكسي بمزارع السيسال وفي
 سبع ساعات دخلنا بلدة ناكورو في قرار الاخدود الاعظم ، هنا استرحت
 يوما كاملا في بطن ذاك الوادي الفذ الأوحده ، والمدينة بجوها المنعش
 البارد الصحي مزار لطلاب الراحة والاستشفاء ، إذ يبلغ ارتفاعها ٦٠٠٠ قدم
 أو يزيد قليلا وهي قرية صغيرة بها طريقان رئيسيان متقاطعان تصف عليهما
 الحوانيت والمساكن الوطنية ذات الطابق الواحد والسقوف المنحدرة وكها
 من صفائح الزنك وحول نصف أهلها وتجارها من الهنود ، وأحد هذين
 الطريقين يؤدي بنا هبوطا الى بحيرة آسنة صغيرة تحوطها عدة ربي بركانية
 ويحف بمدرجاتها الرملية كثيف الدغل وبعض الشجر المنثور ، وفيها كثير
 من الطير ودابة الماء ، وقد تسلقت بعض تلك الربي فبدا منظر البحيرة فيها
 رائعا على أن البعوض مختلف الحجم كان يحوطني أينما سرت في سحائب
 مخيفة والمدينة تطوقها حافة بركان Menengai قطر فوهته ٨١ ميلا ، ومن
 ورائها يمتد بطن الاخدود الاعظم شمالا وجنوبا في سهول مترامية تعوزها
 الفلاحة ووسائل الري كي تغل نتاجا وفيرا

— الى فكتوريا نيانزا : برح القطار ناكورو وأخذ يصعد الجانب
 الغربي للأخدود وكان الصعود سريعا إذ بلغنا القمة بعد ٤٣ ميلا علونا

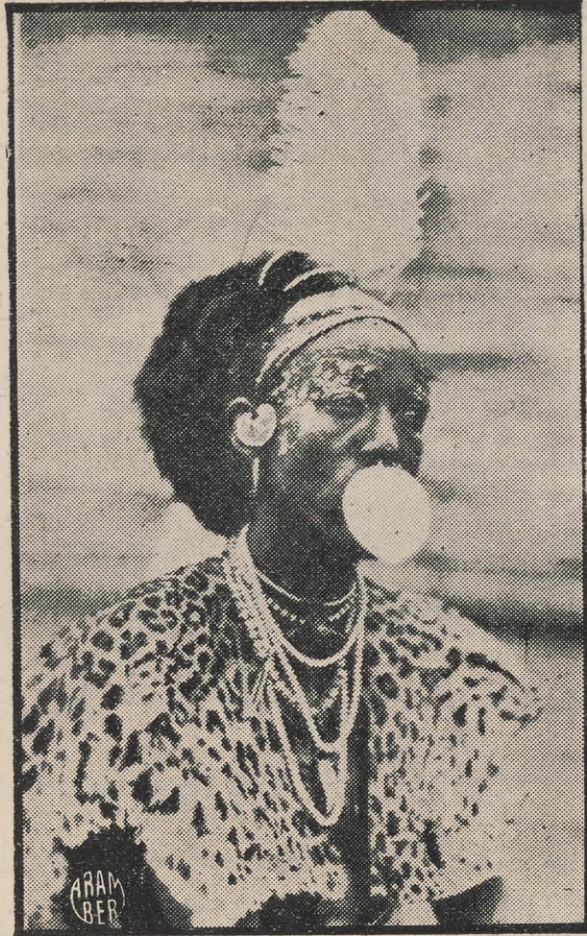


(بعض زينة الشعر عند أهل كينيا)

خلالها ٢٢٥١ قدم فوق نا كورو ، وكانت ليات السكة متعددة والرّبي
المنشورة يعلو بعضها البعض تكسوها الغابات القائمة وهنا وهناك كنا نرى
بقاعا شاسعة زرعها ذووها على أن هذا الجانب رغم ثروته بالنبت وكثرة
المسائل المائية التي تسيل بالماء أبان المطر ، أندر سكاناً والمناظر أقل
روعة ، ومعاير سكة الحديد هنا بلغت ٢٧ في قناطر ملتوية شاهقة تشهد
لأولئك الجبابرة الذين أقاموا الخط مغالين الطبيعة ووعورتها ، وهنا شعبة
لسكة الحديد تعبر خط الاستواء ثلاث مرات في طيات متعاقبة . عبرنا
(حافة ماو) ثم أخذنا نهوى سراعاً الى السهول المؤدية الى فيكتوريا نيارزا
وفي خمسين ميلاً هبطنا ٣٧٠٠ قدم ولن أنسى زمهرير البرد خصوصاً لما أقبل
المساء فقد كادت قدماي تجمدان ، وكان البرد يفوق أقسى ليالى شتاء مصر

والعجب أننا كنا فوق خط الاستواء تماما لكن هو الارتفاع الذي هبط
بالحرارة الى ذاك المدى البعيد ، على أننا شعرنا بزيادة الدفء عاجلا لما أن
أخذنا في ذاك الهبوط ، ولقد انتقلنا الى جو حار تماما لما بلغنا كيسومو على
البحيرة وأخذت السهول تنفسح وتنأى الربى كلما هبطنا وغالبها برى يكسوه
العشب والشجر الا في بقع نادرة من نبات الذرة بجانبها جمهرة من مساكن
القوم وفي ظني أن مستقبل تلك المتسعات وقف على الفلاحة والزراعة إذا
مازودت بوسائل الري والأيدى العاملة ، واقلیم كينيا رغم غناه المفرط في
خصب التربة ووفرة المطر وكثافة النبات نادر السكان ولعل أغنى بقاءه
بالنخب والخصب الا حدود الاعظم لذلك كنانرى كثيرا من المساكن تجاوز
المحاط على خلاف الهضبة بين ممباسا ونيروبي التي كانت موحشة خالية من
الاهلين وكان نصيبنا من الحيوان الوحشى هنا قليلا .

دخلنا كيسومو : فتجالت مياه فيكتوريا على بعد في لونها
الفضى وامتدادها الرهيب ، ووقف القطار الى جانب السفينة (Clement hill)
والمدينة قرية صغيرة بها طريقان واضحان عليهما الدور والحوانيت وغالب
أزقتها تطل على البحيرة في انحدار لأنها تقع على احدى ربي خليج
(كافرونندو) وهو شعبة من البحيرة كأنه رأس الحيوان تحف به من جميع
نواحيه نجد مغضنة ، والمدينة قد فقدت اليوم شيئا من شهرتها التجارية
لما أن فتح الطريق الحديدي الى جنجا وكامبالا رأسا على أنها لا تزال
المرسى الرئيسى لبواخر البحيرة تلك التي نقلت قطعها بسكة الحديد وركبت

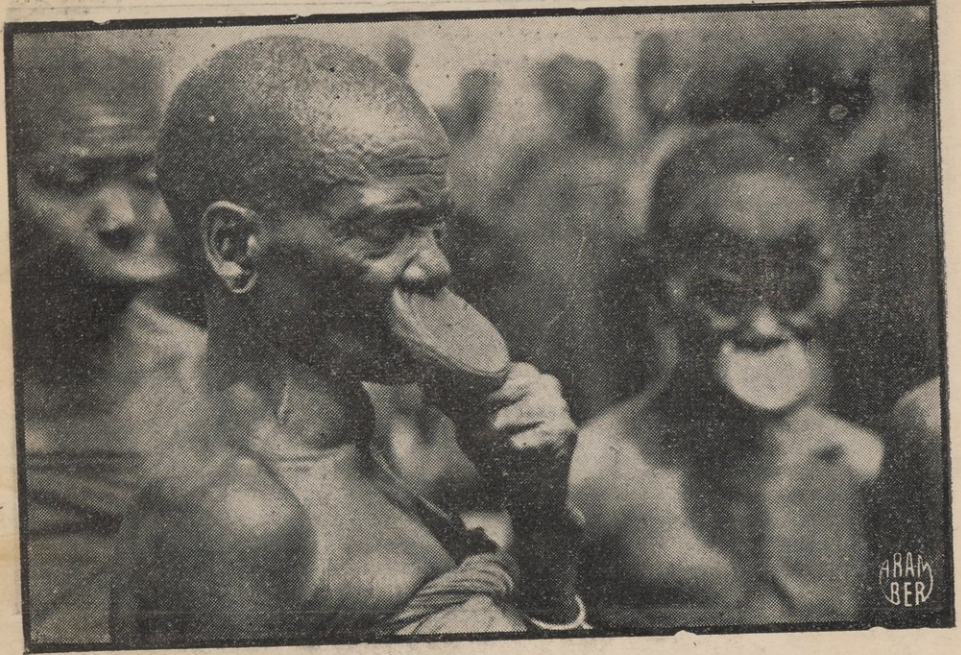


(زينة الآذان والأنوف عند قبائل توركانا)

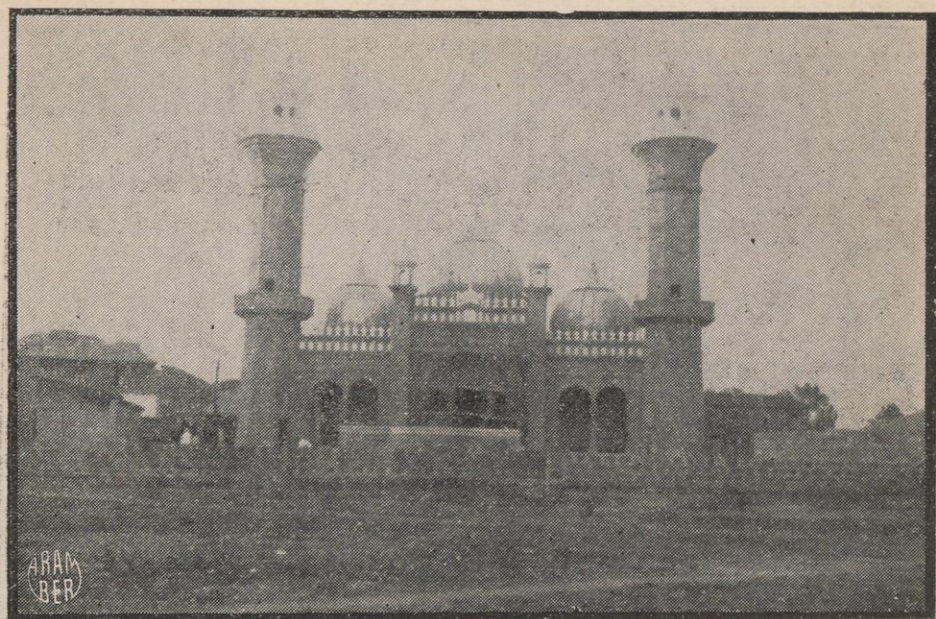
في حظائرها التي تعد أعلى مراسى للسفن في الدنيا ، وأول باخرة وصلت
فكتوريا أرسلت قطعا لا يزيد وزن الواحد على قنطار نقلت كلها على
كواهل الناس من ممباسا مسافة ٦٠٠ ميل ، وكانت حمولتها ٦٨ طنا فتصور
مبلغ المشقة والنفقات إلى هذا الأخطار التي تعرضت لها القافلة من الوحوش
والقحط ونضوب الغذاء .

وقد كانت السفينة تحمل وسقها من الأغنام والخنازير ومنتجات
الألبان ، والمدينة تموج في المساء بأسراب حيوان اسمه (Impala) كالغزال
الصغير تسير قطعانه بجانب المارة كأنها مستأنسة ويواسى بعضها البعض
وحدث مرة أن ضرب واحد منها فجرح وفر وعدا معه اثنان الى جانبه
ليعاوناه على المسير . هنا بدا الاهلون من قبائل كافرندو أبعد عن الهمجية التي
لمسناها في سكان الأخدود ، يلبسون الأردية في جلايب فضفاضة من قطن ولا
يكثرون من التزين بالمعادن والخرز وهم أقوياء بوسائل ومستمد رئيسي للعمال
وهم من أكثر الهمج عفة يحكمهم زعماء أشداء وعديدهم يناهز المليون
والضباط والبوليس يلبسون الطربوش الاحمر تتدلى منه خصلته الثقيلة .

فكتوريا : قمنا الى أوغندا نشق عباب مياه خليج كافرندو الذي
ظلت شواطئه تبدو في سلاسل جبلية وطيفة تكسوها خضرة خفيفة ، وكان
لون الماء عكرا زيتيا تشوبه حمرة خفيفة كأنه ماء النيل أبان الفيض .
ولقد كان الجو صحوً والشمس محرقة والحرقاً ظلاً ولما ان تحركت الباخرة
أنعشنا نسيم البحيرة البليل ولبثنا نشق خليج كافرندو زهاء خمس ساعات
(٥٠ ميلا) وقبيل المنفذ أخذت الخاريط الحامدة الصغيرة تتقارب حتى
خيل الينا أن البحر مغلق لا منفذ له لكن ما لبثت تلك الخاريط نشق
الى جزائر جرانيتية صغيرة يتلوى الماء خلالها وهي جميعها تكسوها خضرة
لا يكاد يستقيم لها عود وقد بدا للخليج منفذان رئيسيان مختلفان سلكننا
سبيلنا الى الأيمن بين منشور الجزيرات الساحرة وما كدنا نجوز آخرتها حتى



(ما أقسى ما يعانيه القوم في تجميل شفاههم هكذا)
دخلنا بحر (النيانزا) المائج الخضم الذي غابت عنا شواطئه وصفامؤه في خضرة
زيتية مستملحة وهنا فقط كان الفرق بينه وبين المحيط بمائه صافي الزرقة .
وقفت أجيل النظر في تلك العظمة وشعرت بالغبطة الكاملة حيث تحقق حلم
كنت أحسبه خيالا بعيد النوال هو أن أرى فكتور يا نيانزا التي ندين لها
بروحنا وحياتنا لأنها المنبع الثابت لنيلنا الخالد العتيد وما كان أحلى مغرب
الشمس وقد صوبت إلينا رياشها الذهبية من خلال كومات السحب وقبل
أن تنفذ إلى الصميم منا دفعتها صفحة الماء عاكسة أياها في توهج يسحر الالب
وما كادت تغرب الشمس حتى انطفأت تلك الألوان الجذابة وخيم الظلام
(١٠)



(مسجد هندی علی نمط تاج محل فی نیروبی)

الرهيب شأن سائر البلاد الاستوائية التي ينطفئ فيها ضوء الشفق عاجلا
ولقد أنصف القوم في تسميتها (نيانزا) ومعناها البحر فهي ٢٥٠ × ١٥٠
ميلا أو ٦٨٠٠٠ كم^٢ تطوفها الباخرة في خمسة أيام كاملة وهي تغاير سائر
البحيرات في ان شواطئها مدرجة وليست مشرفة تكسوها الخضرة التي
تعرفنا من نباتها البردي والبشنيين واذا ما هاجت وغضب ماؤها اقتلع منها
كتلا كنا نراها طافية

استقبلنا مشرق الشمس بألوانه القائمة الجميلة (وپورت بل) قبالتنا وهي
ثغر صغير أقيم على البحيرة ليصلها بمدينة (كامبالا) العاصمة التجارية
لأوغندا وهي ليست مدينة بل مجموعة مراسي وأرصعة عليها أشرطة سكة

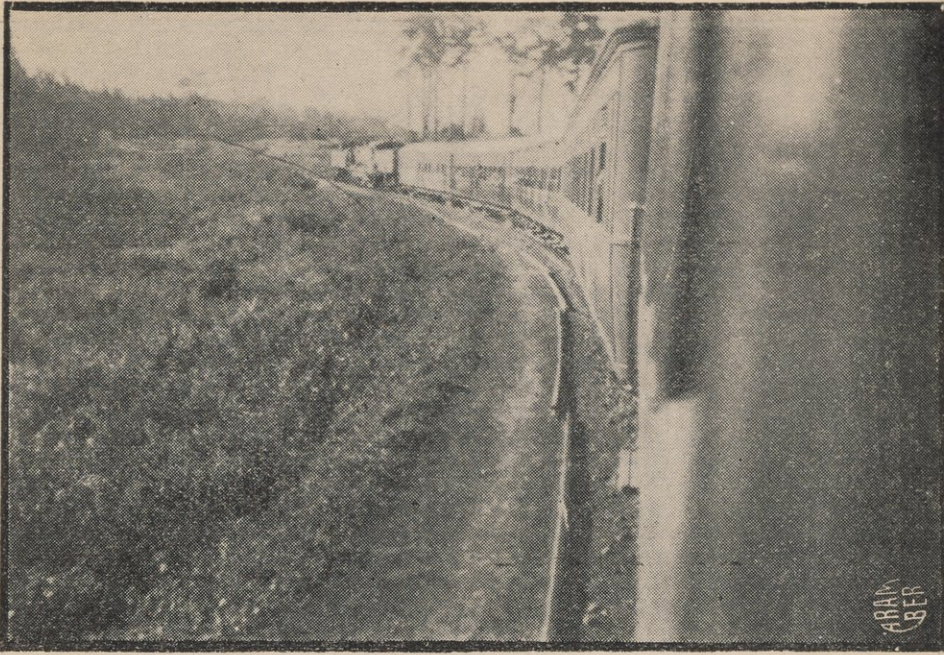


(قطعان الحيوان عند الافق في حرم الحيوان)

الحديد التي تمتد سبعة أميال الى كامبالا

هنا انتقلنا الى القطار فسار بنا وسط مدرجات فيكتوريا التي كان يكسوها البردي والغاب والقصب الكثيف و يغطي أجوان البحيرة العديدة أطباق البشنين ونوره الكبير وكنا بين آونة وأخرى نبصر بجمهرة من الأكواخ زرع القوم حولها بعض الخضر وأشجار الموز حتى وصلنا محطة كامبالا

كامبالا : أخذت أضع في طريق متلوية أدت بي الى النزل فنظرت من حوله وإذا الوهاد والنجاد لا حصر لها تكسوها جميعاً الغابات والأحراش وتتناثر عليها المباني الحديثة في سقوفها المتحدرة من صفائح الزنك



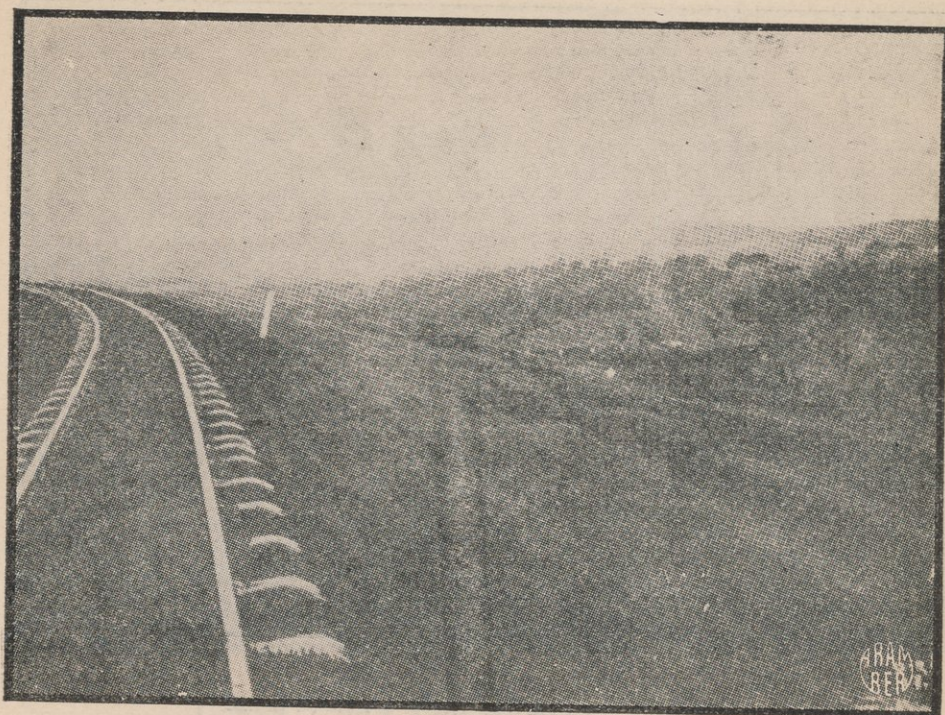
(القطار ينزل بنا الى الاخدود الاعظم)

والكل فى طابق واحد وفوق ذروة كل ربوة بناء شامخ ، والمنظر حول كامپالا ينم عن مناظر أوغندا كلها تلك التى أطلق عليها ستانلى (لؤلؤة أفريقية) فهى مجموعة من تلال محدبة ذراها مسطحة بينها وديان تسدها الخضرة وتفاجئك المياه بكثرة وعلى غير انتظار ، والمدينة مقامة على سبعة تلال كما بنيت روما لكنها أبعد جمالا وأغنى روعة تتصل كلها بطرق متلوية تهوى تارة وتصعد أخرى الى مئات الأميال فى رصف بديع وهى تشق جزءاً من افريقية كان الى أمد قريب مجهولاً مغلقاً ، أرتقيت أعلى تلك التلال واسمه تل ناميرمبي (Namirembe) ومعناه تل السلام تتوجه الكاتدرائية الانجليزية وفيها أقيمت أول صلاة مسيحية هناك سنة ١٨٧٧ ودمرت تماماً



(بحيرة ناكورو وسط الاخدود الاعظم)

بعاصفة سنة ١٨٩٤ ثم جددت بعد عام لكن السماء الغاضبة نسفتها بعاصفة سنة ١٩٠٠ والكنيسة الفاخرة الحالية أُنمت سنة ١٩١٩ وإلى مقربة من المكان (تل كلسوبى) تتوجه المدافن الملكية وأروع ما رأيت منها مقبرة الملك (موتيزا Mutesa) وابنه الماچن (موانجا Mwanga) والد الملك الحالى وبجوار المدفن الطبل الأعظم (موحا جازو) الذى كان يرقه رئيس الجلادين (موتا مانياج) كلما أرادت آلهة القبيلة (لوبارى) الفظيعة بعض الذبائح البشرية (كيوندا Kiwenda) طوع عاداتها الدموية القاسية والمدخل قبو يحوطه سور من جدل الغاب الأنيق تتوسطه ردهة مستديرة تقوم حولها مساكن الحراس وفى المقدمة المدفن وهو كوخ فاخر مستدير يقوم



سكة الحديد الى فيكتوريا وهى هنا تعبر خط الاستواء ثلاث مرات
بألياتها العجيبة

على عدة عمد مزركشة ومن جذوع الشجر وفى قراره المقبرة تصف عليها
الحراب البراقة والى يمينه مدفن ابنه موانجا والى جوار حظائر المدفن مسكن
أخت (موتيزا) وحاشيتها فى أكواخ كبيرة تحوطها أسوار الغاب ، وكم
خضبت أرجاء هذا التل دماء الأبرياء من بنى الانسان وكانوا يقدمون
زرافات كقرايين فى عهد ذاك الطاغية

نبذة عن تاريخ أوغندا والطاغية موتيزا : أول من
رأى أوغندا من الأوربيين (سبيك) لكن تجار العرب كانوا



(الشوارع في كيسومو تنحدر كلها الى بحيرة فكتوريا)

يعرفون البلاد حق المعرفة قبل ذلك بزمان بعيد ولقد دهش سبيك لأنه بعد أن سار من الساحل عند زنجبار بين أقوام من العرايا الهمج رأى أهل أوغندا يلبسون الأنسجة المختلفة حتى أنهم استنكروا أن يروا حمار سبيك يبدو عاريا ، وقد لاقاه الملك موتيزا وأكرمه وكان طاغية قاسياً له سبعمائة زوجة ومائة وخمسون من الأبناء ، وقد رحب بالأجانب ظناً منه أنهم سيزيدون البلاد علماً وقوة واعتنق المسيحية وطلب أن توفد إلى بلاده البعوث الدينية ، ولما مات موتيزا سنة ١٨٨٤ قيل أنهم قدموا على مقبرته خمسمائة من الضحايا البشرية ، وقد كره ابنه موانجا المسيحية وشجعه العرب على ذلك ، وكان شيع المسيحيين هناك في شقاق مستمر فأخذ موانجا في



كامبالا تقام على سبعة تلال
وهاك جندي البوليس وسط شوارعها المنحدرة

احراق كل من يعتنق المسيحية أو يلقيه طعاماً للتماسيح لكن بعض قومه
ثاروا عليه فهرب وأيد العرب أخاهم كما لنشر الاسلام لكن أسرع المسيحيون
واستنجدوا بموانجا الذي حارب العرب وخذلهم وأيده المبشرون بالمال والرجال
حتى كانت سنة ١٨٩٠ فأمضيت معاهدة بين إنجلترا والمانيا ضمت بها أوغندا
لإنجلترا ودخلها (لوجارد) كما فاتحا بجيش من السودانيين وأهل زنجبار
وهزم العرب على مقربة من (كوار) سنة ١٨٩١ في مقاطعة أنكولى ،
ولما أمن المسيحيون خطر العرب اقتتلوا ثانية (الكاثوليك الروم ضد
البروستانت) وكان لوجارد يتعقب فلول جنود أمين باشا السودانيين فقتل
بعض البروستانت بيد الكاثوليك الذين ساعدتهم موانجا فقامت الحرب بين
الفريقين طويلاً وأخيراً رفع العلم البريطاني لأول مرة هناك ومنح المسيحيون
من الفريقين امتيازات كثيرة ثم طالبت الشركة التجارية البريطانية في



(الزى القديم والحديث فى كامبالا)

شرق أفريقية بامتلاك البلاد وقرر البرلمان البريطانى اخلاءها لىكن عاد
فعدل عن ذلك .

وفى ١٨٩٤ أعلنت الحماية على أوغندا ، وأطلق أيدي الكاثوليك
والبروستانت معاً ليقوموا بشئون التعليم وتحويل الوثنيين الى المسيحية
ما استطاعوا ، وأخذت الحماية توسع أملا كما غربا وشمالا وفى ١٨٩٧ ثار
موانجا ثانية بمعاونة المسلمين وجنود السودان وكادت انجلترا تخسر البلاد
كلها لولا انتصارها سنة ١٨٩٩ وفيه أسر موانجا ونفى الى سيشل حيث
مات سنة ١٩٠٣ وأمضيت معاهدة (منجو) سنة ١٩٠٠ ونصب ابن موانجا
(كووى تشوا) ملكا تحت أوصياء من أهله لأنه كان طفلا فى سن الرابعة



(أمام مقصورة موتيزا حيث كانت تقدم الضحايا البشرية)
ودفعت له بريطانيا راتباً كبيراً وتمهده مدرسه انجليزى خاص . والطاغية
موتيزا كان يقدسه رعاياه وكان يحكم حكم اقطاع معقد وكانت تقلبات
أهوائه قاسية مدهشة فظالما بتر رأس زوجة لأنها نسيت أن تغلق الباب
وراءه وكان ماجناً ، فكلمها سمع عن فتاة جميلة حملها اليه أتباعه قهراً عنها
والتعذيب لأقل هفوة كان شائعاً كقطع الآذان واللسان وقلع العيون وما إليها



أمام مدفن موتيزا الطاغية وابنه الماكن (موانجا)
وكان كما خرج جيشه دفن أمامه طفل حى إرضاء للعفاريت ولا يزال الباجندا
أهل البلاد الى اليوم يستهينون بالحياة ولا يستنكرون كثيرا من أعمال القسوة
التي تقع تحت حسهم ، وكثيرا ما كان يجلس موانجا ويحىء الرجل أمامه
فيقطع ذراعه ثم يشوى فى النار ثم ساقه وأخيرا يلقى كله فى النار على مرأى
منه وهو ثمل سكران

ومن تلال كامبالا السبعة تل (منجو Mengo) مقر الحكومة الوطنية
وموطن الكاباكا (الملك) وكان الطريق الرئيسى المؤدى الى القصر
يتدرج علوا الى المدخل الرئيسى بجانبه الخضرة والاشجار المشدبة ويطوق
التل كله سور شاهق من جدائل الغاب والقصب متقن الصنع أيما اتقان

وعلى الباب يقف الجندي (أسكرى) وإلى داخله تقوم المباني يمينا وشمالا بعضها حديث النظام والبعض أقية وأخصاص عادية وتلك دور الحكومة وفي الوسط يقوم القصر الملكي وهو قصر حديث البناء ، وأمام بابه توجد نار لا يحمد أوارها إلا يوم يموت الملك وكانت تزجيتها الذبائح البشرية منذ نصف قرن ، وإلى جوارها رأينا طبولا تدق على الدوام اعلانا وارهابا ، ويقطن القصر الملك الوطني السير دودي تشوا (Daudi Chwa) سليل ملوك باجندا وخلف القصر بركة تغص بالتماسيح التي كان غذاؤها لحوم المجرمين الذين كانوا يلقون فيها أحياء ، وعلى ربوة من تل كامبالا نفسها زرت متحفا صغيرا أقيم في مكان الحصن الذي بناه (لوجارد) ورفع عليه العلم البريطاني لأول مرة سنة ١٨٩٠ ، هنا ذهب خيالي إلى عهد أمين باشا والعلم المصري الذي ظل يرفرف فوق المسكان طويلا ولولا غدر الزمان للبث هناك إلى يومنا هذا ، أما المتحف فصغير يحوى بعض مخلفات أوغندا من دروع وتروس من الخوص والجلد وأسلحة من حراب وقسي وطبول وأدوات موسيقية ساذجة وبعض زينة المحاربين وما إليها ، وبجوار السجن تقيم عجوز شمطاء هي ساحرة شهيرة اسمها موواموزا كانت في مقاطعة كيجيزي قرب حدود الكونغو والكثرة ما سببت من شغب وإرهاب نفتها الحكومة إلى هنا وهي تخصص لها وخدمها وأتباعها من حولها رواتب شهرية بها تعيش في رخاء وذلك اتقاء شرها وسيطرتها على اذهان السذج من دهاء العبيد وكامبالا هي العاصمة التجارية لأوغندا ، أما العاصمة السياسية فهي :



(مدخل البيت الملكي (كاباتا) في كامبالا)

عنتبة (ومعنى الكلمة الكرسي) فهي تشرف على البحيرة بثلاث شعاب كأنها الكرسي وهي مدينة فاخرة آية في التأنق على أنها صغيرة جدا ويكاد يكون كل قاطن فيها من كبار الموظفين الأجانب وتسترعى النظر بها منتزهاتها اللانهائية وحديقة للنبات هائلة بها جل فصائل الشجر والزهر وبخاصة الاستوائي وقد وصلناها بالسيارات من كامبالا في أقل من ساعتين وكامبالا تعلو البحر بنحو ٣٩٠٠ قدم والجو فيها جميل جداً أميل الى البرودة والسماء صافية في العادة قبل الظهر أما بعده فتسكاد تحجبها الغيوم التي كثيرا ماتهمي وابلا أذكر منها عاصفة عاتية ظلت ساعة كاملة والماء يتهاطل كأنه من أفواه القرب وكان ضجيجهم الى جانب قصف الرعد مرعباً مزعجاً مما جعلني أفهم

معنى الامطار الاستوائية مع انى كنت هناك فى غير موسم المطر والاقليم
يشعرك بعظمة الغابات أينما طوحت ببصرك أما الطيور بديعة اللون فلا تحصى
ولا تحبوزقزقتها وتغريدها لا ليلا ولا نهـاراً وفى المساء وسط ظلمة المدينة
الحالكة ترى الخصرة تنتشر فيها نجيمات تتلأأ وتنفىء فى كثرة هائلة
وهى اليراعة الطائرة (fire fly) التى أزعجتنى أیما ازعاج لأول مرة رأيتها
وكننت فى الطريق وحيداً حينما لاحظت عدداً منها فوق قمة أحد تلال النبل
وما كدت أقاربها لأعرف ما هى حتى هبت منها عاصفة فى وجهى وكأنها
نار قد انفجرت

والأهلون من السود يتجمع غالبيهم حول تل منجوى مقر الملك وغالبهم
من شعوب (الباجندا) يلبس كثير منهم أردية بسيطة من قشر شجرة
اسمها (Bark cloth tree) ينزعون قشرها اللينى بعناية ثم تنقع قطعه
فى الماء وتنشر وتدق بالمطارق حتى يصبح ناعماً طرياً خفيفاً والشجرة منتشرة
فى كل أوغندا وأعجب ما فيها أنك اذا قطعت جزعا ودفنته فى الأرض
ينمو شجرة بمجرد نزول المطر عليه واذا ساءخ الجلد وجب تغطية الجذع بورق
الموز وقاية له حتى يظهر الجلد من جديد وجلد المرة الثانية أدق أليافاً وأكثر
نعومة وجودة من جلد الدفعة الأولى وقد بدأوا يلبسون اليوم جلابيب
القطن والباجندا هؤلاء أهل جد وذكاء وكبرياء يفاخرون بأن منشآتهم
سابقة للانجليز الذين لم يزيدوا على نظمهم فى ادارة البلاد شيئاً وقد كانوا
طعمة لتجار الرقيق قديماً أكثر من غيرهم ويمتاز الواحد منهم على أهل كنيا-



(المقصورة الملكية في أوغندا)

بأنه منتج وانه سيد نفسه في مزارعه ويرجى على يديه تقدم زراعى خصوصاً
في القطن وأوغندا تعد ثلاثة بلاد الامبراطورية البريطانية في انتاجه وهم
أسرع من غيرهم في التمدين بدأوا يلبسون الملابس الافرنجية ويعبدون
الطرق وينظفون المساكن ويركبون الدراجات التي كنت أراها مطية
الجميع في مزارعهم ، وأكواخهم من الخوص والغاب والطين بعضها مربع
والبعض مستدير وغالبهم لا يدين بدين خاص الا أن أثر المبشرين المسيحيين
واضح جداً فهم أول من حل البلاد من البيض دائبون على الدعاية الدينية
وقد ضموا لهم طائفة كبرى من السود الذين كنت أراهم يسيرون والصليب
الفضى يتدلى من صدورهم ومئات منهم يؤمون الكنائس يوم الأحد ،
أما المسلمون فقليلون الا من الهنود الذين يحتكرون المتاجر ويملكون أكبر
احياء المدينة ، وللقوم لغتهم الخاصة على أن السواحلية لا تزال لغة التعارف

بين المتنورين من القبائل المختلفة .

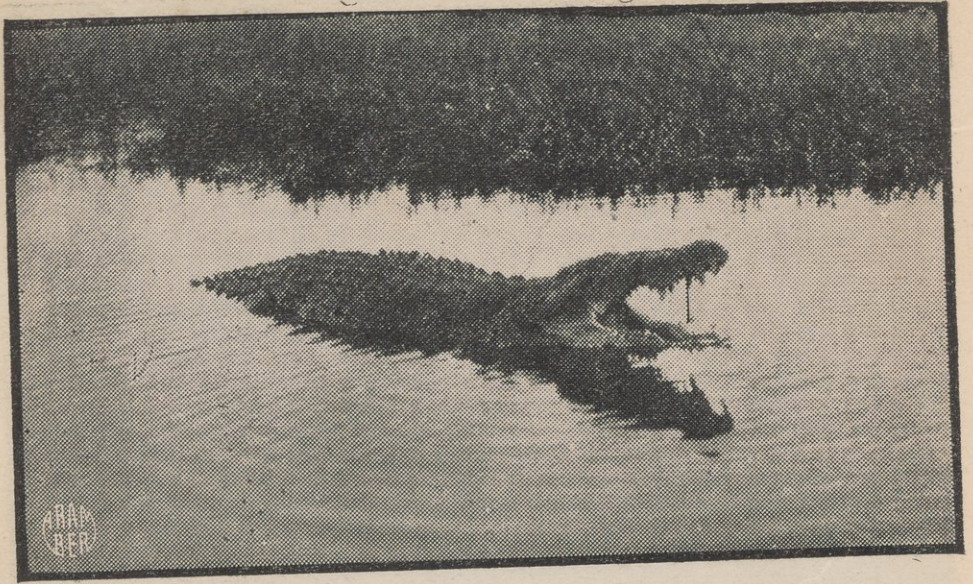
هذا وجمال الطبيعة حول كامبالا يأخذ باللب وطفقت أتجول كل يوم
سيرا على الأقدام خلال تلك النجاد والوهاد تطربني أصوات الطيور وتقر عيني
بألوانها الى الآلاف المؤلفة من الزهور فوق الشجر ووسط الكلا في فصائل
لا يحصيها العد وتطير حولها مجاميع الفراش كبير الحجم وعجيب أنى كنت
أرى كل فراشة لا تحط الا فوق زهرة تحكيها لونا ، وقد كنت أقصد ازعاجها
فتطير ثم تعود الى زهرها دون أن تخطيء ، وكان الطير يفعل ذلك إلى
حد ما ، ولم كنت أحاول ترك الطريق المعبد لأشق الاحراش والغابات
اختزالا فتخوننى لياتها وأظل أسير فلا اهتدى الى غاية كلا ولا أتعرف حتى
المكان الذى طرقتة ، أذكر ليلة أنى خرجت عصرا صوب تل الملك فأوغلت
في الغاب ظنا منى أننى أستطيع تحكيم ملكة الاتجاه فما لبثت أن ضللت وسط تلك
الغابات الرهيبة الموحشة الى الثانية صباحا أعنى الليل كله تقريبا حتى فاجأتني ناعورة
سيارة سلكت سبيلي جريا اليها وأذابني فى طريق شق خلال الغابات ، ولن أنسى
مبلغ الذعر كلما سمعت حركة وأنا جالس أستريح فى وحشة الليل الرهيبة على أنى
علمت بعد أن الوحوش والحشرات قد قلت هناك جداً لقرب الغابات من مواطن
الانسان أما الاهلون فشديدو الملاحظة يتعرفون طريقهم حتى وسط الشجر
الكثيف ، وكان النساء نشيطات فى الزراعة يتعهدن الموز والبطاطا والتايو كا
وكلهن يلبسن الملاءات الملونة تدثر الجسم كله من أسفل الصدر أما ما فوق
ذلك فعار ويسترعى النظر الحزام الذى يلف من فوق العجز إلى ما تحت



(عند مدخل القصر الملكي تدق هذه الطبول صباح مساء رهبة وإزعاجا)
 السرة وهو مدلى من الامام فيساعد على انبعاج الصدر والبطن الى الامام وانتفاخ
 العجز الى الوراء فتبدو السيدة مضحكة في مشيتها خصوصا اذا كانت من قبائل
 (باهيا) رعاة البقر المشهورين في انكولى غرب البحيرة وآية التجميل لديهم
 السمن المفرط الذى تسعى اليه السيدة حتى لا تكاد تستطيع السير وهم
 يتخذون من شعر الفيل أساور وعقوداً رجالا ونساء يدهنون رؤسهم بروت
 البقر ، فاذا سألت أحدهم عن تلك العادة القذرة أجابوا بأنهم لو نظفوا أنفسهم
 نقر البقر منهم فهو لا يتبع إلا الجسوم المملوطة بفضلاته والعجيب انهم يعدون
 أنفسهم الطبقة الارستقراطية المسودة على من حولهم ، وأعجب ما فى أبقارهم
 قرونها التى يهولك امتدادها

وكننت أرى آلاف الخاريط التي يسمونها (تلال النمل) يسكنها النمل
الأسود والأبيض في حجم بالغ وتراها من داخلها مثقبة في سراديب متلوية
والنمل هناك آفة خطيرة تفسد كل شيء في الغابات والمساكن وهم يتركون
النمل يبني مخاريطه التي تراها تصف على جوانب الطرق ووسط الغابات فان
تعرضوا لها لجأ النمل الى اقامتها تحت المساكن بعد نحرها فلا تلبث المساكن
أن تنهار ، وهذا النمل أعمى لا يبصر ويبنى له حواجز على جذوع الشجر في
الغابات ليأمن السقوط اذا تسلق وهذه يقيمها من الطين الذي يحمله فوق
رأسه ويلصقه بالجدع بمادة صمغية من أفرازه وينخر الشجر ويأكله

والكساد المالي كان يبدو مجسما في أوغندا كما بدا من قبل في كينيا
وسائر بلاد جنوب أفريقية وشرقها فكثير من الدور والحوانيت خاوية
الوفاض تعرض للايجار ومئات منها آخذ في التصفية ودخل الحكومة آخذ
في النقص السريع خصوصا دخل السكة الحديدية والبواخر لذلك اختصرت
كثيرا من القطر والبواخر وتفكر في الاستغناء عن بعض الموظفين كما
استغنت عن كثيرين من قبل وأنقصت المرتبات جميعا وهاهو نزل ساقوى
ثاني انزال المدينة يبيع متاعه وسيغلق أبوابه آخر الشهر ولم يكن به من النزلاء
غيري أنا ورجل آخر مما أفقدنا روح الاجتماع فكنا نتناول طعامنا ونأوى الى
مضاجعنا خلصة كأننا خجلون مما نحن فيه من وحشة على ان الاهلين لا يخشون
ذاك الكساد لندرة حاجياتهم ولتوافر طعامهم الفطرى من منتجات الغابات
التي لا ينضب معينها



(التماسيح لوتمبي يجيب النداء)

وفي ناحية من كاميالا تبعد عنها بنحو أربعة عشر ميلا وتطل على البحيرة مكان يسمونه لوتمبي (Lutambe) أى التماسيح قصدناه فكان الطريق اليه يهوى وسط المزارع والغابات الكثيفة المشتبكة المظلمة ومشهد البحيرة ساحر بجزائرها الصغيرة المنثورة وتغضن الساحل الذى يحفه نبات الماء فى كثافة مشتبكة وبخاصة البردى والبشنيين والحلفاء وكثيرا من الأشجار والشجيرات وكان بعض الشاطئ مدرجاً والبعض صخريا مشرفا فى حمرة قائمة من نسيج الجرانيت المحبب وعجيب أن كانت تنمو خلاله الأعشاب وبعض الشجر وهذا المكان يدين شهرته الذائعة لتماسيح ضخمة عتيق من بين آلاف التماسيح التى تغص بها البحيرة .

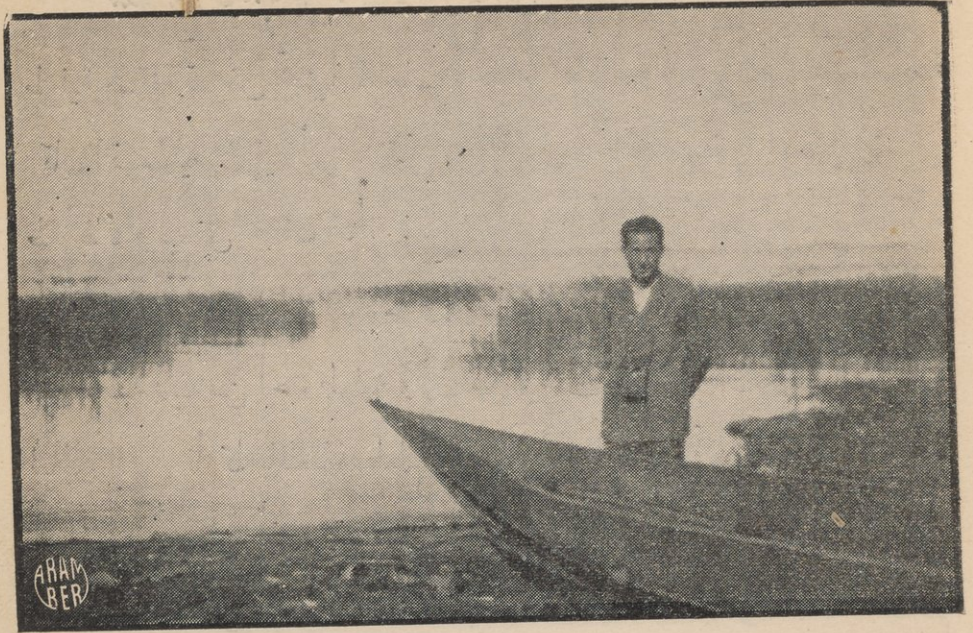
وقف زنجي هناك على الشاطئ وأخذ يناديه وهو يصيح بأعلى صوته



(يناديان التمساح لوتمبي على بحيرة فكتوريا)

قائلا : (لوتمبي ياد يالوتمبي يانجو كوو) مرات حتى سمع التمساح النداء على
بعد شاسع وعمق سحيق ووفد الى الرجل وزحف بجواره لياً كل من يده
بعض السمك ولبت الغلام يناديه يومنا زهاء الساعة والنصف وكدنا نياس
من ظهوره وأخيرا عند الغروب ظهر يشق الماء وأخذ يزحف بجوارنا كأنه
أليف مستأنس يلتقط السمك الذي كنا نقدمه له وعلمنا أن متوسط ما يكفيه
كل يوم مائة كيلو جرام من السمك

ويقول القوم في أقاصيصهم أنه ظل حارس البحيرة الامين فوق مائتي
عام ويقدهه الجميع وفي بعض الأحيان لا يسمع النداء فيصفق له الغلام



(على ضفاف بحيرة فكتوريا حيث يقطن التمساح المقدس لوتبي)

بصفائح في الماء فيجىء اليه ويؤيدون أنه عتيق بتناقله الشديد عند ما يظهر
ويمشى على الشاطئ ، ويروون عنه أنه نهش ذراع رجل مرة ولقدسيته
اتهموا الرجل بالسرقة فأخذوا الرجل الى الشاطئ ، ونادوا (لوتبي) وطالبوه
بقولهم (أرنا بحكمك الراجح ان كان الرجل لصا أم بريئا) وقدموا له الذراع
الثاني فالتهمه التمساح وعندئذ اعترف الرجل بسرقة ورد ماسرق لصاحبه
ومات بعد ذلك بزمان قليل ، وعادة تقديس التماسيح واستئناسها ومداعبتها
هكذا مصرية قديمة

سوق كامبالا : يقوم في بناءين متجاورين يقسمان الى مدرجات طولية مسقفة تعرض تحتها المبيعات أحدهما للخضر واللحوم وهو نظيف جدا كان القوم يبيعون فيه أنواعا شتى من الفول والجذور بعضها أخضر يؤكل طازجا ، والبعض مجفف كأنه قطع الحلوى يسحق ويباع دقيقا ، ثم الفاكهة وبخاصة الموز في عراجين ضخمة ويليه كثرة (البوبوز) في حجم (الشمام) إلا أنه مدبب من أحد طرفيه ولون لبه برتقالى وطعمه حلولى لذىذ كان يقدم لنا في النزل نأكله بالمعلقة في طعام الإفطار ، أما البناء الآخر فقسم فيه للسماك المجفف في شكل أغبر مقدد منفرد المنظر كرية الرائحة ويعرض في أحجام مختلفة من تروس قطرها خمسة سنتيمترات الى سمك طوله المتر ، وقسم آخر مكشوف تعرض به من القناني القديمة وعلب التبغ الفارغة وقطع من صفيح ونحاس للزينة وكلها من سقط المتاع تدل على سداجة القوم وسخف عقولهم ، والزحام هنا بالغ أشده ، وكل من كان يسترعى نظرى نظام التحية اذا تلاقى صديقان يبسط أحدهما كفيه متجاورين ويلمس الآخر بطنهما براحته ثم تظل اليد تتحرك بينهما ذهابا وجيئة مرات وخلال ذلك يفوه كل بكلمة تحية تتبعها زجرة لابل وتأوهات عميقة طويلة ، ومن الغريب أن وجه كل منهما منصرف عن وجه أخيه ، والنسوة تمر وهى تهادى متشاقلة لما تحمل فوق رأسها من متاع وفوق ظهرها من طفل كأنه القرد الصغير ، وغالبهم يبدون في حرائر فاضحة اللون بين أزرق واصفر وأحمر ، وبعضهن لا يغطين إلا اكتاف الى الثديين ليظهرن زينة الوشم والتجريح الذى خلف



(سوق كامبالا)

فى الجسم صفوفًا منظمًا من أدران تتعرج يمينًا ويسرة ، وقد جرنى الحديث
عن المستوى الخلقى هناك فعلمت أن العفة لا تكاد توجد بين الأهلين الذين
لا تنال نزعتهن الحيوانية سائدة هذا الى تذوقهم طرفًا من المدنية التى جعلت
بعضهم يسعى وراء النقود من أى طريق ، وسواء أكانت المرأة آنسة أم
متزوجة فإنه يمكن استمالتها واستهواؤها عاجلاً ، وكثيراً ما يرضى الآباء
والأمهات والأزواج بذلك ، وقد أيد عندى ذلك زيارتى لمستشفى كامبالا
أكبر مستشفيات تلك الأقاليم حيث كان غالب المرضى هناك يشكون
الأمراض السرية وبخاصة الزهري وقد خبرنى بعض الأطباء هناك أن تلك
الأمراض منتشرة فى البلاد بكثرة مروعة ، وهى تودى بحياة الكثيرين

منهم ، ولحسن الحظ أن القوم لا يخفون المرض بل يقدمون أنفسهم للحقن بدون خجل

والزواج هناك من سن العاشرة والبنات يبلغن الحلم مبكرات والأب يؤثر الذرية من البنات لأنه يتقاضى عليهن مهورا عن زواجهن ثم يأخذ الزوج عروسه ويبقى المهر الذى دفعه للأب يتمتع به وأخص مهرجان يقام للزواج الرقص والطبول المزعجة

وليس فى المدينة من وسائل التسلية أو الملاهى شىء قط على كبرها حتى ولا المقاهى أو المراقص كلا ولا الاضواء فاذا أقبل الليل خيم الظلام وعم السكون وسادت الوحشة المدينة كلها ، ومصاييح الطرق متباعدة ضئيلة الضوء لأنها تنار بالبترول حتى أننى كنت أتمس طريق ليلا وكأنى الأعمى الضير لذلك كان لزاما أن يحدل كل عابر سبيل مصباحه أو (بطاريته) كي يتعرف طريقه وسط تلك الظلمة الخالكة .

وبالمدينة مجموعة من شبه متنزعات فى متسع تكسوها الخضرة ، وفى بعضها تنمو الاشجار وغالبها ملاعب (للجولف والتنس والهوكى) ويتوسط المدينة متنزه صغيرة يعرض به مدفع حديث بعيد المرمى لا يزال براقا انتزع من السفينة الالمانية التى كانت تحرس ثغر موانزا جنوب فكتوريا نيانزا لما سقطت فى أيدي الانجليز سنة ١٩١٦ وأقيم الى جواره نصب تذكارى لمن فقدوا ارواحهم فى الحرب العظمى من السود سكان البلاد ، ويخيل إلى أن كامبالا كلها متنزه جميل من أية بقعة نظرت أحاطت بك الخضرة



(لا تكاد تنقشع تلك السحائب عن جبال القمر أبدا)

النفرة في أرض مغضنة الى الآفاق ومساكن الأهلين من الزوج هنا نظيفة
إذا قورنت بأكوخ القبائل الأخرى إذ ترى البيت وقد استؤصلت من حوله
الأشجار والأعشاب البرية وأحيط بسياج يغلب أن يكون من النبات والزهر
ويكنس الناس داخل البيوت ويحرقون القمامات عند الغروب في أبحار
وراء البيوت تلك الفكرة التي نقلتها فرق الكشافة عن أمثال أولئك من
سكان الغابات .

الى جبال القمر : (روزوري) : طالما حننت إلى مشاهدة جبال

القمر تلك التي تخيلها — بطليموس قبل الميلاد مستمد مياه أعظم أنهار الدنيا نيلنا
المبارك — ولقد كان الاسكندر المقدوني يرى ذلك وقد سمع سبيك من العرب
أن هناك جبلا رهيبا لا يكاد يستبين لكثرة ما يكسوه من المواد البيضاء

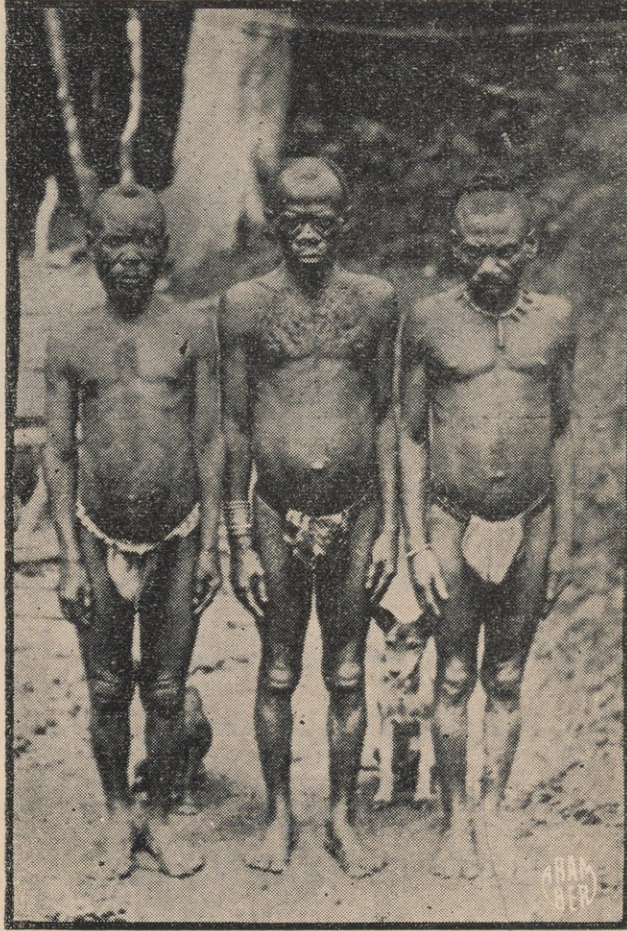
ولا يستطيع أحد ارتقاءه لوعورة منحدره وقد رآه بيكر في زرقة فاترة لذلك
أسماه (الجبل الأزرق) وفي ١٨٧٥ تسلق ستانلي جانبا صغيرا من مرتفعه
لكنه لم يكن يدرى ما يعلوه من ارتفاع شاهق كذلك امين باشا الذي أقام
على البرت، عشر سنين ولم يرقبسا منه ، ولقد تحقق لى مرآه بفضل رجل
فرنسى لاقيته في كامبالا علمت منه أن هناك طريقا معبدا طوله ٢٠٧ ميلا
تشقه السيارات غربا الى فورت بورتال وهى قرية صغيرة فى أسفل تلك الجبال
قطعناها فى ست ساعات خلال مناظر أوغندا المألوفة الساحرة ، نجاد تنكشف
منها هوى تسدها الغابات وتباغتنا النقائم فى غير حصر تغص بالبردى
والبشنين أكبرها بحيرة (واما لا) ثم جزنا تل (موبندى) موطن السحرة
ورسل الآلهة (تا كاهيما) وعليه تقوم بقايا الشجرة المقدسة التى تقدم تحتها
الضحايا البشرية وعندما قاربنا (فورت بورتال) كثرت منابت البن التى
تحفها من جميع نواحيها ، وهناك حلات استراحة خشبية لأمضى فيها ليلتى
استأجرتها بجنيه اذ ليس بالمدينة فنادق قط لا بل وليس بها شىء الا بقايا
حصن قديم ، هنا قام الى غربنا رونزورى يسامت السماء ويتصل بسحبها
فى كثافة رهيبة أيدت فى ظنى خرافات القوم هناك أولئك الذين يعتقدونه
مقر الجن ومحط الارواح التى انسلخت عنها أرواح أجدادهم من الحكم
الجبابرة لذلك فهم يرهبونها جميعا ، أما الغابات حوله فتسد الآفاق سداً
ويسمونها غابة (أتورى Eturi) مقر الاقزام من السود الذين رأيت بعض
أفرادهم فى المدينة ولا يجاوز الواحد أربع أقدام فى الطول يعيشون على الصيد



(أقزام جبال القمر ويبدو الاوروني وسطهم عملاقا)

بجراهم وسهامهم المسمومة ، لم أشف من مشهد ذاك الجبل العاتى غلة فلقد
طفقت أرقبه سبع ساعات متواليات فى وضوح النهار لكن لم أدر أوله من
آخره ضباب وسحاب ورذاذ ماء لا ينم عما فوقه ، ولقد قيل لى ان منحدراته
وبخاصة الشمالية أكثر بقاع الدنيا رطوبة لأن مطرها يفوق ٢٠٠ بوصة
ولأن نز الماء من جوانبها لا ينقطع أبدا ، ولا تتكاد الجبال تبدو إلا بضعة
أيام من السنة إذا ما صفا أديم الجو حولها ولا يكاد حينذاك يبدو فى لون
قرنفلى شاحب تكسوه عمامم الثلج فى مساحة مائة ميل مربع وتتجلى أعلى
الذرى (مرجريتا) على علو ١٦٧٩٤ قدم وهى أشد ذرى افريقية وعمورة
وأضعفها تسلقا وأحدث من حاولوا صعود الرونزورى (دوق أبروزى) الذى
يقول فى كتاب رحلته عن وعمورة الغابات هناك :

كنا لا نرى فى الأرض سوى جذوع وفروع تسد الآفاق يكسوها



(أقزام السود في غابة أتورى على رونزورى جبال القمر)
الطحلب الذى يتدلى منها وكأنها اللحى الكثية المترنحة تشوه كل شىء ،
وما الادواح إلا لفائف لا يتعرف المرء أين تبدأ مطاويها الى أين تنتهى
ولا سبيل إلى الورق الأخضر إلا ان تلمسته فى الاغصان السماوية وأنت
لا ترى للضوء قبسا بسبب ما يحجبه من الجداول الكثيفة والفروع المتعاقبة



رعاة (انكولى) بأبقارهم ذوات القرون الشاخنة (أوغندا)
فى كثرة تسد كل شىء أما الأرض فيخفيها خليم النبات ميتة وتبطنه طبقات
من الطحلب الزلق الازج قدر فى مرآه تن فى رائحته والمكان ساكن موحش
رهيب .

عدت الى كامبالا وفى نفسى حسرة لأنى كنت اخالى أستطيع أن
أرتقيه فأشرف على سميليكى فى هوت السحيفة لكن وابل المطر ووعورة
المرتقى وكثيف الغاب كل ذلك حال دون تحقيق ماهويت على أن مارأيته
يعوض ما كلفتنى تلك الجولة الفرعية من عناء ومال هو عشرون جنيها
أو يزيد .

الى جنجا منفذ النيل : أخذ القطار يعلوبنا تدريجا وهو
يتلوى لياته العجيبة وسط اقاليم مموجة تكسوها الخضرة الكثيفة وبين آونة
وأخرى كانت تبدو فجوات زرعت من الموز تمتد متسعاته الى الأفق
كأنه الغابات وقد كان علو شجره يفوق أربعة أمتار وفى وسطها تقوم أكواخ



(شوارع جنجا تنحدر كلها الى بحيرة فكتوريا)

قليلة للأهلين ، وقد يزرعون بجوارهم بعض الذرة والبطاطا ، وفي بعض
الجهات قصب السكر ومررنا بأحد مصانعه الكبيرة على أن القصب هناك
من نوع قصير العقد صغير الأعواد ، وكانت تنكشف بعض النقايع ومسايل
المياه وكلها تكاد تختمق بالنبت والبردى في (شواشيه) الانيقة وكانت
المحاط متباعدة جداً لندرة السكان هناك . وكان القطار يحمل وقوده من



(تحت شجرة موتيزا حيث كانت تقدم الضحايا البشرية في جنجا)
أرمت الخشب المقدسة في المحاط ، وقبيل جنجا فاجأنا منظر البحيرة في لونها
الفضي وامتدادها العظيم وسرعان ما انعطف القطار فبدا النيل وهو يتلوى
في مخرجه من البحيرة وكأنه طيات من الفضة يخرج من قمع متلألئ هو
خليج نابليون ، وقبل أن يستقيم رأيته يهوى درجة هي شلال رييون مفتاح
النيل وتتوسط تلك الدرجة صخرتان متباعدتان ينساب الماء خلاهما في ثلاث
فتحات أكبرها اليمنى وتلك الصخور بدت على بعد كأنها شعاب الزمرد
الأخضر ، ولما دانيتهما بعد حلولي المدينة كانت صخورا سودا من الديوريت



(على حافة شلال رييون منفذ النيل المبارك)

النارى القديم تكسوها الاعشاب الطويلة والشجيرات وأمام ذاك المسقط
لدى يهوى بالنيل كله أربعة أمتار تكثر الشعاب الصخرية المنثورة فى غير
نظام يتمايل الماء حولها ، وينزل عدة مساقط صغيرة هنا اثنى القطار وعبر
النهر بقنطرة نخيلة يبدو مشهد الشلال والجنادل والصخور من فوقها رائعا ،
وما كدت أحل غرقى من نزل (أيبس Ibis) الانيق الصغير حتى تمثل
أمامى منظر الشلال والنيل فأسرعت اليه سيرا على الأقدام مسيرة ربع
ساعة وهناك تجلت العظمة وتوالت الذكريات نزلت الى حافة الشلال
فلم يسعنى إلا أن أجلس معظم الوقت أنظر إلى مهوى الماء السحيق وأستمع
لدويه الرهيب يظلمنى رذاذه ويطربنى هزيمه . كان يتجلى ماء فكتوريا

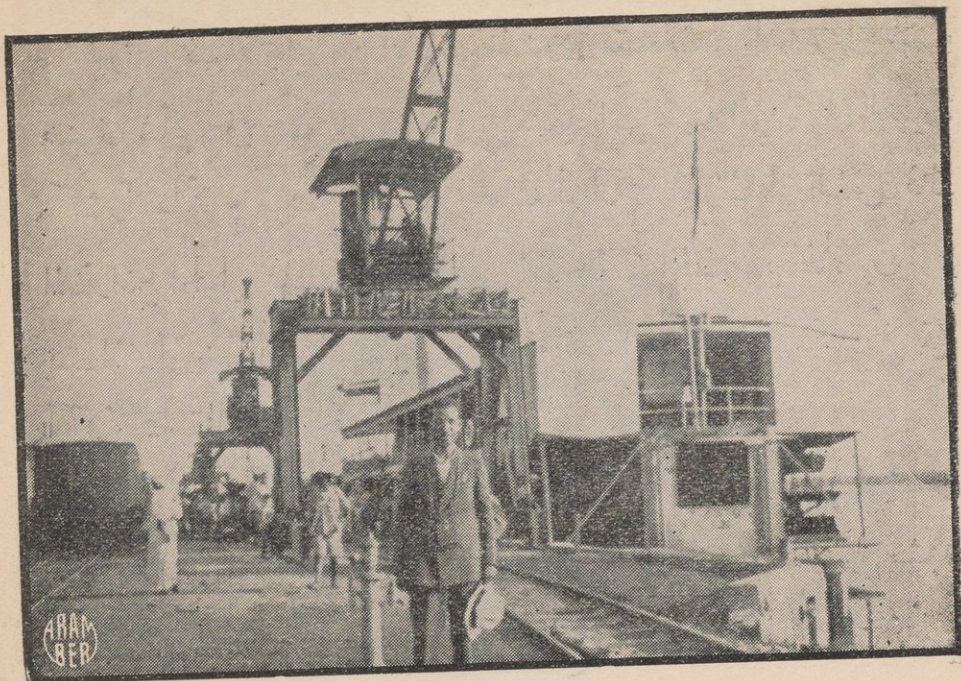


(شلال رييون وترى فكتوريا الى اليسار والنيل الى اليمين)
عند شفا المسقط أملس ناعما في وسطه مضطربا يعلوه الزبد في جوانبه وبين
آونة وأخرى نرى السمك يحاول مغالبة الماء بقفزاته العدة عساه يُتخطى
الشلال سابحا في الهواء إلى البحيرة ، لكن أنى له ذلك ودفع الماء شديد
ومستواه بعيد وكأنه كان يتخذ هذا العمل ملهى له ومستراضا ، وكان الطير
يحط فوق البحيرة ثم لا يلبث يطير جماعات يتخذ كل فريق شكلا هندسيا
هو الى المخروط أو الوند أقرب ويحوم حولنا ثم يعود فيهب إلى الماء ، هنا
سرح الخيال في النيل ومصر ، وما كانت عليه ابان عظمتها وماتعاقب عليها
من حوادث وعبر والنيل باق على هذا النجو طوال الأعمار ، وكنت أشعر



(النيل وجناده بعد خروجه من فكتوريا)

بآيات إخلاصى تتجسم خارجة من القلب لتسابق الماء الى الوطن العزيز
منظر جدير بالتقديس ولا يزال الى اليوم يقدس بعض قبائل الكمنغوي فدون
الى ريون ويقدمون للنيل القرايين والضحايا ليسترضوا إله المياه الجارية ،
وعلى جانب من الشلال مولد للكهرباء يسخر بعض مائه المندفع وتلك
تستخدم فى رفع المياه للمدينة كلها ، لكنه لم يستغل فى الاضاءة لندرة
السكان وشح الاستهلاك فى جنجا ، والمدينة نفسها متسع من الربى يشرف
منحدرا الى خليج نابليون تكسوه الخضرة النضرة والشجر الوفير ، وبيوتها
قلاى حديثة بديعة تنتشر مبعثرة فى مساحات شاسعة وتشقها الطرق المتلوية
والمناجر تصف على طريقين متقاطعين هما أكبر طرق المدينة وعلى الشاطئ



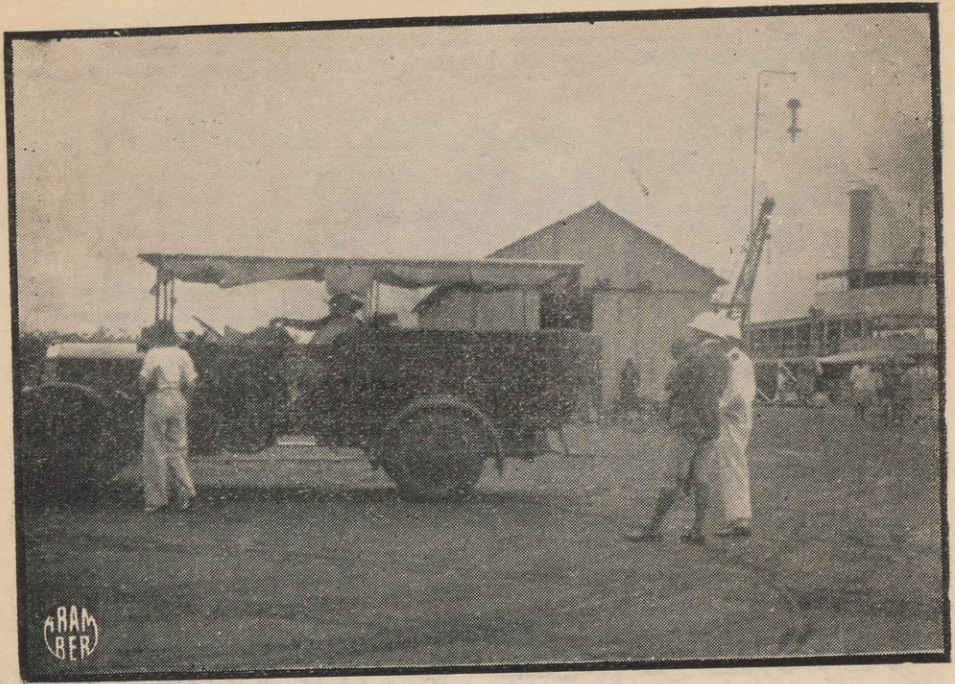
(نستقل الباخرة جرانت من ناماسجالى عبر بحيرة كيوجا)
أقيم مرسى للسفن كان يغص بالنقل والتجارة قبل اتصال جنجا بكامبالا
بسكة الحديد لكنه اليوم فتر تجاريا وخمل وكان أخص ما ينقل اليه القطن
أهم نبات أوغندا ، وتعنى به انجلترا هناك عناية خاصة فتعرض نماذجه في
محطة سكة الحديد ويزرع حول بحيرة كيوجا في الأراضى ذات التربة
السوداء وموسمه الشتاء وقد كانت تقله بواخر البحيرة الى ناماسجالى ،
ومنها بسكة الحديد الى جنجا ومن ثم فى فيكتوريا الى كيسومو ثم بسكة
الحديد الى ممباسا ، أما اليوم فتقله سكة الحديد من شرق كيوجا الى ممباسا
مباشرة (وقد بلغت المساحة المزروعة فى أوغندا ٦٠٠ ألف فدان)

وقد اتخذ الانجليز من الأراضي الممدودة متسعات للرياضة على اختلاف صنوفها شأنهم في جميع بلدانهم ، وعلى منحدرات المدينة المؤدية الى البحيرة كثيراً ما تخرج مردة التماسيح وعمالقة أفراس الماء وتشاطر الناس ذاك المستراض الجميل على أنها كثيراً ما تلتهم عاثرى الحظ من الأهلين وهم يغتسلون أو يغسلون متاعهم حتى قيل أن التماسيح يقتل من سكان أفريقية أكثر مما يقتله أى وحش آخر

وفي ناحية من المدينة شجرة قديمة كان الطاغية (موتيزا) يجلس تحتها ويأمر بالذبائح البشرية التي طالما خضبت دماؤها تلك البقعة على مشهد منه ، وهى اليوم وسط ملعب للتنس يجتمع اللاعبون حولها مرحين كأنهم يتحدثون ذاك الوحش ويتناولون الشاي تحتها

الى بحيرة كيوجا : غادرت جنجا بسحر مناظرها نهارا ووحشتها الفاتكة ليلا الى ناماسجالي ولبث القطار زهاء أربع ساعات يشق طريقه في صعود وهبوط ويسلك مطاوى عجيبة وأجواف غابات مهملة لم تطرقها يد إنسان فالأقليم موحش لم نكد نرى به من الأهلين أحدا ولم يقف القطار في كل ذلك إلا أربع وقفات بجوارها جمهرة من الأكواخ حولها مساحة من الموز والبطاطا يعيش عليها قوم هم أشد سوادا ممن رأيناهم من قبل وتربة الأراضي حمراء ناعمة يطير هباؤها فيخضب كل شىء

وناماسجالي : قرية لا تكاد تزيد حوانيتها على عشرة كلها في أيدي الهنود ولها ميناء صغيرة على بحيرة كيوجا في مكان من البحيرة اتساعه



(نرسو على پورت ماسندى لنستقل السيارات الى بحيرة البرت)
ثلاثة أضعاف اتساع النيل عندنا ، هنا حللنا باخرة صغيرة كأنها منشور
رباعى طويل يتقدمها (صندلان) متلاصقان فى حجم كبير عليهما البضائع
ومسافرو الدرجة الثالثة ودهشت لما رأيت الباخرة تدفع هذين أمامها كل
رحلتها ، قمنا نشق عباب كيوجا ذاك البحر الذى يبدو مأؤه أملس مخضرا
لا حراك به قط تحف جوانبه الحلقاء والبردي والغاب بمقادير كبيرة وأخذت
البحيرة تنبسط فتناهى شواطئها تارة ، وتضيق وتتقارب أخرى ، وكل
شواطئها منافع ضحلة ، وكان جو يومنا أميل الى الحرارة رغم ما أصابنا من
مطر على أن الليل فوق أديم البحيرة بارد جميل
وفى اليوم التالى أصبحنا والمطر وابل ومستبحرات المياه مشعبة فى كل

جانب وأعشاب البردى والبشنيين تظهر في جزائر ساجحة في حجم كبير وكثير
من تلك الكتل من خليع النبات كان يعترض سير السفينة فينتشل بالروافع
ويرمى الى الجانب والسفينة مستعدة لذلك مزودة بالروافع الثقيلة فوق
(صنادلها) وفي باكورة الصباح كانت أسراب التماسيح تترج وسط الماء
في بقع سوداء على مقربة من الضفاف وكانت المنطقة الواقعة الى يميننا تدخل
في نطاق مرض النوم ذاك الذي يعد أخطر الأمراض في أوغندا وجنوب
السودان والمناظر من حولنا أضحت سهولا لا أثر للجبال فيها وكان النيل
يختنق أحيانا الى نصف سعته في مصر وباخرتنا (Grant) كانت تترك
عند مفارق الماء زورقا بخاريا (رفاصا) ليذهب الى المين الصغيرة الواقعة على
شعب بحيرتي (كيوجا وكوانيا) وتلك الشعب تبدو على الخريطة
لكثرتها وكأنها العنكبوت ثم تعود خفاف البواخر هذه لتتلاقى باخرتنا
عند عودتها وفي وسط ذاك المتسع اللانهائي من البردى ظهر مرسى صغير هو:
ثغر ماسندي: حوله بضعة مساكن خالية من الأهليين هنا
أقلتنا سيارة المصلحة وسارت بنا ساعة ونصفا في طريق شق وسط البردى
أولا ثم وسط متسع مبسوطة يزرعها القوم وخاصة من السيدال تليها
غابات وأحراش برية لم تمسسها يد الانسان الا في فجوات صغيرة بها الموز
والتايو كما حيث كنا نبصر بكوخ أو اثنين فقط ولما قاربنا مدينة ماسندي
بدت الرابي وكنا نرى الغابات يحكي نباتها المتسلق الكروم تغطي الأرض
كلها بأعراسها والطيور فيها لا حصر لها وكان الطريق نفسه يفض بدجاج



(يستعرض زوجاته التسع راقصات - اوغندا)

غانا ودجاج الوادى البديع الذى يأكله القوم كثيراً أما الجو فكان ماطرا بارداً
أحوجنى الى ارتداء المعطف الثقيل . دخلنا مدينة ماسندى عاصمة (بانيورو)
من أقسام أوغندا فشابهت كامبالا فى مناظرها المغضنة وفيرة النبات الا انها أصغر
وحللنا النزل التابع لمصلحة سكة الحديد وهو آية فى الجمال والنساء هنا
يلبسن ملأى ملونة خفيفة تلف حول الجسد من فوق الشدين الى القدمين
ويعنن بشعرهن الذى يجدل على قصره الشديد فى فتائل رفيعة لـكل
ذؤابة لا تزيد على سنتيمترين ويسرن حفاة سفارات شأن جميع نساء أفريقية
الشرقية وغالب الرجال يلبسون الجلباب من القطن على نحو ما نراه فى مصر
وهم هنا خاضعون لحكومات قوية من زعمائهم الذين تمهرهم الحكومة
الانجليزية رواتب مقابل قبضهم على ناصية الأمور وهى لا تتدخل تدخلا
مباشراً فى شئونهم ولولا ذلك لما استطاعت الحكومة اخضاعهم أو الاطاعة



(الطريق بين ماسندى والبرت وترى شجر واتل تحته شجيرات البن)
بهم وتلك الخطة متبعة بشكل أكثر احكاماً في أوغندا منها في غيرها
وتتخذها انجلترا نموذجاً لحكم طوائف الشمال المتبريرة وتنتوى نشرها
في كينيا وهؤلاء الزعماء يعيشون عيشة بدخ افرنجية ويلبسون وزوجاتهم
أردية أوروبية ولهم برلمان في مقاطعة منجوشمال شرق كامبالا للمداولة في
شئونهم ولا تزال غالب الأعمال في يد الهنود وبخاصة المسلمين منهم على أن
جل حركة التوفير على أثر الأزمة الحالية منصبة عليهم وكبار الانجليز يعترفون
بأن توظيف الهنود كان خطأ كبيراً في السياسة منذ البداءة ويحاولون احلال
السود أو الاخلاط ممن هم غير الهنود مكانهم والتعليم تقوم به البعثات الدينية
تعاونها الحكومة . أمضينا في ماسندى يوماً وفي الغداة قمنا بالسيارة الى :



(رقصة الفتيان في أوغندا)

بيو تيابا : فوصلناها في ساعتين (٤٥ ميلا) خلال أرض مموجة
غالبا غابات عذراء تكسو أشجارها الطفيليات وتتخللها المسایل وفي الوهاد كانت
تبدو الغابات مغلقة تماما والطريق شق في تربة حمراء يزيد سمكها على مترين
وليس به من الاهلين أحد اللهم إلا جمهرة قليلة من السود كنا نجوز
أكوأخهم كل بضعة أميال ينشرون أمامها (الماهوجا) بعد تقشيرها ثم
يدقونها دقيقا في أهوان من الخشب وكان بعضهم يمزج هشيمه بفتات الذرة
الى ذلك بمض الموز والسمن والبطاطا وفي فترات متباعدة كانت تظهر
قرية صغيرة جداً وعجبت أن كان الهنود هم أصحاب الحوانيت فيها وبعد
منتصف الطريق كنا نمر بمزارع النزلاء البيض وبخاصة الانجليز في مساحات
أقاموا وسطها بيتهم الأنيق وقاموا يستأصلون النبات البرى ويزرعون البن
في شجيرات القصيرة وصفوفه المنسقة ووسقه الكثير ولكي يتقوا وهج الشمس
عنوا بالغابات وبواسق الشجر لتحمي شجيرات البن من دونها ولم كان



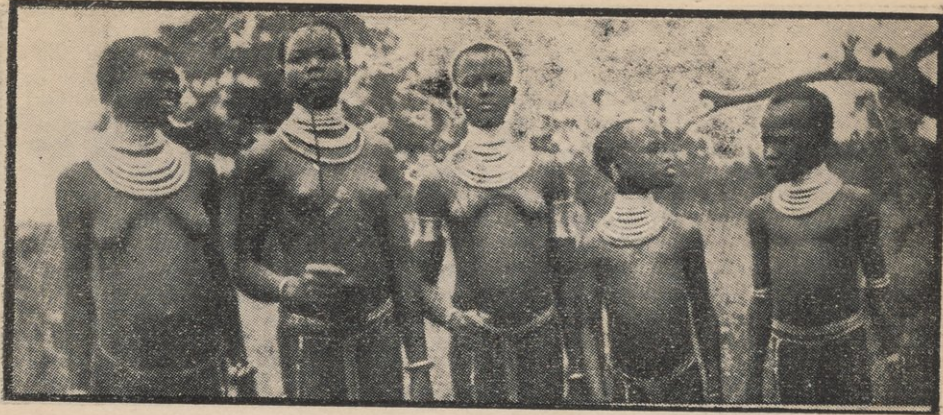
(رقصة الحرب في أوغندا)

عجبي شديداً لا أقدم هؤلاء على عمل شاق وحياة موحشة لا ترى حولهم من
مؤنس قط لكنها الرجولة والخلق الرصين يروض النفس ويستمد النشاط
والسرور من كل شيء ، وحول كل مزرعة نفر من الأهليين يقومون على
خدمة الأرض وكنا نراهم نساء ورجالا يقطعون العشب البري ثم يتركونه
مكانه حتى يجف ثم يحرق حيث هو فينتقي الأرض ويسمدها وكلهم يدخن
في غلايين خشبية طويلة حتى الفتيات. وما حللنا الثلث الأخير من الطريق حتى
أخذنا في الهبوط ثم عند الميل السادس من بيوتيا باداهمنا مشهد الاخدود الأبرقي
الرائع تتوسطه البحيرة في هوة بعدها ألفا قدم بلونها الفضي تحفها سهول مبسوطة
إلى مدى شامع تؤدي إلى تلال تغلو في نجاد وسلاسل لانهاية (وذرع
البحيرة ١٠٠ × ٢٥ ميل) منظر ساحر حقاً يكاد يقارب مشهد الاخدود
الأعظم وهذا الجزء من الطريق يعد من أجمل طرق الدنيا لتنوع مناظره
وكثافة غاباته وتعدد فصائل شجره نخس منه النخيل وشجر الصمغ الأزرق



(رقصه الفتيات فى اوغندا)

والعنب البرى المتسلق والسرخس عريض الورق الذى منه تكون الفحم
فى العصور البائدة . أما القردة والفيلة فحدث عن كثرتها . هويينا الى تلك
السهول التى اسودت تربتها بما خلفته البحيرة عليها من رواسبها ثم جزنا
مجموعة من أكواخ وحوانيت ومبان حكومية وتلك كلها مدينة بيوتيا
ولها ميناء صغيرة لا بأس بحركتها التجارية فهى حلقة اتصال بين بلاد
أوغندا الى اليمن والكنغو الى اليسار وكانت جبال الكنگو تظهر فطرة
وراءنا ونحن نرسو على بيوتيا وقيل لنا ذاك جبل (لولوجا) وهو جزء من خط
تقسم المياه بين الكنگو والبرت ، قمنا نشق عباب البرت ولبثنا نرى الشاطئين
على بعد لأننا سلكنا سبيلنا الى الجزء الشمالى من البحيرة وهو يأخذ فى
الاختناق حتى يصبح بحر الجبل المتسع عقب تقابل نيل فكتوريا بالبحيرة
مباشرة وعلى تلك الجبال تقع مدينة محاجى : من بلاد الكنگو ولها ثغرها
الصغير الذى مررنا به - والبحيرة تعلو سطح البحر بنحو ٢٠١٨ قدم على



(فتيات علية القوم في أوغندا)

انها أحط من فكتوريا بنحو ١٧٠٨ قدم ماؤها أشد زرقة وطعمه أكثر
تغيراً من ماء فكتوريا مما يدل على زيادة عمقها وأملحها ، ولبتنا نسير
صوب النيل وقد لزمنا الباخرة الجانب الأيسر للبحيرة لأنه أبعد غوراً
بسبب قربه من الجبال أما الجانب الأيمن فوطىء تمتد وراءه السهول ، أخيراً
مررنا بعدة جزائر يغطيها العشب خصوصاً البردى والبوص والبشنين الذى
طالما كننا نلاقى كتلاً منه طافية ثم دخلنا مأزقاً هو أضيق من نصف نيل مصر
وهنا أول نيل بحر الجبل وكانت السهول الممدودة الى يميننا جزءاً من
(حرم الحيوان) لذلك رأينا بين الاشجار المتفرقة جموعاً من الفيلة أكثر
الحيوان ظهوراً هنا فكان يبدو فى قطعان ولم نرها على الجانب الآخر قط
لأنه خارج عن الحرم فكانها أنست فى حرمها أمناً ، وهذه المنطقة من
أوغندا وما يليها شمالاً الى جنوب السودان وغرباً الى الكونغو خير مناطق
الفيلة فى الدنيا



(الطبيب الساحر وهو ذو نفوذ يسود أذهان الناس في اوغندا)
والفيل : لا يكاد يوجد جنوب الزمبيزي ، وقد أسرف الكثير
في قتله حتى قدر ما يقتل سنويا في الكونغو البلجيكية بستين ألفا في السنة
ويقدر عدد الفيلة في أوغندا بنحو سبعة عشر ألفا وفي تانجانيقا ٣٦ ألفا
والفيل يسير في جماعات أقلها بين ١٠ و ٤٠ وقد يبلغ القطيع مائتين والفيل



(شارع رئيسى فى بيوتيا با على البرت)

الافريقى يغاير الاسيوى فى آذانه بالغة الحجم فهو إذا بسط أذنيه ساعة
المهجوم كان طولها من أقصاها لأقصاها خمس ياردات كذلك فهو يغاير الاسيوى
فى جمجمته فمخه أوطأ فى دماغه وهناك فجوة فى رأس الفيل الهندى رخوة
تسبب موته سريعاً ، وهذه لا تكاد توجد فى الافريقى والفيل من أحد الحيوان
شما وارفعه سمعاً فهو يشتم رائحة الانسان على بعد نصف كيلو متر ولا يعادله
حيوان آخر فى ذلك ، والعادة أنه يرفع خرطوميه فى الهواء ليشتم رائحة عدوه
على أن بصره ضعيف لا يرى على بعد ٥٠ ياردة حتى ولو كان الجسم على
وضوح الأفق ، ويعمر طويلاً إذ يزيد عمره على ١٢٠ سنة ، وفى الكونغو
نوع من اقزام الفيلة لا يزيد علوه على ٤١ قدم ولا يزيد وزن نابه على



(بعض أبناء بيوتيا على البرت نيانزا)

سبعة أرتال للذكور ورطلين للاناث ، ولقد أسرف الاوربيون الاوائل
فى قتل الفيل فاخفى من مناطق كثيرة هناك ، لكن البلجيكيين اليوم
فطنوا لذكاء الفيل وهم يسخرونه فى الزراعة فالزوج من الفيلة يجز أربعة
أطنان بسرعة ١٥ ميلا فى اليوم ويحرق فداناً فى نصف اليوم ويمتاز على
سائر الحيوان فى أنه غير قابل لعدوى الامراض وأنه يتكفل بغذائه وحده
فلا يكلف صاحبه شيئاً

وفى كثير من جهات أوغندا كثرت الفيلة لدرجة مضرّة لذلك توفد
الحكومة بعثات لقتلها ومطاردتها الى المجاهل ، وحدث مرة أن طارد صياد
قطيعاً وضرب رصاصة فى فيل منه فصاح وسقط الى منحدر ولشدة الضجة



(تسير الفيلة في قطعان يتقدمها دليل)

اضطرب القطيع فأخذ الفيل الهاوى يصدم فيلا آخر فيقع حتى وجد جمع
من الفيلة أسفل الهوة وقد هشمت عظامها تهشياً ، والفيل اذا رأى عدوه
أعطى اخوانه إشارة ليستعدوا وإذا قصد المهاجمة رفع خرطومهم وآذانه وحقق
في العدو ثم عدا نحوه وهناك طير يلزمه ويحيط على ظهره اسمه (Egret)
وكثيراً ما يدل على الفيل اذا رأى الطير يحوم فوق العشب في جماعات ،
ويظهر أن الطير يتبع الذباب الذى يعف على ظهر الفيلة ويضايقها جدا
ولذلك ترى الفيل يظل يحمل العشب بنخرطومه ويلقيه على ظهره ليطرد
هذا الذباب ، والعادة أن الفيل اذا أصيب ومات بعيداً ، فانه يعد ملكاً لمن
صاده وبعد أسبوع يصبح ثلثه ملكاً لمن يعثر عليه والثلثان للحكومة



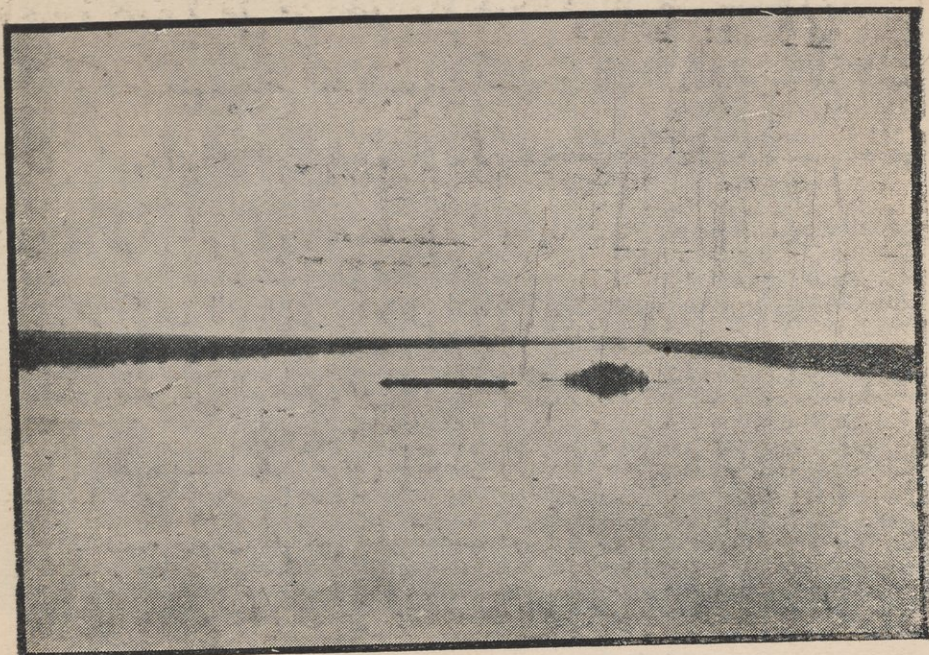
(أفراس الماء في منطقة السدود)

العاج: والفيل الذي يقطن الجهات الجافة التي يقل فيها الغذاء تكون أنيابه قاسية على أن أجود العاج ما كان لنا ، وهذا يكثر في الجهات وفيرة المياه حيث تطول الأنياب ويجود نوعها ، ويندر اليوم أن نعر على فيلة ذات أنياب كبيرة ، ونحن إذا قسمنا أفريقية من وسطها تماما بنحط رأسى كان العاج في غرب هذا الخط أشد صلابه منه في شرقه لذلك كان أجود العاج في الشرق ، وأسنان الأنثى أصغر وأخف وزنا فسن الأنثى يبدأ من ١٥ رطلا والذكر من ٤٠ رطلا ويزيد وأثقل سن عثرنا عليه يحفظ اليوم في متحف كنزنجتون بلندن وزنه ٢٢٦ ١/٢ رطل والفيل الكبير قد يصل علوه الى كتفيه ١٢ قدما وقد يزن ستة أطنان ، وأكبر الفيلة أسنانا اليوم في أوغندا

وفي أعلى النيل والكنغو البلجيكية ، وقلمنا يزيد سن الفيل في السودان والحبشة على ٤٠ رطلا ، وأكبر الفيلة أسنانا لا تسير في جماعات بل فرادى وكثير من العاج المصدر من أفريقية مأخوذ من هياكل الفيلة التي يعثر عليها القوم ميتة في الغابات وأعلى ثمن عرف لرطل العاج الجيد جنيه ونصف ومن هذا تصنع كرات (البلياردو) .

والنيل من هنا إلى منطقة السدود شمالا غاص بأفراس الماء التي كانت تنفر في الماء بكثرة مروعة والتي كانت تصادم باخرتنا صدمات عنيفة وفرس الماء غذاء محبوب للأهلين الذين يلتهمون لحمه نيئا ومجفقا ، وهو ثانی الحيوانات وزنا بعد الفيل يزن ثلاثة أطنان وسمك جلده بوصتان وهو أصلح ما يكون لصناعة السياط (الكرايبيج) ، وكان لأسنانه قيمة كبيرة يوم كانت تتخذ منها الأسنان الصناعية والانياب السفلى يصل طولها ثلاثين بوصة خصوصا إذا لم ينطبقا على الانياب العليا وأطول ناب عرف ٥٥ بوصة وصيده خطر لأنه حيوان مهاجم مهيب ويقول صيادوه ان خير مكان لقتله أن يضرب تحت العينين وخاف الأذن ويغلب أن تصوب الرصاصة إلى الأنف الذي يطفو فوق الماء وهو سريع الغوص جدا فان أصيب غاص ولا يطفو الا بعد ست ساعات من قتله .

ولعل أكثر بقاع الأرض بهذا الحيوان النيل من هنا إلى بحر الجبل شمالا ، والحيوان يظل في النهر نهارا لا يرى منه ظاهرا سوى الآذان والعيون ، وفي المساء يقصد البر ليأكل ولا يعود للماء الا فجر اليوم التالي

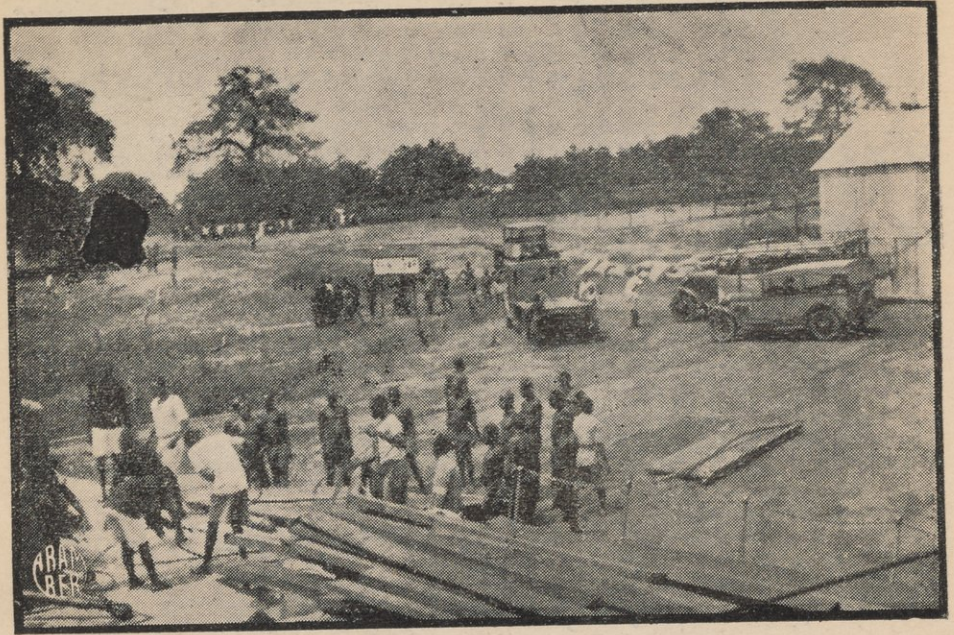


(النيل قيل نيمولى وبه الاعشاب الطافية)

وهو يصعد مناطق العشب والسدود بسهولة ويتخذ له طرقا ثابتة للخروج والعودة والاهالى (خصوصا الشلوك والنوير من سكان بحر الجبل) يصيدونه بحراهم فيكمنون له عند الغروب على جوانب تلك المسالك واذا قرب أرسلوا حراهم ذوات الاسنان الجانبية وهى تتصل بحبال طويلة فيسرع الحيوان بالعودة لكنهم يتعقبونه حتى يموت ويجرونه إلى الشاطئ ، على أن بعض الأفراس تهاجم عدوها وبفكها الخفيف قد تتناول زورقا بمن فيه وتغرقهم جميعا على أن ذاك الانسان الهمجى لا يبالى بحياته قط واذا مات الحيوان جروه الى الشاطئ وسرعان ما يقطعونه ويشعلون النيران ويأكلون شواءه وكثير منهم يلتهم اللحم نيئا والباقي يقطعونه فى شرائح تعلق على الأشجار

المجاورة بحيث لا يبقى من الحيوان الا هيكله في أقل من ساعتين .
وكثير منهم يدفع الضرائب من أسنانه ويظهر أن أفراس الماء كانت
تمضى غالب وقتها في البر نهارا وليلا لكن هجمات الانسان لها اليوم ألقاها
الى الماء طوال النهار ، وساعده في غذائه وسط النهر كثرة الاعشاب الطافية
خصوصا كرنب الماء الذى يكثر في منطقة السدود ، ويبدو كالزهر الاخضر
الكبير يطفو على السطح وهو الذى يسد النهر لذلك يظن أن طرد أفراس
الماء الى النهر يساعد على انقاص تلك الزهور فتخف كثافة السدود . وكثيرا
ما كنا نسمع صوت أفراس الماء تنبعث من أعماق الماء دون أن نرى علامة
تدل على موضع الحيوان حتى ولا فقاقيع الغاز التى تتخلل الماء ساعة تنفسه
ولحمه خشن لكن القوم قد امتدحوا الى طعمه . ويأكل بعض البيض هناك
لسانه فقط .

اختنق النيل وأضحى كالقناة بعد مغادرتنا لبحيرة البرت ورسونا على
(بكواش) من قرى الضفة اليسرى حيث انتقلنا الى باخرة أصغر تستطيع
مواصلة السير فى مجرى النيل الضحل وما كدنا نرسو عليها حتى هالني
جماهير السود الذين وفدوا ليروا البواخر ونزلها وما كن أشد دهشة حين
رأيت الكثير منهم عرايا تماما نساء ورجالا وأطفالا ، تضع المرأة حول خصرها
عقدا من خرز تتصل به ذؤابة من ورق الموز أو جدائل من سلوك الحديد أو
الخرز أو حزمة نخيلة من العشب لا تكاد تستر العورة ومن خلاف يتدلى
شريط أو (زر) من فتائل رفيع طويل يتحرك ذهابا وحيث كما تحركت هي



(مرسى رينو كامب على نيل البرت)

فى شكل يبدو على بعد وكأنه الغورلا أو القرد الكبير بذنبه المتدلى وألوانهم
جميعاً فاحمة براقة ، والناس يختلطون هكذا فى غير حياء كأنهم البهم على
فطرتهم الأولى . جن الليل وسادت الوحشة وإذا بسحائب البعوص وصغار
الهوام الطائرة تنجم حولنا حتى كادت تعشى الأبصار لكثرتها إذ كانت تحترق
كل شىء رغم أن الأبواب والنوافذ تكسوها شباك السلك لمنعها لذلك اضطررنا
أن نطفىء المصابيح كلها ، وبعد العشاء مباشرة أويت إلى مضجعى وحول
الثالثة صباحاً أيقظنى قصف للرعد مخيف وهزيم للعاصفة مرعب فقامت
مدعوراً وإذا بشدة الرياح تسكاد تلقى بالسفينة إلى البر وسينول المطر كانت
تترى فى غزارة غير مألوفة ولقد دفعت العاصفة ماء النهر إلى البحيرة فهبط

مستواه أكثر من قدم وخشى الربان ان استمر ذلك أن تدرك السفينة
الأو حال فيتعذر المسير ، وفي الثامنة صباحاً مررنا بمرسى :

موتير : في مكان مختلق من النهر تحفه من الجانبين ربوتان
صخريتان ولذلك اختار المهندسون المكان لأقامة سد البرت المنتظر على
أنى أخال الماء إذا ما علا خلفه بين سبعة أمتار وتسعة كما هو مزعم يفرق من
البلاد الجانبية لضفتي النهر وللبحيرة نفسها مساحات شاسعة كانت تبدو
وطيئة من حولنا على أن التعويضات لن تكون كبيرة لأن الأقليم مهمل
لا يكاد يطرقة إنسان

ولقد اتخذ أمين باشا موتير هذه معسكراً له وأقام حصنه بها ولا تزال
ترى أنقاضه على بعد ومنه كان يشرف على الأقليم كله من قبل خديوى
مصر لذلك أثار المكان فى نفسى ذكريات جعلت له قيمة كبيرة عندى رغم
أنك لا ترى اليوم إلا مرسى صغيراً وراءه استراحه واحدة ليس غير ، وقد
هدانى بعض القوم إلى مكان هناك تدفن فيه بعض جثث الجنود المصرية
التي كانت مع أمين باشا

وحول تلك المنطقة قوم ينتحلون اسم (النوبة) يظن أنهم من سلائل
الجنود السودانيين الذين حلوا مع أمين باشا وتوطنوا الأقليم بعده وغالبهم
مسلمون إلى اليوم وهم يعدون أنفسهم أكبر شأناً من سائر القبائل يتكبرون
ويفاخرون عليهم وتتخذ منهم حكومة أوغندا أجناداً أشداء ، وأجل
ما استرعى نظرى رداء نسائهم يتخذ من جلد المعزى وبعد صقله يقطعون



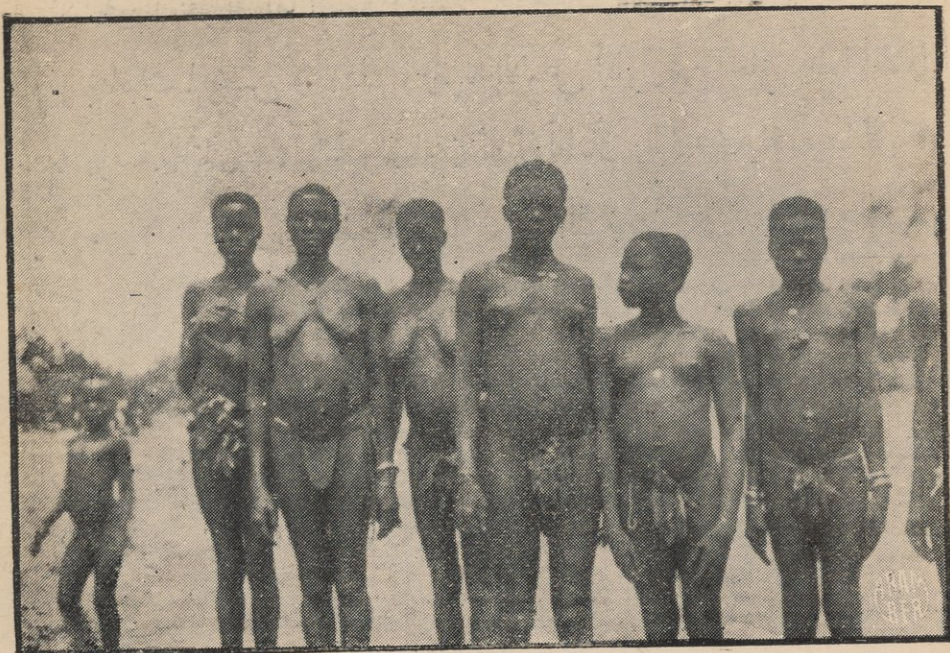
(جميلات من قبائل نوبة على نيل البرت)

الجلد خيوطا طويلة (شرابة) ويعملون منه نطاقاً ير بط حول الخصر فتتدلى
أهدابه النخيلة الطويلة وتستترهن إلى نصف الفخذين فتكسبنهن جمالا
وجاذبية خصوصاً وهى تهتز مع أعجازهن إذا ما سرن يتهادين وأجسادهن
جميلة وان أعوز الوجوه الجمال لكثرة ما يعلوها من تخطيط يميز كل قبيلة
عن الأخرى، وقد كانت هذه العلامات فى الأصل تطبع على وجوههم علامة
الرق ، والنساء هناك مجندات خصوصاً فى اتقان السلال والخوص والأصباغ
التي يتخذونها من قشور الشجر وعصاراته وهن مهرة فى القتال كالرجال تماماً
أما النيل نفسه هناك فىرى عادى الاتساع إذ يقل عن سعة نيل مصر
لكنه فى الواقع عظيم الاتساع لأن أكثر من ثلثيه يغطيه نبات الماء
خصوصاً الغاب والبردى فيبدو كأنه جزء من الشاطئ لكن كثيراً ما كنا
نرى كتلا كبيرة منه طافية يحاول الزبان تجنبها خشية أن تمسك بهدارات



(على ضفاف النيل الاعلى فى رينو كامب)

الباخرة فتحطمها ، وأكثر ما يرى ذلك العشب عند المنحنيات فى جانبها
المحذب غير المواجه للتيار على أنه لا يكاد يخلو منه مكان وجزائره المنفصلة
لا تحصى بعضها بالغ الامتداد يتشعب النيل عندها شعبتين أو ثلاثا ، أما
أفراس الماء والتامسيح وطيور الماء فلا تدخل تحت حصر ولا تزال الفيلة
ترى بكثرة فى حرمها إلى يميننا هذا إلى التياتل والقردة على الجانبين وماء النهر
أملس هادى ، عديم التيار على أن لونه عكر . وصلنا مرسى (رينو كامب)
وكان عرايا القوم يتطلعون إلى السفينة فى تراحم وكان يومنا يوم السوق
لديهم لذلك اجتمعوا تحت شجرة كبيرة قرب المرسى وكانت السلع المعروضة
بعض أنواع الحبوب كالسمسم والذرة وسعف النخيل والسمك الطازج



(على نيل البرت — رينو كامب)

والجفاف وكنت أخال رينو كامب غاصة بالخرتيت لأن معنى اسمها (معسكر الخرتيت) على أنى علمت أنها كانت محط رحال جماعة الصيادين الذين كانوا ولا يزالون يخرجون للصيد فى جماعات (سفارى بلغتهم) وأخص الحيوان هناك الخرتيت الذى أصبح نادر الوجود لدرجة أنه كاد ينقرض حتى أن الحكومة تحرم صيده اليوم بتاتا ، والخرتيت : يقطن حيث يوجد الفيل خصوصا على ضفاف النيل الأعلى وهو يلجأ اليوم إلى سكنى الشجيرات ويهجر السهول وقرنه عظيم القيمة خصوصا لدى الصينيين الذين يتخذون منه مقويات لأعضاء التناسل وتعمل منه آنية لشرب الماء والناس يعتقدون أن أى شراب مسموم اذا وضع فى كوب منه تصدع وانفلق وحاسة الشم

عند الحيوان قوية أما السمع والبصر فضعيفان حتى انك لو وقفت ساكنا
ومر بجانبك لم يحس وجودك ، وقرنه الامامى أطول من الخلفى وطول الاول
٤٣ بوصة والثانى ٢١ والحيوان يزن ثلاثة أطنان وجلده سميك جدا لا يكاد
يخترقه إلا الرصاص المصمت الثقيل ، وهناك نوع اسمه الخرتيت الابيض
أكبر جثة وأطول قرونا ولونه كلون أخيه ولا يمتاز عن العادى فى اللون بل
بالغم المربع وبتواء من العظم فوق الجمجمة يمنعه أن يرى ما يقع أمامه ان كان
الرأس أفقيا وهو أندر حيوان ثديى فى الوجود ويظن أن ما يوجد فى أوغندا
كلها لا يجاوز ١٣٠ ، والخرتيت حيوان مهاجم خطير قوى حدث
مرة أن مهرجى العبيد كانوا يسوقون الى الساحل واحدا وعشرين عبدا توثق
رقابهم الى سلسلة واحدة كما كانت العادة فهاجمهم خرتيت ضرب العبد
الاولى ومن قوة الصدمة قطعت السلسلة رءوس العبيد جميعا وفصلت
من جثتها .

غادرنا (رينو كامب) نشق طريقنا وسط النهر الضيق الذى لا يزيد
على سعة قناة فى عرضه ، وكان يساعدنا تياره الضئيل وهو هنا بين ميلين
وثلاثة فى الساعة ، وكانت تبدو الى يميننا سلسلة من جبال وطيفة ، وكان
عهدى بالنهر الاتساع العظيم والتيار الضئيل لكن الفيته على خلاف ما أعرف
على أن جوانبه يكسوها العشب الى سفوح التلال المحيطة بالوادى فلعل هذا
داخل ضمن جرى النهر وان أخفاه ذاك العشب وعلمت أن الانسان يتعذر
عليه السير فوقه لكن الفيلة تجد السير عليه سهلا لضخامة أرجلها التى



(عرايا نيل البرت يصيدون السمك بحراهم)

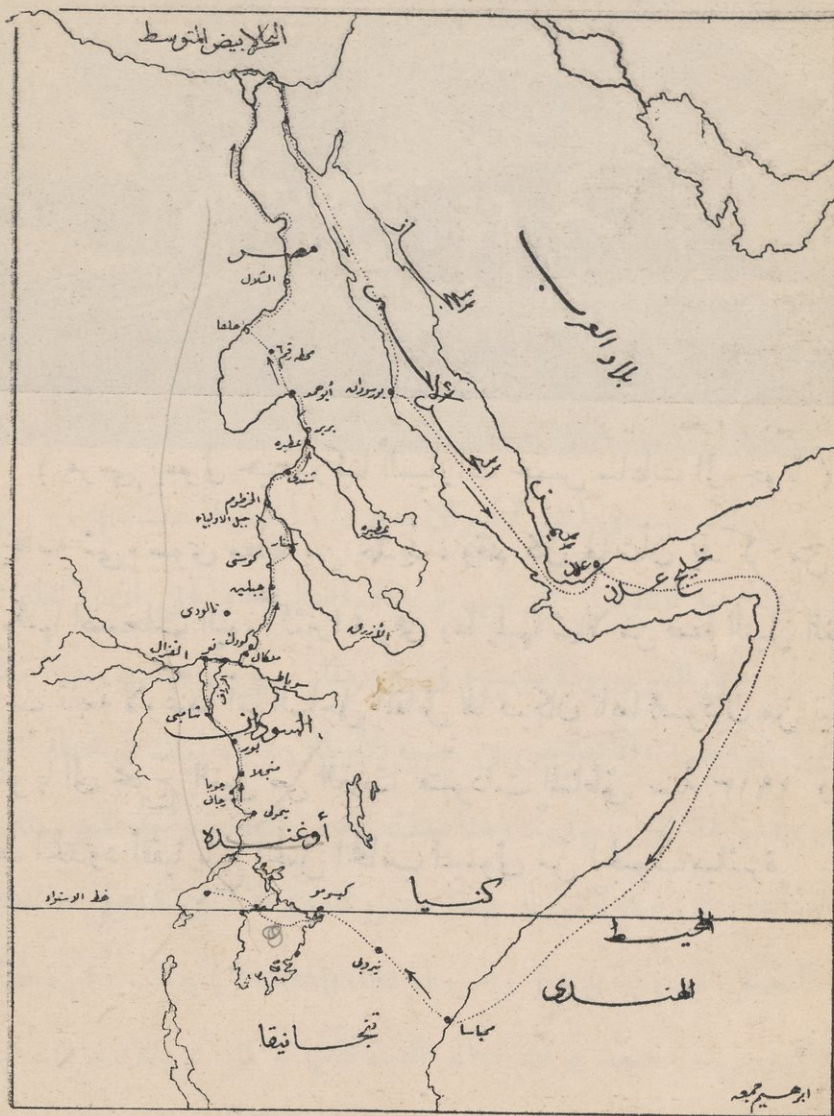
لا تغيب بين فتحاته ، وأنت اذا دانته خيل اليك أنها أرض منزرعة مع أنه نبت كثيف يطفو في تماسك شديد وجذور ملتفة ، وكان النهر أحيانا يتشعب فنرى خلف العشب مستبحرات شاسعة وطالما وقفت الباخرة وأرسلت زورقا الى ناحية من ذاك العشب لتقل بعض المسافرين من الاهلين ، وفي المحاط التي وقفنا بها كان بعض الانجليز يفدون ليتناولوا بعض الشراب والطعام من الباخرة التي لاتزورهم إلا مرة كل أسبوعين لذلك لا يصلهم البريد إلا كلما مرت بهم ، وهم يضبطون ساعاتهم على الشمس إذ لا صلة لهم بالعالم الخارجى ولهذا كنا نجد فرقا قد يزيد على نصف الساعة بين زمننا وزمنهم وكما سألناهم عن مبلغ اغتباطهم بتلك العزلة أبدوا استمتاعهم الكامل



(الخريت من أندر الحيوان وجودا وأخطرها صيدا)
وسرورهم لما هم فيه فأعود أكبر فيهم تلك المهمة العالية ، والحق أن الانجليزى
لقدير على خلق السرور والاستمتاع فى كل مقام سهل أو صعب وهنا تبدو
التضحية للواجب والاخلاص فى خدمة الأوطان ، بتنا ليلتنا فى محطة اسمها
لاروبى ومنها قمنا الى نيمولى ، وهنا بدت الجبال المعقدة وأخذ النهر يتلوى
رغم اتساعه وإلى يسارنا مررنا ببقايا حصن لامين باشا فى دوفيل Dufle
وأخذ النخيل الذى يسمونه (براس بام brasspalm) ينتشر بكثرة هائلة
بورقه المروحي ، وحيث يوجد تكثر الفيلة لأنها تأكل ثمره الاصفر الكبير
ويقال أن الفيلة هى التى تنشر النوى وهى تلقيه على طول السواحل ولذلك
يؤم صيادو الفيلة البقاع التى يكثر فيها هذا النخيل ، وقبل الظهر ظهرت
نيمولى ، واسمها أكبر منها لأننى كنت أخلها مدينة فاذا هى مرسى صغير



(مرسى نيمولى حيث ركبنا السيارات خمس ساعات الى جوبا)
لايجانبه شىء سوى مظلة من حديد ، وقد كان لها شأن يذكر من قبل
لكنها اضمحلت اليوم كثيرا ، وهى وما يليها شمالا من الضفة النيل الغربية
كانت تابعة لاوغندا أما الساحل المقابل لها فكان تابعا للسودان من نيمولى
جنوبا الى مخرج النيل من البرت فتبدلات المناطق سنة ١٩١٣ وجعل
خط الحدود أفقيا يتبع الجبل المجانب لنيمولى من الجنوب مباشرة

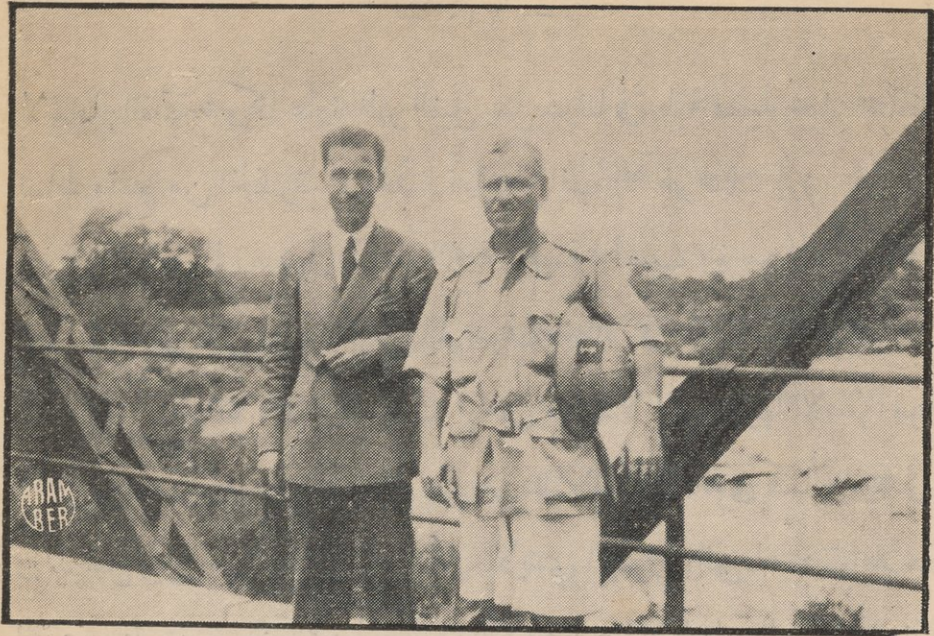


(طريقنا في وادي النيل من منبعه إلى مصبه)

السودان

قطر مترامى الأطراف يزيد على ربع مساحة أوروبا كلها أو نحو مليون ميل مربع ، أعنى أنه ثلاث مرات ونصف قدر مساحة مصر بصحاريها أو نحو مائة مرة قدر المساحة المنزرعة من أرضنا ومع ذلك لم يستغل من مساحته الهائلة إلا بضعة آلاف أميال ، وهو إلى اليوم برية فطيرة لم يفسدها الدخيل ولا يزال موطن الوحش من انسان وحيوان حتى قيل عن شعوب الشوك هناك بأنهم (أكثر هيج الدنيا وحشية) والسودان ينقسم طبيعيا إلى شطرين الشمالى ومداه ستمائة ميل أى إلى جنوب الخرطوم بمائة ميل بين عرضى ١١ ، ١٢ وهو صحراوى مجرب لأمل فى استغلاله فهو امتداد الصحراء الكبرى ، والجنوبى ويمتد بعد ذلك ألف ميل إلى الجنوب كلها سهول خصيبة ذات تربة سوداء من أرساب النيل طوال الأجيال الغابرة وهى — إذا استثنينا إقليم السدود — جديرة بانتاج الحبوب والقطن والبن اذا فاحت ، والمطاط والفلات الاستوائية من غاباتها الطبيعية وأهل هذا القسم الجنوبى أعجب متوحشى الدنيا قاطبة هم والحيوان سواء يمكن للانسان دراستهم حتى ولو جهل لغتهم كما يفعل دارس العجماوات فهم أبناء الطبيعة الفطيرة بسطاء ذوو أجسام شاحخة وعضلات مفتولة مدربون على التمرينات العضلية وأخصهم بالذكر الشوك والدنكة والنوير ، فهم

حقا المادة الآدمية الغفل الذين لم يتقدموا خطوة واحدة منذ عهد أمين باشا
واسماعيل باشا الكبير ، أولئك سكان النصف الجنوبي ، أما في السودان
الشمالي من نحو ٣٠٠ ميل جنوب الخرطوم إلى حدود مصر ، فالجنس السائد هو
العربي وهم أرقى بكثير من أهل الجنوب رسخت فيهم المدنية العربية ، ولم ترسخ
في الجنوب ويقولون انها آخذة في الزوال في تلك الأنحاء الجنوبية ، وآخر قبائل
العربان جنوبا البقارة ، ولا يكادون يفوقون جيرانهم من السلوك حضارة ،
أما قبائل العرب حول النيل الأزرق فهم من أرقى الناس أدبا وشجاعة وهم
صيادو أخطر الحيوانات بالحراب من متون خيولهم ، ويسمونهم قبائل
(هام رام) وأمثالهم أهل نهر العطبرة ، ثم نزلاء البحر الأحمر وقبائل (فوزي
ووزي) أشياع (عثمان دجنا) الذين غالبوا المدافع الحديثة أبان ثورة السودان ،
وهؤلاء يعرفون بالقسوة لدرجة هي الوحشية بعينها ، والبقارة وفدوا من الشمال
الغربي من بلاد البربر وفي سنة ١٧٧٦ ظهر السلطان هاشم الذي اتخذ
الابيض عاصمة له وبعد ذلك بعشر سنين غزا بلاده شعوب دارفور
(الكنجارا) وسادوا حتى كانت الحملة المصرية سنة ١٨٢١ ، اما عن تاريخ
بحر الغزال فلا نعرف شيئا باليقين ويظهر أن قبائل الدنكا غزوه من الشمال
ثم أعقبهم قبائل (أزاندي) من الجنوب منذ مائتي سنة ثم كانت بعثة
محمد علي باشا إلى بحيرة نوسنة ١٨٤٠ ثم أعقب ذلك بعثات من سفن تجارية
وصلت إلى مشرع الرق وابان ثورة المهدي نشط تجار الرقيق من العرب
فكانوا يسوقون إلى السواحل الشرقية ثمانين ألفا من العبيد في كل عام



(على قنطرة نهر أسوا بين نيمولى وجوبا)

من نيمولى الى جوبا : أقلتنى سيارة لشركة النقل التى تتعهد
لدى حكومة السودان بالنقل فى تلك الشقة مقابل ثمانية جنيهات عن كل
مسافر وأربعة ملايمات عن كل رطل من المتاع ، ويظهر أن للشركة الحق فى
رفع الأجور هكذا وبخاصة فى هذه الايام الكاسدة فمثلا لم يكن معى يوم
سافرت أحد فكنت أنا المسافر الوحيد الذى جاء من أجله سيارتان احدهما
صغيرة للركاب والاخرى كبيرة (لورى) لنقل المتاع مع العلم بان هذا النقل
لا يحصل الا مرة كل أسبوعين والطريق ١٢٥ ميلا قطعناه فى خمس ساعات
هنا بدأنا نسير صعدا فى طريق معبد متسع يتلوى فوق الجبال التى تكسوها

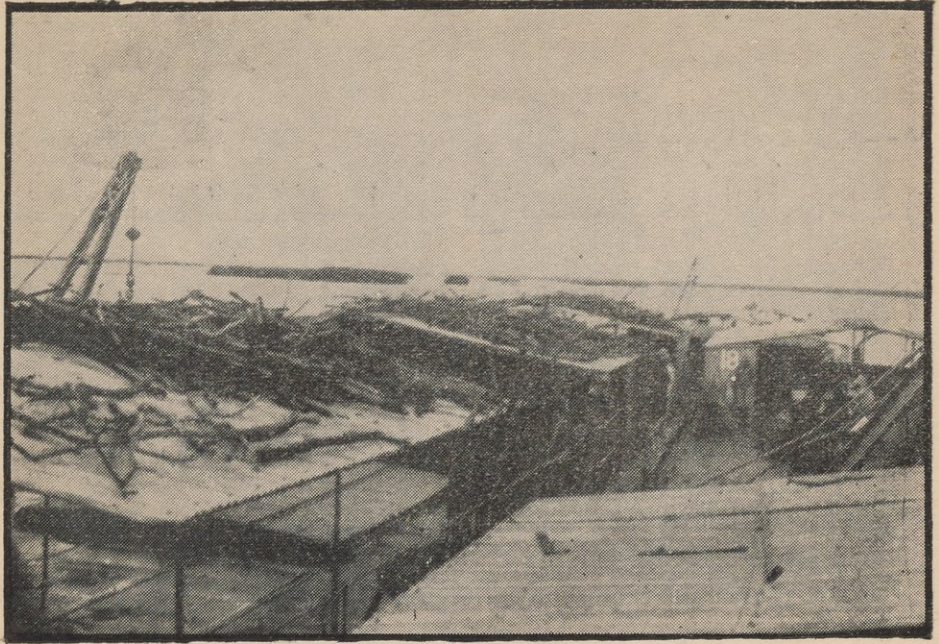
الاشجار القائمة ، وكما علونا ظهر النيل من دوننا في طية فضية نحيلة بجانبه بساط متسع من الخضرة ثم أخذنا نزل الجانب الآخر لتلك الربى فهوينا نحو ٣٥٠ مترا الى سهول سوداء التربة عظيمة الخصب بلغ من خصبها أن العشب البرى طغى على الطريق المرصوف فغطاه في غالب جهاته الى علو كان يخفى سياراتنا تماما وكل تلك أراض مهملة لا انسان فيها الا نفر من قبائل مادي وأشورى مبعثر عار حتى عن ذلك الشريط الذى كنا نراه يتدلى وراء أهل نيل البرت . هنا قلت أين الايدى المصرية التى اعتادت فلاحه الارض فتستنبت منها ذهبها خالصا وفيرا وهى هنا لا تحتاج الى كبير عناء فالرى بالمطر مكفول طوال ثمانية شهور في العام وليس بها من الحزون التى رأيناها فى أرض كينيا وأوغندا الا اليسير ، وقد كان هذا من رأى اليونانى سائق السيارة الذى أخذ يحدثنى عن الأيدى المصرية وفعالها السحرى فى الحقول - وقد أقام عندنا أمدا -

هنا لاقانى بعض اخواننا من الموظفين الاقدمين وأضافونى برهة وقصوا على طرفا مما يجرى فى السودان اليوم ومحاولة الفصل بينه وبين مصر بكافة الوسائل كابعاد الجند واقالة الموظفين وقد بدأوا نحو اللغة العربية واهمالها فى المحادثات الحكومية على أن الحالة المالية كاسدة منذ برح الجيش المصرى البلاد وكل سنة تمر تخلف عجزا ماليا كبيرا وهم السلطات منصرف الى الانفاق على القطن فى الجزيرة على أنه لا يبشر كثيرا . مررت فى الطريق على سبع قناطر تعبر نهيرات سريعة أهمها نهر (أسوا) الزاخر المضطرب كثير

المساقط وفي أخريات الطريق عادت الجبال وأخذنا نعلو ونهبط وسط ذاك
النبت الوفير حتى وصلنا حافة النيل المضطرب كثير الجنادل التي رأينا من
بينها جندل فولا وبعده دخلنا بسياراتنا سابحة تجرها باخرة صغيرة عبر النيل
الذي كان اذ ذاك طاميا بالماء الى حافته في لون قاتم وتيار جارف ووراء
الجانب الآخر دخلنا :

جوبا : وهى منشأة حديثة بها مجموعة من المباني الصغيرة ذات
السقوف المتحدرة وينزل الطريق الوحيد الرئيسى الى النيل حيث ترسو
البواخر التي تقوم مرة كل أسبوعين ، اتخذت المدينة مبدأ الانتقال الى الشمال
بدلا من الرجاف التي تقع بجوارها الى الجنوب وهى قرية قديمة وأكبر من
جوبا ، وكانت البواخر تقوم منها مخترقة فجوة بين الجنادل فأثر القوم
اجتناب أخطارها واستبدلوا بها جوبا والربوة التي تقع عليها الرجاف ترتجف
أبدا ، ويقول القوم أن هزات الأرض أخذت تتزايد في هذه الأيام فلقد
اهتزت منذ أول العام ثلاث هزات عنيفة ويخشى القوم انفجارا بركانيا محتمل
حدوثه ، أما جوبا فليس بها الا بعض محال تجارية أكبرها لطائفة من
الاغريق يبيعون فيها كل شئ بين ما كل وملبس ومشرب ولا حظت أن
الهنود قد اختفوا تماما رغم أنهم كانوا أصحاب المتاجر في كل شرق أفريقية
ويلي الاغريق من الغرباء السوريون ثم السودانيون وأقلهم المصريون على
أنى هنا بدأت أشعر باننى فى وطنى اذ بدأت اللغة العربية تحل محل السواحلية
وكثير من الأهلين على وحشيتهم يتكلمونها . حلت الباخرة التي تدفع

أمامها باخرة أصغر منها لركاب الدرجة الثانية بجانبها صندلان كبيران يوثقان فيها ويحملان ركاب الدرجة الثالثة وبعض البضائع وخشب الوقود وفي الثامنة من صباح الأحد ٤ سبتمبر أقلعنا نشق النيل الطامى العكر وأخذ يتلوى ليات وعرة تحف ضفافه أراض وطيئة يكسوها عشب برى كالحلفاوى أرض خصيبة تعوزها الخبرة والأيدي العاملة ، وفي التاسعة مررنا بمكان غندكرو الى اليمن فلم نر ما يدل على وجود مدينة قط بل عدة أكواخ من خلفها بعض التلال ، وهنا كانت بقايا محطة السير صمويل بيكر واضحة وكانت محطة عسكرية هامة للجنود المصرية منذ عهد امين باشا ، أما الجو فكان دفتا جميلا ، وما حل الظهر حتى كنا نرسو على منجلا فظهرت بها بعض المباني التى أقامها الجيش المصرى من الآجر الاحمر وفريق من الأهلىن افترشوا الارض بمبيعاتهم من قصب السكر والفاكهة خصوصا الموز والجوافة والبوپوز والقشدة التى كنا نشترى الواحدة منها بلملم وغالب البائعين من قبائل البارى أشداء الجسوم طوالها فكثير منهم يصل سبع أقدام ويزيد وقد وقفت بجانب أحدهم فكنت قزما ، وأعجب ما فيهم رجالهم الذين يسيرون عرايا وكأنت عدم ستر العورة أمر فطرى طبيعى وبعضهم يضع سوارا أو اثنين حول الساعد وعند الرسغ وبعض الخواتم والاقراط ، وأخصاصهم دقيقة البناء نظيفة لكنهم لا يزالون على الفطرة وكثيرا ما يضع الرجل عقدا من خرز أزرق أو أحمر حول خصره العارى والمدينة كانت مقر المديرية لكنها هجرت الآن واتخذت جوبا مكانها فأصبحت قرية



(تدفع باخرتنا امامها كل تلك السابحات زودت بالروافع لا تتشال
أعشاب السدود)

لا شأن لها وكنا نراهم يهدمون المباني المصرية شأنهم في جميع البلدان التي
تبدو متمصرة عن غيرها محاولين أن ينسى الناس بعد حين كل ما هو مصرى
بعد ساعتين مررنا بمرسى (سمسم) الصغير الذى تزود السفينة فيه
بالأخشاب وكانت مكدسة على الضفاف بمقادير كبيرة وأخذ النيل يتلوى
ليات متعاقبة كانت تبدو فيها وظيفة الجرف فى الضفة المواجهة للتيار فكان
يرى الطين فيها مشرفا زهاء ثلاثة أمتار ، أما الجانب المقابل له فتكدت تسده
الايواح والرواسب وكانت السفينة كما دارت دورة اندفعت الى العشب رغما
عنها فأوغلت فيه بقعقة مخيفة ثم تتخذ سبيلها بعد فى ماء النهر الطامى

ولا أدري ماذا تفعل أبان انخفاض الماء بين نوفمبر وابريل ، وبعد أكثر من ساعة وصلنا :

ترككاكا : إحدى بلاد قبائل الباري باخصاصهم الجميلة وبعدها اختنق النيل وزادت لغائفه وأعشابه التي تسده حتى خيل الى أنى دخلت في صميم منطقة السدود مع أننا لا نزال في مبدأها وقد الفت نظرنا في ذلك العشب أربعة فيلة يعرفهم القوم وتحميمهم الحكومة مع أنها تصرح لمن يطلب أن يصيد فيلا واحدا ، ولما كانت الرخصة تكلف الصياد عشرين جنيها وثمان قنطار العاج هبط الآن الى عشرين جنيها رغب الكثير عن الصيد الا خاصة الهواة .

هنا جرنى الحديث مع بعض المسافرين من السودانين والاجانب وبعضهم من القائمين بشؤون التعليم عن نظامه فعلمت أن هناك من المدارس الابتدائية حوالى العشر في عواصم المديريات الشمالية اذا أمها الطالب انتقل الى كلية غوردون في الخرطوم وهى تنقسم الى فروع عدة ، الغرض الأساسى منها تخريج طائفة من الموظفين وفروع تلك الكلية هى في عرفهم الاقسام العالية يتمها الطالب فى أربع سنين والدراسة هناك سطحية وتقوم على التحفيظ وغالبها باللغة الانجليزية . وعلمت من الكثير من الطلبة أن التدريس قد انحط مستواه منذ برح الكلية جماعة المصريين من الاساتذة وبعضهم كان من المحضرمين الذين حضروا العهدين ، أما فى جنوب السودان حيث نحن الآن فالتعليم فى أيدي المبشرين ، والبعثات الدينية التبشيرية هنا تشجع كل التشجيع ، فمثلا تخفض لهم نفقات الانتقال الى الربع ، وتقدم لهم



(نرسو على منجلا وترى بعض المباني المصرية تهدم)

الاستراحات يشغلونها أنى شاءوا ، وكان معى منهم فى الباخرة ثلاثة وكان بعضهم من الطليان ، وكانت الباخرة تتقف خصيصا فى مكان صغير ليس من مراسيها لنزول واحد منهم وتلك خطوة شبيهة بما رأيته فى أوغندا حيث التعليم كله فى أيدي المبشرين وليس للحكومة به علاقة إلا المعاونات المالية أما الدعاية للإسلام فتعاكس كل المعاكسة فاذا فكر أحدهم فى جمع أعانات لإقامة مسجد صغير منع من ذلك ، وقد بلغت الحال أن بعض المسلمين لا يشجعون على أداء شعائر دينهم هناك علانية ، وليس ذلك تعصبا دينيا بل هى فكرة متممة لفصل السودان الجنوبي عن الشمالى ليشبه أوغندا ، يؤيد ذلك ما قرأته فى الكتب الانجليزية عن السودان تلك التى

محاوّل التفريق بين السودانين ببراہین واهية ، الى ذلك أن أهالى الشمال والجنوب يمنعون من السفر من طرف لا آخر إلا بترخيص رسمى مع أنهم سودانيون من أبناء البلاد ، وكان يسافر البعض خلسة وكثيراً ما عوقبوا على ذلك وأعيدوا من حيث أتوا

ولشد ما كان عجبى لأسلافنا الذين لم يحاولوا تمصير هذه البلاد وتحويل أهلها المہج البسطاء الى الدين الاسلامى الذى لو كثر معتنقوه لما أمكن محاولة الفصل بين الشمال والجنوب وتلك هى الفكرة السائدة فى نشر الدعوة فى كل شرق أفريقية والسودان الجنوبى وما حركة نقل الموظفين الذين ينتمون الى السودان الشمالى فى اللغة والدين من الجنوب الى الشمال أو الاستغناء عنهم هم والمصريون إلا أثر من آثار خطة الفصل بين السودانين ويشاع أن السودان الجنوبى من نصف الجزيرة سيضم الى شرق أفريقية ويميل الساسة الى اطلاق اسم اتحاد شرق أفريقية على هذا الجزء مضافا الى أوغندا وكنيا وتجانيقا وستكون حكومته شبيهة بحكومة اتحاد جنوب أفريقية .

بور : فى اثنتى عشرة ساعة وصلنا بور على الضفة اليمنى من النهر وهى مدينة كبيرة بيوتها أخصاص دقيقة الصنع منسقة يفصل كل مجموعة منها سور من الغاب والطرق كلها تحد بسورين من جدائل البوص وبها بعض المحال التجارية فى أخصاص فسيحة ومربعة وليست مستديرة كالمساكن ولها شرفات (برندات) على عمد من خشب من جهاتها الاربع ومقر المركز الحكومى على المرسى مباشرة وهنا كان يقوم العلمان المصرى الى جانب



(فى أعلى النيل يصيدون الفيل بالحرا ب)

الانجليزى والمأمور سودانى قوى الجسم ، وقد كان المأمير من المصريين الذين استعيز عن بعضهم بالوطنيين السودانيين ، والغالب أن يحل مفتش انجليزى فى المراكز الشمالية محل المأمور وقد كان لمركز بور مأمور ووكيل لكبره ، والمكان وطىء تحفه المناقع وأعشاب النهر التى لا آخر لها لذلك يعرف بكثرة البعوض كثرة مروعة ، وغالب الاعشاب من حشيش النمر والغاب وأم الصوف كسائر المناطق السابقة ، ولقد بدأنا ندخل بلاد شعوب الدقة بدل أمم البارى ، قمنا نتخبط فى جوانب العشب التى كانت تغلوه باخرتنا ثم نحاول التخلص منه بمشقة كبرى وكم صدمنا من تماسيح وأفراس الماء ، وقد مرت بنا باخرة صغيرة عليها العلم المصرى وبها فريق من المهندسين المصريين الذين يقومون بأبحاثهم فى تلك المناطق الغامضة ومركزهم الرئيسى

المالـكال ، وقد خبرنى بعضهم أن تصرف النيل هنا كبير إذ يبلغ ٩٠٠ متر فى الثانية لكن المسارب الكثيرة هى التى تبدده ، رأينا منها مسرباً اسمه (فيفنو) بدا كالنهر الصغير لكن البحث أثبت أنه يسحب وحده نصف ماء النيل ويبدده فى إقليم السدود

ومن المشروعات التى يبحثونها تعقب ذاك المسرب الذى يجرى إلى جهة هى أجف من منطقة السدود الصميمة إلى شرقها ويقارب منبع الزراف ثم يعود فيلتوى عائداً إلى ملاقة بحر الجبل بعد أن يكون قد بدد ثلاثة أرباع مائه وهم يبحثون فى وصله بالزراف الذى هو أقل خطراً على الماء من الجبل إذ أن تصرف بحر الجبل حول ألف م^٣ فى الثانية والآن لا يصل منها بحيرة نوسوى مائتين والباقى يضيع بالتبخير وفى الحق أن المنطقة لمن المضلات التى تحار فى حلها كبار العقول لذلك لبثت مصلحة الرى دائبة على بحثها منذ ١٩٠٧ إلى اليوم ولما توفى بعد إلى طريقة لا تقاذ الماء لا ولا جزء مما تبدده تلك النقائع التى لا يبدو لها من نهاية وبواخر الرى المصرى كل يوم تدون الأرصاد الجوية والتصرفات وتقيس المسامح المحيطة بالأقليم دون جدوى لبثنا اليوم كله نمخر عباب ذاك العشب اللانهاى وكل آونة تطلع علينا مجاميع صغيرة من أخصاص أقيمت فوق العشب مطلة على النهر فى مسافات متباعدة الواحدة تلو الأخرى وكان أهلها العرايا يسرعون بالظهور لتحيتنا من بعد .

وظلت تتلقفنا مطاويه فندخل صميم العشب بسفنتنا ونحاول التخلص



(في غابة شامي وسط بعض العرايا والنقائع)

منه بقوة البخار ومجهود الرجال الذين يقفزون في اليم والعشب وهو يغص بالتماسيح والأفراس وطالما اغتالت منهم عاثرى الحظ ، وكان ربان السفينة الزنجي يقذف بنا عمداً إلى الضفة كي يكسر شرة التيار . وفي الصباح كان الجو غائماً مطيراً كما كان بالأمس وقد لاحظت أن العشب أضحي كله من البردى الذي أمتد إلى الأفق حتى خيل إلى أن الله قد خص تلك المنطقة فجمع فيها عشب الدنيا كله إلى ذلك فان تيار النهر بدا فاتراً ذلك لأننا نقارب منطقة السدود الصميمة وفي التاسعة من صباح اليوم التالي رسونا على :

غابة شامي : وهي قطعة من أرض وطيئة وسط المستبحرات

الشاسعة وإلى جانبها يمد النيل بحيرة آسنة فسيحة وقد علا فيض النيل هذا العام فكانت البيوت سابحة في تقاعه وهي مجموعة من أكواخ أنيقة غالبها مستدير وبها محلان تجاريان في ملكية بعض العربان من سودان الشمال كما هي حال غالب المتاجر في الجنوب وعلى البحيرة مباشرة تقوم المستشفى ودار الحكومة (وهي نقطة للبوليس) والاستراحة وأخص ما استرعى أنظارنا أهل البلاد من الدنكا حالي السواد في وجوه جمالها فائق الحد رجالا ونساء وغالبهم ينقشون جباههم بالتجريح البارز في خطوط أفقية أو رأسية وكان بينهم كثير من أبناء النيام نيام لأن هناك طريقا يمتد من شامبي إلى بلادهم في بحر الغزال ، هنا استوقفنا جمع من الصبية يرقصون على نغم آلة موسيقية كالطنبور وهم يحركون أرجلهم حركات منظمة ومعقدة كأنها رقصة (شارلستون) وهم لا يملون الرقص مهما طال بهم الوقت

الدنقة أو الدنكا : بعد أن كان يطلق عليهم اسم زولو أعلى النيل بسبب قوتهم وبأسهم تفرقوا من أثر الحروب الداخلية وغارات تجار الرقيق عليهم وقد امتدت بلادهم من شمال بحيرة نو إلى جنوب السدود حول شامبي إلى شرق النيل الأبيض من كودك والرناك وتلك المنازعات الداخلية هي التي حدت بهم إلى ذاك التفرق والسكنى في قرى صغيرة قد لا يزيد عدد الواحدة على أفراد عائلته واحدة وتاريخهم غامض لكنهم أعاروا على العرب في أخريات عهدهم وقبيل دخول الأتراك في السودان وتقدموا شمالا على الضفة الشرقية للنيل الأبيض (كما فعل السلوك على الضفة اليسرى) لأن



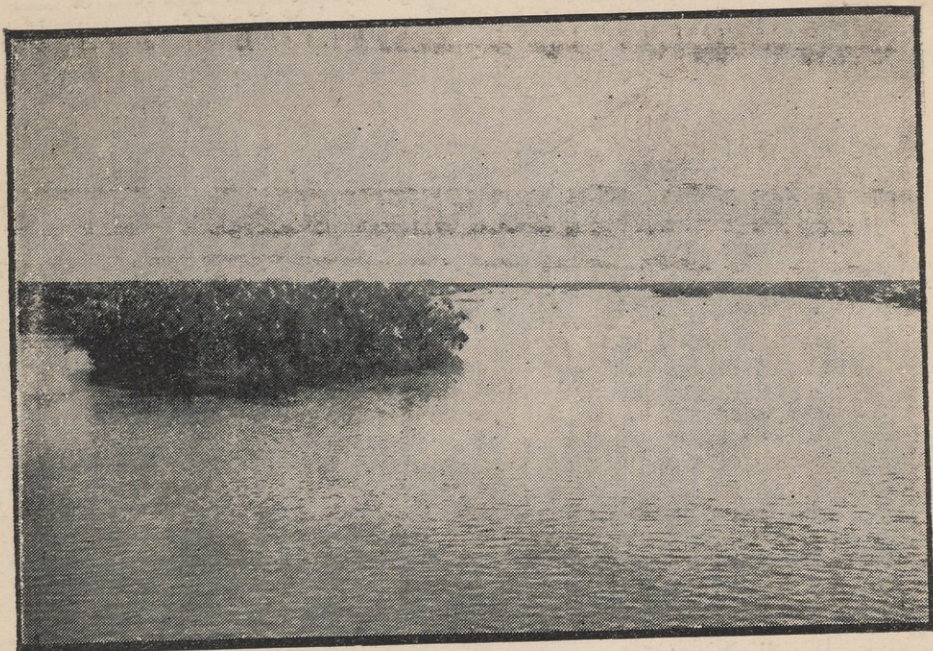
(زينة الرجال عند الدنكا)

مناطق السدود قد ضاقت بهم لضيق المساحة اليابسة فيها ويظهر أن هذا هو السبب الذي حدا بكل القبائل المتوحشة أمثالهم في أعالي النيل أن يطغروا على العرب شمالا في آخريات القرن الثامن عشر ولولا ظهور أساحة الجنس الأبيض الحديثة في الشمال لا اكتسحوا جميع السودان ونعرف باليقين أن الدنكا عبروا السو باط وغزوا بلاد الفنج سنة ١٧٧٥ وتقدموا تحت قائدهم (أكواي تشا كاب) فوق ٣٠٠ ميل شمالا إلى جزيرة آبا التي هب منها الدراويش يكتسحون الشمال لكنهم ردوا الى جنوب الرنك وقد قاسوا من تجار الرقيق مرارة فقد كان يساق منهم في العام عشرون ألفا بين نساء ورجال وأطفال

والدنكا شعب رعاية قطعانهم هي كل شيء لديهم لهم زرائبهم التي

يقر فيها الرجال صباح مساء يراقبون القطعان وهم يغنون أغاني البقر المقدس
وينامون على فرش من روث هذا الحيوان وأكواخهم شبيهة بأكواخ الشلوك
إلا أنها قدرة وغير منظمة وهم يسرون عرايا إلا إذا زاروا منطقة أخرى حين
يحملون خرقة مهففة والمتزوجات يلبسن جلدتين لمعزى واحد من أمام
والآخر من خلف وهذين يقدمهما لهما الزوج عند الزفاف ، أما التزين
بالخرز والودع فلجميع نساء ورجالا وكبر العقود للرجال دليل على جاههم
و ثروتهم وشبانهم يكثر من لبس الخرز فوق رؤوسهم بعد حلق شعورها
إلا الناصية التي يكور شعرها في أشكال مختلفة وهم كالشلوك يدهنون الشعر
بمخلوط من بول البقر والروث ومسحوق الثرى الأحمر ويزيدون قدارة عن
الشلوك في دهن الجسد كله بهذا المخلوط الذي يصعد من الروائح الكريهة
ما تعافه النفوس خصوصا عقب استعماله مباشرة .

والرقص لديهم أقل جلالا وأبهة من رقص الشلوك وعلامة الحداد
عندهم أن يلبس الرجال والنساء حزاما رفيعا من حبل من مجدول العشب
حول الخصر وأسلحتهم الحراب القصيرة والصواالج والتروس وغالبها من جلود
خشنة ، وأعجب عاداتهم ما اختص بالزواج والميلاد والموت ، فقبل ميلاد
الطفل تحجز الحامل وحدها في كوخ ويحوطها من الخارج حبل يدل على
وجوب عزلتها وكل من تخطى ذاك الحبل السحري يصبح مسئولا عما يصيب
المرأة والطفل من مرض أو أذى ، وثروة الرجل تقاس بقطعانه وعدد بناته
اللاتي بلغن الحلم ويغلب أن يكون ذلك في سن الخامسة عشرة لأنهن

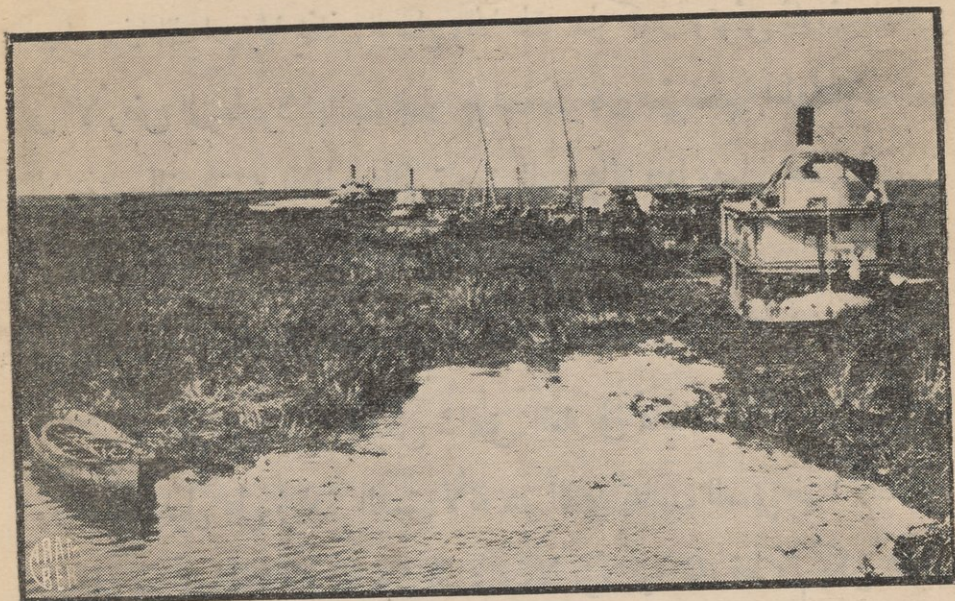


(منطقة السدود قبيل بحيرة نو وترى سدا طافيا)

يمهرن عند الزواج بين ثلاثين بقرة وأربعين على حسب جمالها ولما كانت المرأة عرضة للبيع فهي لا ترت وهم يخالفون الشلوك في مراسيم الزواج إذ بعد أن يدفع الزوج جزءا من المهر يخول له الاختلاط مع الفتاة ولا يدفع الباقي الا بعد ميلاد أول طفل حين يحل دفع باقى المهر ، والرجل أن يطلق زوجته العقيم فاذا ثبت صدق قوله رد له أبوها ما دفع وللفتاة أن تزوج من غيره فان طلقها للسبب عينه وتزوجها ثالث فلا مهر لها فان حملت وولدت في هذه المرة كان الأطفال لها لا للأب ولها حق بيعهم وفي قوانينهم أن الزوج المسن الذى يعجز عن اتيان النساء له حق فى أن يزوج ابنه من زوجته فان لم يفعل طلبت هى الطلاق والرجل لا يرغب فى الطلاق مخافة أن يضيع

عليه ما دفع مهرا من الأبقار ، وعلى ذلك فالبقر لديهم أهم من النساء لأنه
معيار التبادل وهم يقدسونه فيظل الرجال في حراسة الزرابي وهم يغنون للبقر
أو يرقصون أمامه لكيلا تمرض الأبقار أو يقل نسلها وينام الرجال مع البقر
ليلا وتشكل قرونها وهي صغيرة حتى تأخذ رونقا جذابا وهو يستخدم رؤسها
وبولها في زينته وقد ألف رأتحتها التي أصبحت محبوبة لديه ، والغنى يملك
من البقر بين خمسمائة وألف ، وأخص غذائهم لبن البقر يمزج به نوع من
القول يسمى (كوردالا) والذرة تؤكل مع لحوم الغزلان والسمك ولتسهيل
ازدراء ذلك الطعام اللزج تقتلع الأسنان الأربعة السفلى منذ الصغر بواسطة
احدى الحراب التي يصيدون بها السمك ومن أحب الأطعمة لديهم دم
الماشية فيربطون الثور ويضربون وريدا منه بحربة فيسيل الدم الى أناء ثم
يضمّد الجرح بالروث والثرى ويقيم الرجل الاناء الى فيه مرتشفا الدم في لذة
غريبة ثم يناوله لجاره وكثيراً ما ترى على جباههم خطوطاً من التجريح
بارزة في أنظمة مختلفة وهذه تميز قبائلهم المختلفة .

ورغم وحشيتهم هذه فهم على دراية ببعض الفنون يجيدون الضفر
والجدل وصنع الطبول والخزف والسلال والأسلحة كذلك الصيدلة والجراحة
وطب الأسنان والتدليك وطب الحيوان فالعقاقير التي يستعملها طبيبهم
تؤخذ من الجذور والاعشاب ولها في الشفاء أثر كبير ويدفع القوم ثمن الدواء
بقرا والتدليك علاج عام نافع خصوصا في المغص المعوي الذي ينتشر بينهم
وكثيرا ما يستخدمون الحجامة ، وعادة اقتلاع الاسنان الامامية يعالها البعض



(كيف تجنح السفن في أعشاب السدود الكشيفة)

بأنها تسهل لهم النطق بلغتهم التي تحكى الهمس لأنها فقيرة باللفظ وقيل ليستطيعوا
الأكل اذا أصابهم مرض تصلب الفكين الذي يتعرض له كافة المتوحشين
ومما يتعرض له صغارهم من القسوة تجريح جباههم ليحملوا شعار قبيلتهم الى ذلك
دفعهم وهم في مستقبل العمر الى الوحوش والأفاعى كي ينالوا شرف قتلها فرادى
وهم يتخذون شعارا من الحيوان فالأفعى البصاقة دليل المطر ، فاذا نزل بعد
الجدب أقاموا لها حفلة كبيرة عند بيت الساحر الأعظم فيشعلون النيران في
وسط الدائرة التي يحوطها القوم وهم يرقصون ثم يتقدم زعيم السحر ويده
أفعى فينسحب الجميع ما خلا رجلا عاريا يمد ذراعه فيطوى الساحر الأفعى

حول هذا الذراع ولا يخاف الرجل والا لحقه عار كبير وتوثق ثلاث أفاعى
فى الأرض الى عامود بجانب النار لحراسة المكان حتى تنتهى الحفلة وعجيب
الا يخشى القوم تلك الافاعى التى تبصق السم دائما فاذا وصل جسم الانسان
آلمه ألما شديدا واذا لحق العيون أعماها .

فى صميم منطقة السدود

ساد البردى خشن الملمس شاهق العلو فى تماسك بالأرض شديد ،
ووجوده دليل على زيادة العمق لأنه هو الذى يغالب العمق فيمد جذوره
طويلا حتى تمسك شعابه باحوال القاع ، ولا يؤثر فيه الماء قط ولم يكن مجرى
النيل خلاله الا قناة مخنقة فى ليات متعاقبة تكاد تكون طياتها متوازية
تماما ، وما فتئت باخرتنا تعاني صدماتها بارتجاج يهز القلوب كلما تلقفتها لية عن
سابقتهما ، وهنا كمن نمر بمحاط وسط النقائع يغطيها العشب ولم تكن الا ثلاثة
أكواخ أو أربعة يخرج منها جمهرة من العرايا يخوضون الماء وهم يطالون علينا
وهذه متاجر صغيرة يفد اليها المميج من أقاصى اقليم السدود يتتاعون متاعهم
الضئيل ، وقد باغتنا سحب من الجراد الذى كان يحط على ذاك العشب
ويأكله رغم خشونته والجراد هناك من أخطر الآفات ولو أن الاهالى
يأكلونه بكثرة ، وكان يتعقب تلك السحابات أسراب من طير الماء
الأبيض ليلتهم منه ما استطاع ، وبحر الجبل هنا هادىء الماء راتقة سطحه
أملس لا تعلوه موجة قط اللهم الا كلما نفر تمساح كسول أو فرس مروع فقد
برا كالزيت لونا وشكلا وأخذت جزائر العشب الطافية تعترضنا بين فترة

وأخرى أو ترتطم بالضفاف في سدود لانهائية ، وفي الحق فالمنطقة بأعشابها
وسدودها ومناقعها ليحار فيها اللب ولا يعرف مداها الا علام الغيوب وعجيب
أن كان البردى يكسوه كثير من النبات الطفيلي المتسلق عليه وكم أمسكت
مع جمهرة من صحبي في السفينة بأعواده محاولين اقتلاعها فكانت تجتذ بنا
اليها في متانة لا يصدقها العقل وهنا كان يكثر في الماء نبات يطفو وهو يشبه
(الكرنب) الصغير أو الزهرة الخضراء الكبيرة اذا انتشلتها كانت أعراشها
وجذيراتها ملبدة كثيفة تبلغ أضعاف حجم الزهرة نفسها ، وقد لاحظ بعض
من أقاموا حول منطقة السدود طويلا خصوصا عند بحيرة نو أن كرنب الماء
هذا الذي يسير واحدة فواحدة كأنها الطباق الصغير وفي المكان الهادئ
يتجمع ويدور في هدوء وحيث يقل العمق تمسك جذوره بالطين وبعد
ساعة واحدة يصبح حجم الجزيرة الصغيرة التي تألفت من ذاك الكرنب
كالمائدة الكبيرة ، وفي الصباح كانت الجزيرة في حجم الكوخ
الكبير وبعد يوم آخر ضوعف حجمها ست مرات ولما فحست جذوره
كانت متماسكة بشدة في أوحال القاع ، فاذا كان هذا فعلها في يومين
فصور لنفسك ماتم هناك في الأجيال السحيقة الغابرة فلا عجب أن ترى
في منطقة السدود جزءا من النيل طوله ٤٠٠ ميلا يركد ماؤه ويتجمع حول
كتل (الكرنب) هذه نبات الماء الآخر كأمر الصوف أو حشيش النمر
والبردى وبعضها يفوق خمسة أمتار في العلو وضعف ذلك في جذوره
هكذا تكونت منطقة السدود التي تسد مجرى النيل في وسطه في مساحة

قدرت بنحو خمسة وثلاثين ألف ميل مربع أى نحو أربعة أمثال الأراضى المنزرعة
من القطر المصرى ، ولا تلبث أن تنفصل كتل من ذاك العشب المتماص
ولشدة ضغط الواحدة على الأخرى تراها تعلو بعضها البعض ، ومثل هاتيك
تحشأها السفن فان لامست إحداها فقد يتعذر عليها الخلاص وان حضرت
السفينة بين كتلتين يضغطانها حتى تتهشم الباخرة تماماً وقد حدث ذلك
مراراً وتلك الكتل تلتئم تارة فتسد الآفاق ولا تلبث أن تنفصل بقوة
الضغط عليها فتندفع إلى غيرها وهكذا . هنا يقف ماء النيل ويتخللها فيبدد
نصفه على الأقل بالبخر والمسارب الجانبية مما أعاق التقدم الزراعى بين كثير
من شعوب تلك الجهات على أن بعض هذا الماء المبدد فى المسارب يرد إلى
النهر إبان الغيض

منطقة لا ينساها من يخرقها إذ يظل يذكرونها الموحدة الممل المقبض
طوال حياته هنا يلبث العابر يشق الأقليم يوماً بعد يوم فى طريق مختنق شقه الماء
وسط العشب ولا يزال يعانى الانسان كثيراً فى المحافظة عليه خشية أن تسده
تلك الطافيات وكما طوح ببصره لم يلق غير العشب ويزيدها كآبة أنهماموات
لا يكاد يرى بها من الحياة الحيوانية شئ اللهم إلا فى بعض الفيلة وأفراس
الماء والتماسيح ونوع من الغزال خاص بها هو (ستوتونجا situtunga)
أعدت حوافره لتلائم المناقع فهى حوافر طويلة مرنة أقرب إلى الطير المائى
وفى أسفلها نتوءات مرنة كالمطاط بدل الشعر الذى نراه أسفل حوافر الغزلان
عادة وذلك لتسهيل السير فى الأوحال والأعشاب

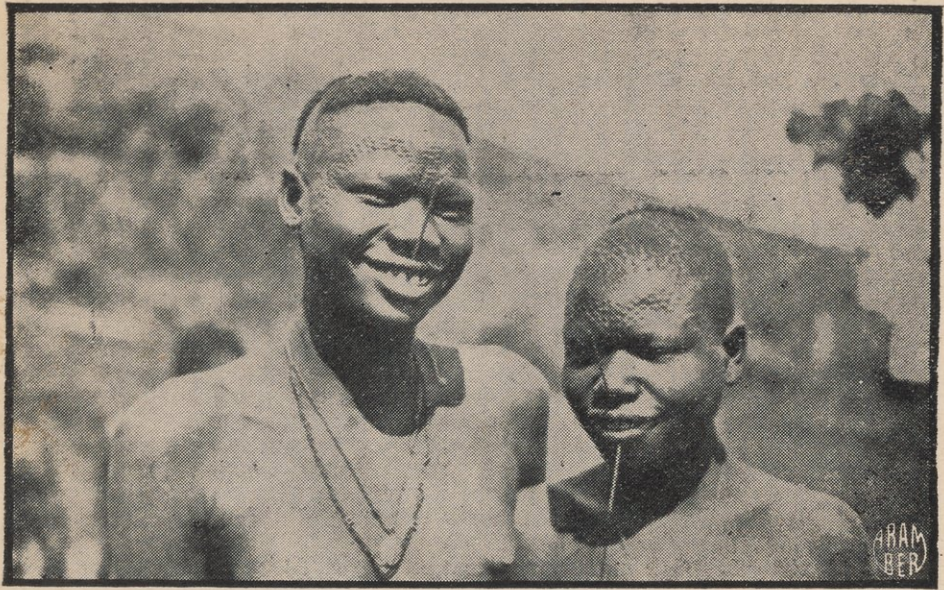
وسجائب البعوض وبخاصة إذا جن الليل لا يمكن مغالبتها ،
بعوض كبير الحجم كان ينفذ إلى صميم شبا كنا من سلك وقاش فلا
نشعر إلا والالتهاب الممض قد أخذ من سوقنا وأذرعنا رغم ثقل الثياب
وخير ما كنا نتقيه به التعجيل بالنوم بعد تطهير الفراش ولذلك لم نعجب
إذ كانت المنطقة مهددة بالمalaria والحمل السوداء التي يقيمها القوم بتناول
الكينين كل يوم ورغم ذلك قلما ينجو منها أحد . إلى ذلك نوع من ذباب
تسى تسمى الذى ينشر :

مرض النوم : وتلك الذبابة تمرض به وهى أكبر حجما من ذبابة
مصر واجنحتها مخططة كورق الشجروتراها إذا حطت يتقاطع جناحاها كالمقص
وهذه تكثر فى الاخوار كثيرة المياه التي يظلمها الشجر ويملؤها العشب
لذلك يجب نقل الناس بعيدا عن هذه كلما تفشى المرض وهى لا تحط على
شئ أبيض اللون قط لذلك قل الخطر على الجنس الأبيض هناك بسبب
لونهم ولون ملابسهم والذبابة أعجب الحشرات فى أنها لا تضع بيضها كالعادة
بل تفقس بيضة واحدة داخل بطنها ثم يخرج الجنين فيختفى فى الطين وعلى
ذلك تكون نسبة التكاثر فى هذا الذباب قليلة جدا ولا يمكن أن تلد الانثى
طوال حياتها أكثر من عشر مرات ويجب أن تلقح أكثر من مرة فى كل
دفعة على أن قلة تناسلها هذا زادها احتفاظا بحياتها فتنوعت فصائلها حتى
أحصى من هذا الذباب اثنان وعشرون نوعا فى المنطقة الحارة وخرطومها
يخترق اللحم بسهولة . وعوارض المرض تورم فى غدد الرقبة يزيد تدريجيا

ثم يصحبه صداع مستمر أو حمى خفيفة حرارتها ٣٨° وتجيء متقطعة وبعد ستة شهور يشعر المريض بميله للنوم خصوصا في فترات الظهر ويزايد هذا الشعور لزيادة تأثر الأعصاب ويعزو الوجه كآبة مستمرة وتثاقل الخطى وتخور القوى ثم يلي ذلك غيبوبة وذبول لا يفيق منها المريض وخلال ذلك يضمحل الجسد فيبدو هيكلا وفي سنتين يموت المريض ، ويمكن علاجها بالحقن ويعزل المريض مخافة أن تلدغه ذبابة غير مصابة فتنتقل العدوى منه الى غيره ، والعجيب أن الذبابة نفسها يفتك بها المرض فتموت بعد ستة أشهر ، والعادة أن يمر الطبيب على كل قرية ويجمع له مشايخ النواحي جميع الأهالي لفحصهم وان ظهر مصاب عزاه وبحثوا عن الاخوار فقطعوا الشجر حولها واستأصلوا العشب وأمروا الناس ألا يقربوها . وأصل هذا المرض وفد من الكونغو وكان ظهوره عقب حلول جنود امين باشا في بوسوجا بعد تركهم شواطئ ألبرت وتفشى سنة ١٩٠١ خصوصا حول البحيرات وجزائرها وقد مات به فوق ربع المليون ولقد نقلت الحكومة من جزائر بحيرة فكتوريا اثني عشر ألف نفس الى الداخل لتنجيهم من المرض وأوشك المرض أن ينتقل الى مصر شمالا والى رودسيا جنوبا لولا مراقبة طرق الاتصال بينها

الى النيل الابيض : لبثنا نسير شمالا وقد استقام المجرى وأخيراً

بدت الى يسارنا فتحة في النهر يكاد يسد العشب غالبها ولما أن جانبها ظهرت في امتداد الى الآفاق ناحية الغرب وكنا نرى الضفاف الى شمالنا وجنوبنا ، وكان الماء راكداً ليس للتيار فيه من أثر ، وتلك هي بحيرة نو أو مقرن

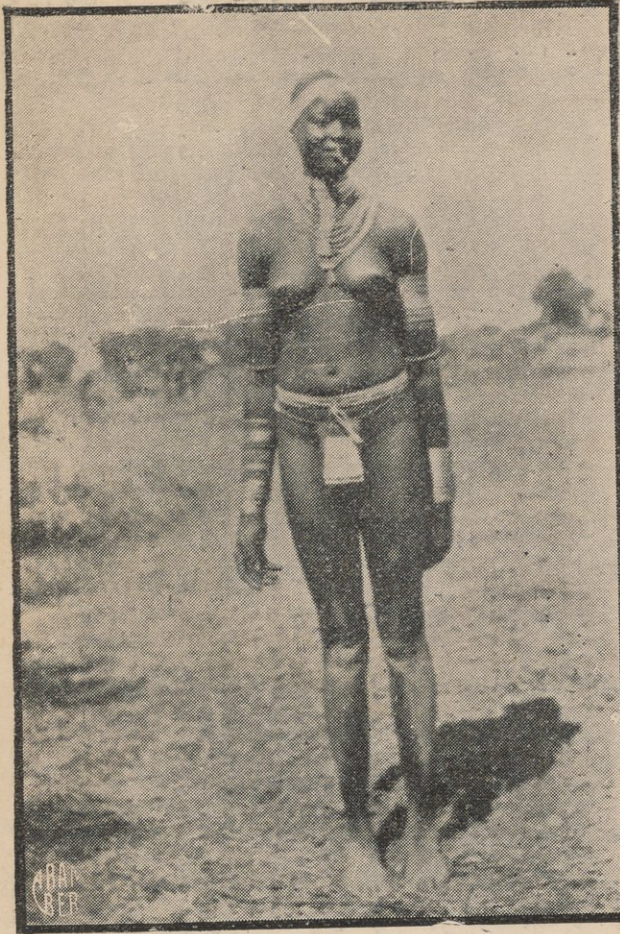


(بعض آيات التجميل عند النوير)

البحرور مصب بحر الغزال ذاك الذى لا يمد النيل بشئ يذ كر رغم سعة حوضه
وتعدد روافده . أخذنا نميل الى الشرق داخلين الى بدء النيل الأبيض
ويظهر أن بحر الجبل لا يصب فى البحيرة بل الى شرقها بقليل ، هنا انفسح
الجرى وأخذ العشب فى القلة وقد مررنا على مرسى هام هو (تونجا) بمخازنها
الحديدية تشرف على النهر وأخصاصها النائية ، ومنها يمتد طريق الى تالودى
عاصمة جبال النوبة لذلك كانت شهرتها التجارية ذات شأن يذ كر وغالب
السكان هنا من قبائل النوير والنيام نيام الوافدين من بحر الغزال الى
غرب بحيرة نو

والنوير : يشبهون الدنكا فى أجسامهم ولهجتهم ولو أنهم أضعف

بنية يسرون عرايا ولونهم أميل الى البياض فكأنهم منا ويضعون عقداً من
الخرز حول الخصر الا ان الزوج لا يصح له أن يقابل حملاه الا بعد أن يغطى
عورتهم وأكواخهم أقل تنسيقاً من جيرانهم وهم يلطخون جسومهم بالرماد
وكذلك وجوههم ولا يتعهدون شعورهم بل ينفشونها في مقدم الرأس ويقصونه
في خلفها والنساء يكورنه في أشكال مختلفة وكنا نرى على أجسادهم خطوطاً
من التجريح البارز في الصدر تتلاقى في الظهر عند نهاية العمود الفقري ،
ويعمل هذا التجريح بمدية من العاج منذ الصغر ، ويقولون بأن الآباء
لا يضربون أبناءهم تأديباً بل يكلفون الغير أن يفعل ذلك لأن في ضرب
الأب إذلالاً للصبي ! وعيونهم تبدو حمراء بسبب الدخان الذي يصعدونه
حولهم من احراق روث البقر وهم مشتتون في جماعات صغيرة أخصهم حول
بحر الزراف والسوبات وعلى بحر الجبل بين حلة نوير وغابة شامبي وعلى بحر
الغزال وراء بحيرة نوورغم ميلهم الشديد للغارات والحروب لا يوحدون
صفوفهم كما يفعل الشلوك ضد أعدائهم ، ويعرفون بالغدر والقسوة ومن أحط
أعمالهم الصيد والرعاية ومن صناعاتهم العجيبة عمل غلايين التدخين فالدواة
من طين تتصل بها أنبوبة طويلة من الغاب وفي ناحية الفم كرة من القرع
ويزرعون الطباق بكثرة لكنك تعجب إذا علمت أن أغلب الطباق الذي
يحرقونه مزيج من أعشاب المناقع والفحم وروث البقر، وجراب الطباق أعجب
فهو قطعة من خشب (أمباش) طولها متر وسمكها نصف قدم وفي بحويفها
يحمل الطباق ويقعر وسطها لكي تمسك في اليد وتستخدم في الدفاع



ويستعملها القوم وسادة
ينامون عليها ليلاً
وجميعهم يدخنون هكذا
نساء ورجالا . وطعامهم
يوضع في أطباق من خشب
ويتناولونه بواسطة
أصداق البحر ولا
يستخدمون اليد كالدينكا
والشلوك وأحب الغذاء
لحوم الحيوانات البرية
كالتمساح وفرس الماء ثم
الذرة والبن وهم كالدينكا
يحبون دماء البقر لكن

بعد غليها وساعة الأكل (غادة من حسان النوير ذوات القوام الشامخ)
ينفصل الذكور عن الأنثى ويصطف كل جيل متقارب السن معا ويوزع
عليهم الطعام وبعض المريسة ويلبسون في اليد سواراً من عاج أو سلك
من طيتين يبرز منهما خطافان يستعملان في الدفاع وفي تأديب الزوجات .
وطريقة التجريح أن تعصر قطعة اللحم بين مقبض من الخشب ثم تجرح
بمدية ويصب عليها الماء البارد كل يوم حتى تتصلب وهم يصيدون الفيل

في الحفر التي تغطي بالعشب أما سائر الحيوان فبإشعال النار في العشب من حوله في مساحات شاسعة وتلك الطريقة خطيرة لأنها تتلف جماهير هائلة من الحيوان وقد تهدده بالانقراض

وإذا بلغ الغلام الخامسة عشرة يخلق رأسه وينام على ظهره ثم يوضع رأسه في حفرة ويتقدم رجل ويجرح جبهته ستة جروح متوازية تبدأ من الأذن اليمنى إلى اليسرى ويغسل الدم بريشة يبللها بالماء البارد ثم يعزل في كوخ خارج القرية حتى يشفى فيهم في البراري وحده أياما كي يقوى ويألف الشدة وإذا ما نجح في صيد زرافة يحرثه دون أن يساعده أحد عد رجلا فيعود إلى قريته ويساهم في بقر القبيلة ويعطى حرتين ثم يتزوج ويقام له كوخ خاص، والعادة أن يعمل ذلك مع الشبان متحدى السن فيخرجون للصيد سويا ثم يعودون إذا ما أنجزوا تلك المراسيم ويجب على أفراد ذاك الفريق أن يخلصوا لبعضهم ويتعاونوا على العدو وعلى إقامة الكواخ وعلى الصيد وعلى الحصول على مهر الزواج، والنوير يعتقدون في روح عليا خلقت الدنيا ولهم فكرة مبهمه في الحياة الأخرى وهم يدفنون موتاهم بعد رش المقبرة بمزيج اللبن والمريسة ويوضع بجانب الجثة غليون التدخين ليتسلى الفقيد حتى يصل إلى عالم الأرواح، وجثة الزعيم تطلّى بالزبد وتوضع على قطعة من خشب وتدفن سرا خشية أن يجد أعداؤه طريقهم إليها فينتقموا منه ولعل أعجب مقابر وسط أفريقية جميعا مقبرة (هرم دنكور) التي يدفن بها أحد أطباء السحرة علوها ١٢ قدما وفي قمتها حربة تعلوها بيضة نعامة وبعض



ريشها. فمن أين جاءتهم
فكرة الاهرام ، أكانت
لهم علاقة بمصر ؟ وهم
يعتقدون أن منافع بحر
الجبيل يقطنها نفر من
أفاعى الجن طول الواحدة
أربعون قدما ، وفي أذنانها
قرون مخيفة والعادة أن
يحمل الواحد منهم حربتين
واحدة للحرب ، والأخرى
لصيد السمك ، وقطعانهم
أهم شيء لديهم ولا سبيل
الى جباية الضرائب

الحكومية إلا على الماشية (الخصر الاهيف والشفاه الممدودة عند نيام نيام)
كأن تجبى على كل زريبة تؤوى ثلاثين رأسا ثور فى السنة وزعماءهم هم المسكفون
بذلك وهم من أشد المتوحشين قسوة وأصعبهم مراسا وحتى حملات الحكومة
التأديبية التى ترسل اليهم إذا ما اقترفوا جرما لا تجدى قط الا إذا سلبت
الحكومة قطعانهم وأنشط ما يرون عقب الفيضان وقت أن كنا هناك
ترى الواحد منهم أولاثنين فى زورق من منقور الشجر يتلمس الخيران ليصيد

ما تخلف من السمك بعد نزول الماء وأظهر شجر المنطقة الطلق والهجليج والخروب
ومن الآخر يتخذ نساؤهم الزيت الذي يتدهنون به للتجميل أما الأول فللصمغ
والثاني للخشب وكلاهما شائك وللهجليج ثمرة صفراء يأكلها القوم إبان القحط
رغم أنها مرة المذاق ويستمدون الماء من حفر يقومون عليها حتى ينز ماؤها وهم
يستقون منها رغم قذارتها ثم يغطونها خشية التبخير

والنيام نيام: اسم قبائل بحر الغزال ، ولا ندرى من أين جاء
هذا الاسم إذ أن غالب القبائل هناك يحملون لقب (زاندى) وهم قصار
القامات لا يزدون من خمس أقدام إلا نادرا ، وذلك بسبب قصر سيقانهم
وهم يزينون بالتجريح ويتعهدون شعورهم طويلا نساء ورجالا ، ولا يلبس
نساؤهم شيئا بل يدلون حزمة من عشب على العورات ، أما الرجال فيلبسون
ازاراً من جلد ، وهم مهرة في صيد الفيل سلاحهم الحراب والخناجر التي
يلقون بها على بعد فتصيب الغير ويحاربون فرادى وهم يختبئون وراء الشجر
ويلقون سهامهم وحوها حزمة من عشب سريع الاشتعال لا حراق أكواخ
عدوهم ، وهم أذكى من القبائل الأخرى وأميل الى المرح وهم يدفعون مهور
زوجاتهم بالحراب لا بالبقر ومتوسطه عشرون حربة ونساؤهم أميل نساء السود
للنكاح وكثيرا ما تطلب المرأة الى رجل غير زوجها أن يأتيها ويعلم الزوج
عنها ذلك وهي تحتج لديه بأنه أقدر منه على هذا العمل وكثيرا ما يأتى
الأخ أخته أو يتزوج الأب بنته والعفاف عندهم والبكارة لا قيمة لها وغالب
السود من الوثنيين الهمج كذلك وللفتاة عدة أصحاب قد يزورونها في مقصورتها



والفتيات تخصص لهن
مقصورة في كل بيت
ويحتل الواحد بها ويراه
الابوان ولا ضير في ذلك،
والشهوة عند السود عموماً
قوية جداً، ويزيدونها
قوة بعادة التدليك الذي
يقوم به الخدم للزوجة
والزوج كل ليلة وبعد
تعهد كل عضلات الجسد
بالأدمنة المختلفة تقوم
المرأة وتشعل النار وتطلق
البخور مما يثير الميول
الجنسية

(بعض زينة الوجه يبدو وكأنه القنفذ)

ولا تزال امم النيام نيام تهم بأنها من الأمم الذئبية آكلة لحوم البشر
وكان زعيم قبيلة (مانجبيتو) في أقصى الغرب على حدود الكونغو كلما
أعوزه اللحم قصد مع رهط من أخصائه أكواخ بعض زوجاته وعددهن
ألفان وهناك يقتل من الناس من لاقاهم زائرين ويأكلهم وهذا الزعيم مات
قريباً وابنه الحالي (أوكوندو) له ١٧٦ زوجة فقط

ولا يزال كثير من مواطن النوير والنيام نيام في معزل عن العالم الخارجى
وليس للحكومة عليها أى سلطان ولهم هناك جمعيات سرية لايجزؤ أحد
أن يخالفها أو ينم عنها وإلا قتل غيلة بالسّم ، وكثيرا ما كشف الغرباء السّم
يدس لهم وهم فى طريقهم الى تلك الجهات ويسمونهم جماعة (Bili) يرأسها
سجرة مشهورون وترمى الى حماية أعضائها واغتصاب مايشاءون وإقامة
شعائر مخيفة يستخدمون فيها المخدرات والفتيات والضحايا البشرية وهم يستلبون
بنات كثيرات فان بحث عنهن الآباء قتلوا بفعل السحر وكثيراً ما يختفى
بسببهم زعيم هو وعائلته وفى بيت الزعيم تقوم حفلات الرقص حول نار
موقدة ولهم جواسيسهم وكلمات السر الخاصة بهم بحيث يستحيل على البوليس
تعقبهم وتلك الجماعة تمتد الى بلاد الكنفو بلجيكية وفرنسية

الى السو باط : أخذ النيل الأبيض فى الاتساع والهدوء وقد اختفى
البردى والغاب الطويل وأضحت الجوانب أرضا مبسوطة إلى الآفاق
يكسوها عشب برى قصير ولا يعترض هذا البسيط الأخضر سوى بعض
الشجر المنثور على أن النهر فى وسطه يغص بخليع النبات ورم العشب فى كتل
مختلفة الحجم وهى التى يدفع بها بحر الجبل إلى هنا لذلك كانت تعوز النهر النظافة
وأخيراً لا قانا نهر سو باط بزواية قائمة فى تيار هادى يبدو على بعد أملس
كأنه النيل الأبيض لكننا لما جزناه لا حظنا تغيراً فى لون الماء وغزارته
فقد كان جانبنا الأيمن عكراً لكنه يفاير طمى مصر فى أنه أميل إلى الحمرة
وإلى اليسار ظل ماء النيل الأبيض رائقاً إلا فى بقايا النبات المنحل الذى يكسبه



(هياة المحكمة عند قبائل بحر الغزال)

لونا خفيف الحمرة وبعد قليل ساد ماء السوبات العكر وكان قد هبط فيضه
إذ ذاك أما اتساعه فمحدود ضيق إذا قورن بنيل مصر ومن هنا بدأنا نرى
جروفا طينية للنهر واضحة ولو أنها لم تكن متصلة بل تخللتها بعض المناقع
والجوانب يكسوها عشب كأنه الشعير وقد جزنا خرائب التوفيقية التي كان
لها شأن يذكر من قبل لكنها أهملت تماما شأن سائر المدائن المصرية العريقة
وأقبلنا على :

الملكال : عاصمة أعلى النيل ظهرت مدينة كبيرة ذات مبان

ممدودة وحدائق منسقة تطل على النهر الذي كان يزينه عقد من بواخر
غالبا لمصلحة الري المصرية والمدينة محطة الري المصرية الرئيسية تقوم

فيها مكاتبه ومساكنه مشرفة على النهر في هندسة أنيقة ومن ورائها مدينة الاهالى فى مجموعة من أكواخ غالبها دائرى مخروطى من جدائل القش يكسى بالطين وفى طرف من المدينة المطار الذى ترسو عليه سفائن البريد الجوى الامبراطورى والى جانبه دار المديرية والمركز وخلفهما مساكن الموظفين من الانجليز ، وبين قسم المديرية وقسم الرى المصرى يقع السوق فى كتل من المباني الساذجة تغطيها سقوف الحديد ولها شرفات مظلة تفتح الحوانيت أبوابها عليها ، وغالب المتاجر فى أيدي اليونانيين ونرى فى الحانوت الواحد كل شىء على صغره من بدالة وأقمشة وخبز وطعام ، وسكان المدينة أخلاط السودانيون المسلمون ويظهرون فى ملابسهم البياض الفضفاضة وعمائمهم الكبيرة ، ومنهم مشايخ البلد يسرون وراء مأمور المركز وهو ضابط سودانى أما الهمج فغالبيتهم من الشلوك

ولعل أجمل ما راقنى بالمدينة القسم المصرى ذاك الذى تقوم قصوره تحفها حدائق غناء وتزود كلها بالمياه المرشحة من مضخات آلية وتضاء بالكهرباء وتزود بالاثاث الفاخر فى مظهر يدل على السخاء المصرى العظيم والغريب أن أغلب الموظفين من غير المصريين وتحت تصرف القسم اسطول كبير لا عمل له إلا القيام برحلات الى مناطق السدود وما جاورها ذهابا وحيث لم تفدنا بما يعادل نفقات سنة واحده طوال السنين التى خلت ، ومن رأى غالب المهندسين المصريين الذين تحدث اليهم أنها ابحات ضائعة لاخير فيها على أنها احدى وسائل التفريج عن الكربة المالية التى يعانىها السودان

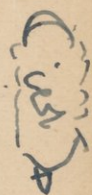


(ضفة النيل فى ملكال حيث تقوم مباني الرى المصرى)

اليوم ، ولم يقف سخاؤنا عند هذا الحد بل أنهم شرعوا يقيمون فى الخرطوم دار عمارة للاسطول المصرى ! زرتها وستكفنا غاليا ، ولا يكاد يرى أحد ما وراءها من فائدة !

غادرنا الملكال فكانت الشواطىء تزينها أشجار من (نخيل دليب) فروعها تبدو فى مراوح مسننة (كاللاتانيا) وله ثمر أصفر فى حجم النرجيل ذولباب شبيه بالشمام شكلا وطعما وهو غذاء هام للاهالى الى ذلك جذوعه التى ينقرها الناس فى زوارق لا يزيد عرضها على ذراع وقد يبلغ طولها الامتار وكثيرا ما كنا نرى الرجل يمسك بمجذاف قصير ويسير به سراعا فان قارب السفينة انزوى بزورقه فى العشب ، وهناك نوع من الزوارق هو حزمة

من غاب اسمه (امباش) تربط مدينة من طرف ، وعريضة من الآخر
يرميها الرجل في النهر ، ويجلس وسطها ورغم الماء الذي يتخللها فهي لا تغرق
لخفتها ، واذا ما انتهى الرجل من صيده صعد البر ، وحمل زورقه هذا على
كتفه ، بعد أن يجففه في الشمس برهة



لبث النيل طويلا في اتساع عادي هو دون اتساع نيلنا في مصر فلم
يؤيد ما كنا نعلمه من مداه الشاسع على أن العشب كان يحف به وكنا
كلما قاربناه وصادمته السفينة قفز منه تمساح أو اثنين ويظهر أن ذاك العشب
داخل ضمن اتساع النهر يؤيد ذلك أنه كان يخلو من الشجر إلا عند الأفق
وتلك المتسعات لاشك سيغمرها ماء النهر عقب اتمام خزان جبل الأولياء
ويصل الماء الى جوار الأراضي الخصيبة النائية ويمكن من ريهها على حسابنا
بسهولة وقد أخذ النهر يتشعب بين جزائر متعددة عند احداها رأينا كودوك
مقر ملك الشلوك

الشلوك : (عمالقة السودان وأكثر الهمج وحشية) طائفة من
الزنج تحل قسما من منطقة السدود في أعالي النيل ويحكمهم ملك يسمى
(Ret) ولا يزالون يتعقبون ملوكهم الى الجد السادس والعشرين ودولة هذا
ال (Ret أو Mek) كما يلقبونه تمتد غرب النيل بين كاكا وتونجا وشرق
النيل من جنوب كودوك الى التوفيقية وعلى ضفتي السوبات الأدنى ولهم
نحو ١٣٠٠ قرية من أكواخ مخروطية من القش والطين يسكنها نحو أربعين
ألفا . وهم خاضعون تماما لملكهم الذي يبلغه الجواسيس كل أمر جل أو صغر



(زينة الشعر عند رجال الشلوك)

أولا بأول . ومن أقصى حدود بلاده الى مركزه المختار في فاشودة على بعد ستة أميال من كودوك . وهم معروفون بالقوام السمهرى و بطول السوق و بروز عضلاتهم ، جلدهم لامع براق والمقاتل منهم لا يرى خارج كوخه بدون حربته الطويلة ذات السن العريض . ومعها حربتان قصيرتان وسلاح من خشب كأنه الوتد مدبب الطرف و يستخدمون التروس بعضها من خشب مستدير من جلد فرس الماء ولا يحملون الاقواس والسهام

وأخص ما يسترعى النظر شعور الرجال التي يرسلونها تنمو ثم يشكلونها أشكالا غريبة بعد أن تبطن بروث البقر . أما النساء فيحلقن مقدم الجمجمة ويتركن شعرا قصيرا جدا في مؤخرها فتبدو المرأة كأنها صلعاء . ويتعهد شعور الرجال (حلاق) عمله محترم لديهم يتوارثه عن أجداده وهو في شهرته ومقامه بلى الرماة والمقاتلة ، يأتي الرجل ويجلس أمام كوخ الحلاقة في الشمس المحرقة ويبدأ الرجل غسل الشعر ونفشه ببول البقر ثم يترك مدة في الشمس تناهز نصف ساعة وأنت ترى القمل والحشرات تجري على رقبة الرجل ، وأيدي الحلاق والرائحة الكريهة منبعثة منها تعبق الجو . وخلال ذلك يعد الحلاق المادة التي سيدشكل بها الشعر . فيأتي باناء من فخار ويخلط به بعض الطين والروث والبول والصمغ ويعجنه ثم يبطن به الشعر في مهارة فائقة ثم يحنقه في الشمس ويأخذ في قطع زوائد الشعر بمدية حادة ويدهن جسده الرجل ببول البقر الذي يستخدمونه جميعا رجالا ونساء . بعد ذلك يرش فوق الشعر مسحوقا من حرق روث البقر ممزوجا بالثرى ليأخذ الشعر لونه

المطلوب . والعادة أن يتعهد الحلاق شعر رجلين معا لكي يعرف كل نظام شعره اذا مارأى شعر أخيه ولا تستخدم المرأة عندهم . وأجر هذا العمل شاة أو معزى ، ويفلب أن يتعهد الشبان شعرهم هكذا قبل الزواج والحرب وقبل الرقصة الدينية . ولكيلا يفسد نظام الشعر اذا أحس ايلام الهوام التي تتزايد في رأسه كل يوم يضع الحلاق أثناء العملية ابراً من الخشب فتخلف خروفا منها يمكن للرجل أن يحك رأسه بعضى مثلها . وأصعب ما يعانيه الشخص من شعره ليلا اذ ينام على قطعة من خشب يرفعها حاملان وهو لا ينجو من هذا العذاب ولا من عذاب القمل الا اذا مات أحد أفراد العائلة ، فعندئذ يجب حلق الرأس وتركها حتى ينمو الشعر ويستأنف تعهده من جديد .

ومما يعانيه شبانهم الاختبار الذي يجوزونه كي يحوزوا لقب المقاتلة في سن الخامسة عشرة فتصحب كل واحد منهم خليلته ويذهب الجميع الى ضفة النهر ، وتمسك كل خليللة برأس صاحبها وتميلها نحو النهر وتأخذ في تشجيعه على أن يحمّل ما سيحل به من ألم . وسرعان ما يجىء طيبب ويشق جبهة الغلام بمديّة حادة فلا يجرؤ واحد أن يتأوه والا كان خزيا كبيرا وبعد ذلك تغسل الفتاة الدم في النهر وتنتهى الحفلة . وكل صببية هذا الجيل يلقبون باسم حيوان معين يتخذ شعارهم كالأسد أو الأفعى وما اليها وكثيراً ما تقطع المديّة شريانا فيموت الصبي من كثرة ما يفقده من الدم ، والذي يعيش منهم يصبح مساهما في بقر القبيلة ويحول له الحق في الاشتراك في الرقص العام وينظر اليه الجميع نظرم الى الرجال وقبيل اجتياز هذا الاختبار يعتبرون أطفالا

مفتقرين الى حماية الرجال وينامون في أكواخ الخدم .

والشلوك أهل مياه وأنهار لا عمل لهم سوى الرعى وصيد الحيوان
والسمك فهم يسرون في المياه بسرعة حتى ولو غاصوا فيها الى أكتافهم .
ولا يذبحون ماشيتهم قط بل يستمدون منها اللبن . وبعد ذلك تستخدم
بدل النقود في المبادلة وهي لديهم مقدسة ويتناعون من النوبيين شمالهم
القول السوداني وهو غذاء رئيسي عندهم وقلما يزرعون شيئا ، اللهم إلا بعض
الذرة والطباق فهم كسالى ، وكل عائلة تحمل كوخين أو ثلاثة يحوطها سور
وفي جانب داخلي اصطبل ، والبيوت نظيفة تحوى ثلاثة أكواخ واحد
للزوج وزوجه والثاني للطبخ والثالث للخدم والاولاد ، وأحب مشروباتهم
المريسة وزوارقهم جذور منقورة من نخيل دليب ، أو أعواد توثق في شكل
مخوف يحمله الرجل اذا شاء والشلوك اذا صادوا فرس الماء حفظوا لجمه لوقت
الحفلات ، واذا صاد أحدهم فرسا بدون مساعدة غيره لبس سوارا من عاج
حول ذراعه وكثيرا ما يهاجمهم وحش كالأسد والفهد فيرده الواحد منهم
بحرسته وعندئذ يأخذ جلده ليحفظه ويلبسه في الحفلات ليذل على بسالته
والشلوك يعيشون في قرى مكتظة عكس أمم الباري والنوير الذين
لا تزيد مجموعتهم على عائلة واحدة فالشلوك لهم نظام عائلي وثيق وقانون
موحد لذلك قلما تقتتل شيعهم وكثيرا ما يستعملون السم الذين يلطخون به
سهامهم في قتل الغير وملكتهم لا يذوق طعاما ولا شرابا إلا بعد أن يتناول
منه أحد تابعيه قبله ، أما زينتهم فعقود من خرز ملون تلبس صفوفها بعضها



(لحم افراس الماء شهى لديهم نيئاً ومطهياً وهم يصيدونه بحراهم)
فوق بعض وقد تغطى الرقبة كلها وقبما من الصدر وهى دليل الغنى والجاه
ويلبسها الرجال أيضا ، واللون الازرق عندهم بشير الحظ السعيد لذلك يلبسه
الاطفال وكما كثر الخرز دل على جاه الأبوين وبعض الشبان يلبسون سوارا
فى الساعد والعقب ، وهذا يدل على أنهم قتلوا من الحيوان أسدا أو فهدا
أو فيلا ، والطبخ والزراعة وعمل الخرز والمريسة وحمل المياه من عمل النساء ،
أما الرجال فلا يصح لهم أن يقوموا بهذه الاعمال المهيمنة إلا اذا طعنوا
فى السن ولعمل المريسة يوضع بعض الذرة فى سلة مع مزيج من مسحوق
روث البقر والثرى وكلها توضع فى ماء راكد لمدة أسبوع حتى تتخمر ، ثم
تنقل الى جرة من فخار وتغلى فى الماء ويؤخذ السائل العلوى ويبرد ثم يشرب ،
وكما نصبت أضيف الماء اليها ، وأعيد غليها وهكذا وهذا الخمر قوى مسكر
ويخال بعض الناس خطأ أن اللحم أهم غذاء لديهم على أنهم لا يأكلون

الا لحوم السمك وأفراس الماء ، أما لحوم البقر فلا تؤكل الا في الحفلات .
ومن أطعمتهم المحبوبة خليط من مسحوق الفول السوداني والذرة والسمك
التي يطهى في جرة من فخار ، وكذلك لحم فرس الماء يمزج بالفول السوداني
وعشب اسمه صفصاف . وتكثر حفلات الرقص بعد شرب المريسة في الليالي
القمرية خصوصاً ليلة البدر وكلهم يرقصون والحراب في أيديهم ، وقد لعبت
الحر بلبهم ويقرع القوم طبولهم المزعجة وسط القرية التي تتجمع بيوتها في
شكل دائرة تتوسطها ردهة فسيحة والطبول تقرع من وسطها في با كورة
الصباح اعلاناً للناس بأن حفلة الرقص ستقام الليلة وكما اختلفت قرعات
الطبول اختلفت حركات الرقص ودلت على الغرض منه أهو للمطر أم الحرب
أم الدين أم الفتيات أم الموت ورقصة الفتيات تبدأ بعد بزوغ القمر مباشرة
والغرض منها تعارف الفتيان بالفتيات اذ ترى الفتيان قبل الغروب مرحين
انتظاراً لملاقاة فتياتهم ويصرفون زهاء الساعة في تعهد شعورهم ولبس جلود
القطط والانمار والتحلل بصنوف لا تحصى من الخرز والودع وما اليها وقبيل
الغروب تفد الجماهير شبانا وشيبا وتصف جرار المريسة بحجومها الكبيرة
وسط الدائرة والى جانبها أطباق من الذرة واللحم نصف المطبوخ ، فاذا بزغ
النور بدا المسنون من النساء والرجال في دائرة ومن داخلها جماهير الشباب
من الجنسين ويظلون مرحين يتحادثون حتى يقبل الزعيم ومن خلفه أتباعه
يحملون الطبول وأدوات الموسيقى فينصت الجمع ويتداخل الفتيان والفتيات
في صفين ثم تعزف الموسيقى والطبول وبين آن وآخر يرتل الكل أغنية .



(مجموعة من بيض التماسيح بدأب فقسها على ضفاف النيل)

وما تسكاد تنهى حتى يعلو قرع الطبل وتموج صفوفهم ويدهم الحراب التي تتلأأ في ضوء القمر . ثم يسرع أحدهم الى الوسط مخترقا صفوف الشابات والشبان وهناك يتمايل ويهاجم كأنه يصارع وحشا ثم يعاد الغناء ثانية ، وبعد ساعة على تلك الحال يشرب الكل المريسة ، ويبدو صف آخر من الراقصين بعد انسحاب الأول الذي يظل عاكفاً على جرار المريسة يرتشف منها ما يشاء ، وأخيراً يختلط الكل في الرقص تاركين الحراب ويتقدم كل شاب في صف الشبان الى فتاة في صف الفتيات وترفع السواعد بمحاذاة الأكتاف ويقفز كل زوج قفزات منظمة لكن دون أن يلمس الفتى خليلته والفتيات يظهرن دلالهن ويحاولن أسر الرجال واستمالتهم بما يفوق ما تأتيه

المرأة الغربية (فهي مثلاً تبرز ثدييها بين آن وآخر ثم ترفع عنهما قطعة القماش المبهمة ، ثم تعيدها وكثيراً ما تفعل ذلك أمام القاضي في المحاكم فتؤثر فيه) وما يكاد الليل ينتصف حتى تكون المريسة قد أخذت بلبهم فيختلط الحابل بالنابل وبمجرد انسحاب الزعماء والمتقدمين في السن يأتي الشبان والشابات بما لا يتصوره العقل بل وبما يستنكره الخلق الفاضل القويم

الزواج : ولا تزوج الفتاة قبل الخامسة عشرة وبفضل رقصة الفتيات يمكنها أن تتعرف بالكثير من الفتيان ، والزوجة يمكن شراؤها بالقطعان . وللرجل شراء ما استطاع من الزوجات ، لأن ذلك دليل الجاه والغنى ، وقبل أن تتم صفقة الشراء هذه يجب أن توافق هي على هذا الزوج وفي العادة تكون قد رغبت فيه أبان حفلات الرقص ، وهي تحب أن يكون غنياً بقطعانه ومزارعه ، والعجيب أن الفتاة تؤثر الزوج الذي يستطيع بماله أن يشتري زوجات كثيرات غيرها . وقبل اتمام الزواج تقدم الهدايا (الشبكة) كعشر من المعزى وثلاث من الحراب وعشرين خطافاً للصيد (سنارة) وما إليها وخلال تلك الفترة يبدأ التعارف بينهما — نظام شبيه بنظام الغرب — ففي حفلة الرقص يقود الأخ أخته الى حلقة الرقص والحجل يبدو على وجهها وهناك يسألها زعيم القبيلة أن تعترف بجميع علاقات الحب مع فتيان آخرين من قبل وهي تحشى ألا تقول الصدق لأن الاخبار كلها تصل الزعيم أولاً بأول . وبعد تلك المداولات بين الزعماء والعروس تقرر الطبول فينصت الجميع وهنا تكرر الفتاة ذكر أسماء الفتيان الذين أحبوها من قبل فيحضر



(زينة الرجال عند الشلوك تفوق زينة النساء)

كل واحد منهم الى وسط الدائرة ويحكم عليه بغرامة من الماشية والأغنام
ومتى جمعت تلك القطعان قدمت كلها مهراً للزوج أما الفتاة فلا عقاب عليها

متى صدقت في الاعتراف ومتى أقر الزعماء ذلك ولا عار على الفريقين من ذلك فالاعتراف من جانب الفتاة والغرامة من جانب الفتى عقاب كاف وترضية حسنة . والظاهر أن هذا التصرف لا يرمى الى منع الفساد الخلقي بقدر ما يرمى الى تزويد الزوجين بالمال والمتفرجين بالطعام والشراب والرقص وعند ميلاد غلام تقدم الهدايا للأب من قطعان يربو عددها بالتوالد حتى اذا ما أضحى الطفل رجلا قدمت له بعد أن يجوز (حفلة الرجال) ، واذا مات أحدهم دفنت الجثة أمام السكوخ الذي كان يقطنه ويلف الجسم في أخفر ما كان لديه من ثيابان وجدت والى جانبها الأسلحة وأدوات الطبخ وكل ما يلزم للحياة الأخرى ماعدا أدوات الزينة . والجسم يمدد في القبر على ظهره وتوضع تحت الرأس وسادة من خشب للرجال ومن قش للنساء والأطفال واذا مات الزعيم دفن داخل باب كوخه وأغلق سنة كاملة بعدها يهدم وعند دفن الميت تقام حفلة (رقص الموتى) فيجتمع الأهل وقد لطمخوا جسومهم برماد من حرق روث البقر ويولول الجميع وفق قرعات الطبول البطيئة ويمثل الراقصون ما يدل على شجاعة المتوفى وفضله ويقدم الناس لأهله الطعام والشراب وتستهلك مقادير عظيمة من المريسة وقبل شروق اليوم التالى ينسى الحزن بتاتا

وفي رقصة الحرب يمثلون موقعة يؤخذ فيها النساء والأطفال والماشية أسرى وهذه الرقصة تقام فى أى وقت من النهار بمجرد سماع القوم لقرع الطبول نداء لها فيتزين كل بما لديه من أدوات البسالة من ريش

وجلود وحراب وما اليها ويتقدم المقاتلون ذهابا وجيئة ويضربون الأرض
برجولهم وحراهم التي كثيرا ماتت شئ أو تنكسر ثم يهاجمون الأكواخ التي
فيها أسراهم ويسوقونهم فيها بشراسة زائدة وسطهليل يصم الأذان مسرعين
نحو الزعيم والدماء تسيل من الجروح التي تخدش بها وجوههم وجسومهم
ثم يتقدم الطبيب بعد فيضمدها بعصير بعض الأعشاب

وإذا قام نزاع بين قبيلتين أدى الى قتال عنيف ولا تتنازل احداها عن
الأخذ بالثأر الا اذا تساوى عدد الضحايا من الفريقين ولا يمكن لأية قوة
مقاومتهم لأنهم يلجأون الى صيد الناس بسهامهم المسمومة

تاريخهم : ويرجح بعض الكاشفين انهم وفدوا من منطقة البحيرات
ولم يحلوا مكانهم هذا الا منذ أربعة قرون وفي سنة ١٥٠٤ غزوا سنار لكن
غزاهم البقارة سنة ١٨٦١ وفي ١٨٧٤ ثاروا على الحكومة المصرية في السودان
وفي ١٨٩٠ خلال ثورة المهدي ثاروا ضد تجار الرقيق من العرب والدرأويش
الكنهم هزموا وسيق عدد كبير منهم الى أم درمان ولهذا السبب تجدهم
يبغضون العرب ، ويظهر انهم يمتنون بصلة الى الدنيا وبعض قبائل البحيرات
مثل (كافروندو) لتقارب لغاتهم وبعض عاداتهم

الدين : ولهم اله اسمه (فوك Fok) قادر ومسيطر خلق كل شيء الا
انهم خاضعون لما يسمونه نيكوانج وهو خليط من الوثنية وعبادة الأجداد
والأرواح ، فهم يرون أن أول جد لهم هو نيكوانج الذي يعمل وسيطائينهم
وبين الاله الأعظم الذي لا يدركه أحد وهو (فوك) فهم يقولون في وقت

الضيق (ان فوك قد غضب علينا) ويصلون لنيكوانج للشفاعة وروح هذا
تحل كل ملوكهم ويرون أن روح الموتى تزورهم في المنام وتؤثر على حياة
الاطفال ، وهم يتخيلون الله دوامة هوائية تتلبسهم كثيرا وتحمل الرماد عقب
احراق العشب في عمد سوداء عالية ، ويقولون بأن الله أسود اللون لأنه
لا يرى ويسكن الظلام ، واذا مات الانسان عاد الى ربه وعند الصلاة
يقول الشلوك : يا الهى اتركنا وحدنا ننج فأنت عظيم ، لا يمكن لأحد أن
يتكلم معك أنت الله ومن تقتل منا يمت ، أنت مقر روحنا فاتركنا ننج
والباقون يستمعون وهم منصتون وحرابهم في أيديهم بعضهم واقف
والبعض راكع ، ولتقريب فكرة الآلهة من الناس يفترضون له وكيلا شبيها
بالانسان هو نيكوانج ، ويتوسلون اليه قائلين : نيكوانج قد أعطاك الله
الارض فاحكم الشلوك وارج لنا ربك يجعل البقرة التى سنذبجها قربانا
مقبولا لديه ، ثم يقتلون البقرة ويغسلون دم الحربة بالماء ويخلطون هذا الماء
بالروث الذى يخرجونه من أحشائها ويرشونه على الناس جميعا ، ورأيهم في
الخلق يتلخص في أن الله هو الخالق خلق طبقتين مسطحتين : العليا وهى
السماء والسفلى هى الارض ثم خلق النبات والشجر ، وأول حيوان ظهر
الجاموس ثم الانسان وكلم الله الجاموسة قائلا : تعالى غذا أعطك حربة
فسمع الانسان ذلك وذهب خلسة لما خيم الظلام فلم يره الله فتقدم وهو
يمشى على أربع وينفر كأنه الجاموس فقال الله من هذا ؟ فأجاب أنا من
له قرون متجهة الى الوراء فزع الله وأعطاه الحربة ، ولما جاءت الجاموسة

تخور قال الله ألسنت أنت التي أخذت السلاح مني ؟ قالت لا بل الانسان فأعطاه قرونها وأهاجها على الانسان أنى لاقته .

ولما خلق الانسان كان أحمر اللون لأنه شكل من طين النهر ثم ذهب الى التربة السوداء وخلق الجنس الاسود ولما انتهى من خلقه فرك يديه فسقط الطين منها فتاتا هو القمل الذى التصق بشعر الانسان وضايقه ولذلك اخترع الله الموصى للتخلص منه ، وفريق منهم يرى أن الله أمر زوجته فولدت توأمين أسود وأبيض وكانت تحب الاسود وتبغض الابيض وأمر الله بتربيتهما ، وحدث مرة أن مد الأب رجله وأمر أن يلحقها الوالدان فخضع الابيض لأنه عبد وأبى الاسود فأحب الله لذلك الابيض وحابه وقال لزوجته ان ابني هو هذا وسأملكه على الاسود يبيع فيه ويشترى وسأمدده بالاسلحة التى تسوده على كل شيء

والطبقة الارستقراطية تشمل (Ret أو Mek) وأولاده نيارت (Nia-ret) وأحفاده نى آريت (N-aret) وأحفاد أحفاده كوانى آريت (Kwaniaret) وهؤلاء فقط هم وارثو الملك أما العائلات المتفرعة عن الملوك الأقدمين فتسمى أورورو (Ororo) ولهم نفوذ عظيم

الى هؤلاء طبقة قوية (Kujurs) وهم أطباء السحر تتمثل فيهم قوة القسس والاطباء وام نيكوانج تسمى كى يا (Kieya) تتمثل فى التماسيح ولذلك قدسوه وفى كل قرية هيكل لنيكوانج وهو كوخ باسق حوله كوخان عاليان تزين أعلاها حراب عليها بيض النعام وذلك لأن نيكوانج وفد

من الصحراء يمتطي نعامة ، واذا مات الملك تزوج صغار زوجاته من بعض أقربائه أما الطاعنات في السن فيصبحن خفر المعابد وبنات الزعماء هن بنات نيكوانج وعند زواجهن تقدم الضحايا لزوجته نيكوانج الكامنة في بطن التمساح فيؤخذ عنز ويدبح على حافة نهر ، وعجيب أن تفد التماسيح لأكل الدم أما اللحم فيرسل لحارسات المعابد وهم اذا رأوا دوامة ترابية سجدوا لها لظنهم أن الله (فوك) يسير مختبئاً فيها وهذه العواصف تكثر في شهور الجفاف خصوصا بعد اشتعال النار الذي يكثر عندئذ في العشب والغابات واذا تخلف المطر أقاموا رقصته لمدة ثلاث ليال أو أربع حول معبد نيكوانج عند الغروب وهذه هي الرقصة الوحيدة التي يلبسون لها الاردية والعادة أن ينتظر الزعيم (كوجور) بعد الجفاف متحينا فرصة يرجح نزول المطر فيها ثم يقرع الطبول للرقص ويصلون وهم وقوف وجوههم الى السماء في غير حراك ساعات طويلة وكلهم ايمان بأن المطر سينزل سريعا وفي داخل المعابد ترى مذبحا للضحايا من الغنم يقام من الخشب وترى فوقه بعض الطعام والمريسة يقدمها كل من أراد التقرب من الوسيط نيكوانج حفلة تتويج الملك : والملك (Mek) ينتخبه زعماء القبيلة من أفراد العائلة المالكة وفي يوم التتويج يفد من فاشوده الى الضفة الجنوبية لنهرهم المقدس تحوطه مجامع الحرس بحراهم ويجتمع أهل القبائل بجيوشهم سائرين من القرى نحو أسبوعين على الاقدام ويجب ألا يتخلف أحد الزعماء ويلبس الملك جلبابا مخططا وحزاما مزدوج اللون الازرق والاحمر وطر بوشا

أحمر قانيا وهو شعار الملكية ثم يركب حمارا ويظهر على ضفة النهر يحوطه
الجند من العالقة وعليهم الجلباب الأحمر فيحيي الجماهير الملك بحراهم المرفوعة
حتى يجلس على جلد نمر ويقدم أهل كا كا أقصى بلاد السلوك شمالا عجلا
أبيض ويقدم أهل تونجا أقصى بلادهم جنوبا فتاة صغيرة ، والبلاد يقسمها
النهر المقدس قسمين : جار Garr ، ولواك Luak ولكل منهما زعيم
وتحت هذين زعماء القرى فيتقدم أهل الشمال بالشور الى النهر في مواجهة
الملك ويهجم زعيمهم فيخترق جسم الثور بحربته ثم تتبعه سهام الناس
من كل جانب فيسقط الثور ويسيل الدم الى النهر ثم يتقدم زعيم الجنوب
الى الملك ويده الفتاة عارية فيتسللها الملك ويصيح الكل قائلين (أيوه !
أيوه !) وعندئذ يمكن لأهل الشمال أن يتخطوا النهر الى الضفة الجنوبية
ويبدأ التتويج بأن يغسل الملك بالماء الساخن ثم بالماء البارد لكيلا تؤذيه
تقلبات الجو حرا وبردا ثم يعامل بخشونة وقسوة من الجميع وعليه أن يطيع
ويخضع لكي يتعلم التواضع ثم يركع له الجميع اجلا لا لأنه ابن نيكوانج ثم
يلبسونه خفا في قدميه من جلد فرس الماء الغفل الخشن ليمشي به على مضض
فيفهم معنى الفقر والتقصير ثم يقدم له الخدم بعض لحم الغزال وفرس الماء
إشارة الى توافر اللحم والقناعة في أكله ثم تقدم المريسة بمقادير كبيرة لكن
عليه ألا يسرف في شربها ليدلهم على أنه قنوع ثم يجري اليه ثلاثة شبان
بحراهم تصوب الى صدورهم فيدفعها الملك بيده الى تلك الصدور حتى تدمى

دلالة على أنه سيحكم حكماً صارماً لـكن في عدل ورحمة وأخيراً يقف الملك
ويخاطب الزعماء ثم يتقدم سائراً على الأقدام فيركع الجميع إجلالاً — وهذا
ما يفعله القوم دائماً كلما رأوا الملك — وهو يتكلم في تودة ووقار فيجيب
القوم بصيحاتهم (أيوه ! أيوه !) كلما فاه بعبارة واحدة

في النيل الأبيض : أخذنا نشق عباب النهر الذي زاد اتساعه
وقربت الأشجار من جوانبه . وان كانت لا تزال تكسوها الأعشاب القصيرة
وخصوصاً أم الصوف وأخذت كتل العشب الطافية تنذر كلما سرنا شمالاً
وأخذنا نرسو على محاط صغيرة بعضها لم يزد على دير واحد وقفنا لنلتقط
بعض القس أو نلقى إليها بعض المبشرين ولعل أكبر المحاط : كاكا التجارية
على يسار النهر ، وكان لها شأن تجارى عظيم لأنها تتصل بمديرية جبال النوبة
بطريق للقوافل الى تالودي عاصمتها ، وقد بدت أخصاص المدينة ممتدة الى
مسافة عظيمة فى الداخل وعلى النهر تشرف مباني الحكومة ومركز المأمور
وأجل ما كان يزينه العلم المصرى ، ثم دار التلغراف ومساكن الموظفين الذين
أنقص عددهم اليوم جداً قصداً وتوفيراً ، هنا أدهشنى رخص الدجاج والخراف
فقد رأيت رجلاً يساوم فى شاة كبيرة انتفخ بطنها بالحمل فبدأ بخمسة قروش
وكان صاحبها مستعداً أن يبيعها بعشرة أما الدجاجة الكبيرة فبقروش واحد
وقد ألفت نظرى استخدام القوم جميعاً للسواك فترى الواحد يكلمك والسواك
فى فمه يدعك به لثته وأسنانه بعنف شديد عناية بالأسنان التى يمتدحون
فيها صفاء لونها ، ولقد نظر الى غلام من الدنكا فى غابة شامبى فلم تعجبه

أسنانى ، ونظر الى صديق لى كانت أسنانه أكثر لمعانا وأنصح بيضاء ، وقال له : أنت رجل عظيم لأن أسنانك بيضاء . على أنهم يكثرون من البصق فى شكل منفر . ولقد استرعى نظرى هنا قوم من السود هم أقصر قامة وأغلظ أجساداً من الشلوك ، وكان بعضهم يلف على جدائل شعره أصابع بيضاء علمت أنها غذاؤه اليومى يعجنه حول شعره ويأكل منه أنى شاء وذلك لديهم أسهل حملاً خصوصاً وأنهم عرايا ليس لديهم من جعب أو جيوب وهذا الشعب يطلق عليه اسم :

دار النوبة : الذين يقطنون الجبال الجنوبية من كردفان الجاهم

اليها عرب البقارة والهوازمة الذين طاردوهم جنوباً عندما وفدوا من بلاد المغرب وحلوا غرب النيل الأبيض والقوم يتحصنون اليوم فى تلك المفاوز بحيث لا يستطيع أحد غزوهم قط ، ومما علمته عنهم : ان الزوجة لا تقبل أن تتزوج من رجل لم يقتل رجلاً غيره وهم يسرون عرايا الا المتزوجين نساء ورجالا ويحلقون شعورهم الا شعر الناصية الذى يتركه الكل منفوشاً ، وهم يسيئون الظن بالغريب بسبب ما قاسوا من تجار الرقيق ومن أشياع المهدي الذين كانوا يهاجمونهم ويسوقونهم رقاً ، وكل قبيلة منهم تحل ربوة تتكلم لهجة لا يفهمها جيرانها من الرقبى الأخرى ، وغالبهم وثنيون ومن عاداتهم أن الطفل بعد ميلاده يجتمع أهله فى حضرة القسيس وتذبح دجاجة يغمرها الرجل فى الماء ويرفعها وهى تقطر ماء فوق رأس المولود ثم يعطيه القس اسماً يكرره أهله ثم يحمله الرجل الى بيت العفارىت ويبصق عليه لتحل فيه بركته ،



قبائل دار النوبة وفد شعورهم باصابع الغناء من معجون
الدقيق والزبد

وقد أخبرني أحد الانجليز أنه زار أحد هؤلاء القسس مرة و بمجرد تعرفه به
بصق القسيس على صدر الانجليزى وتلك خير تحية يبارك بها الناس .
ومعبودهم فى السماء يسمونه (بعل) يباشر عمله فى الأرض بوساطة أرواح
أجداد الناس (آرو Arro) التى تراقب كل شىء وتنزل الثواب والعقاب
ويعتقدون أن الآخرة دار سعادة للجميع يحشر الناس فيها جميعاً
ويتزوجون بدون قيد ولا يلدون مطلقاً ، وما الدنيا الا دار تجربة لكنهم
لا يعتقدون فى جهنم ، والجنة طبقات حسب أعمال الناس ، وكل روح يقيم



(دار النوبة) يعتصمون بجبالهم العاتية وتراهم في استعراض حربي له وكيلا في الأرض هو القسيس (كوجور) يتخذ السحر سلاحا له ويقع في المرتبة بعد الملوك . ويزعمون أن حكم القسس الذي ساد مصر القديمة حينما جاء من سلائل هؤلاء النوبيين قبل أن يبعدوا عن حدود مصر هكذا فإذا مات زعيم ديني انتخب القوم خلفا له وفي الاجتماع يأتي كل من يأنس من نفسه كفاءة للمنصب لتختبر الأرواح قوته وبالألغام ينتخب الخلف وهو في حالة اغماء ثم يمشي متكئا على كتف الملك الى بيت الروح اشارة الى التعاون بينهما ثم يظهر للناس واذا رفضه الروح كان غير أهل للعمل هذه المرة وله أن يرشح نفسه كرة أخرى ، والعادة ألا يحل الروح جسم شاب بل كهل مسن ، ويسود الجمع ساعة الحفلة ذهول شامل كأنه تنويم مغناطيسي وأخص ما يفصل فيه القسس بين الناس حوادث القتل والسرقة وفي

الأولى يجب على أهل القاتل أن يقتلوه أو يقدموا الفدية التي يطلبها أهل
المقتول وفي السرقات يستدعى أهل المكان ويخبرهم القسيس بأنه إذا لم يرجع
الشيء المسروقة قبل أن تشرق الشمس سبع مرات سينزل به عقابا ألما
وكثيرا ما يجدون المسروقات في بيت الروح في ظلام الليل ولا يجوز للملوك
ولا للقسس أن يزينوا بالذهب والحلى رغم توافرها لديهم والقسيس يزور
البيوت ويبصق فيها ليباركها وتقدم له المريسة وفي وادي الملوك عندنا نقوش
تؤيد صلة هؤلاء بأجدادنا من قدماء المصريين .

ومن أعجب عاداتهم حماية اللاجىء المستجير بهم فهم يضيفونه
ويكرمونه وفادته مهما طال مكثه بينهم وإذا قتل في نزاع شجر بينهم
يطالبون بدمه حتى ولو كان اللاجىء قاتلا .

ولما كانت المطالبة بدم القاتل لازمة أدى الدفاع عن القاتل إلى القتال
بين القبائل وغالب ظنى أن تلك العادة نقلوها عن العرب وهم يقولون العلاقات
بالدماء بأن يجرح الرجل ذراعه فيسيل الدم ويخلطه بدم رجل آخر أثنى العمل
نفسه والنوبى يتزوج أى عدد شاء من الزوجات ما دام قادرا على دفع المهر
وهو بين عشر بقرات وأربع عشرة وإذا دفع ربع المهر خول له أن يخاطب
الزوجة لكن فى بيت أبيها حتى تلد طفلا ولا يأخذها إلى بيته إلا بعد دفع
الربع الثانى وإذا بلغ الأطفال سنًا معينة وجب تسديد كل المهر ويغلب أن
يدفع هذا مما يتسلمه الأب مهرا لبناته وإن لم يخلف من الإناث وجب على
الأولاد أن يشتغلوا حتى يسددوا باقى مهر أبيهم وإذا ماتت الزوجة ولم تعقب



طفلا طالب زوجها بنصف
المهر والعادة ألا يقارب
الزوج زوجته إلا بعد
ميلاد الذكر بنحو اثني
عشر اسبوعا وبعد ميلاد
الأنثى بنحو ثمانية أسابيع
وإذا مات أحدهم ولول
النساء و بقيت الجثة يوما
كاملا قبل الدفن
لاعتقادهم أن الروح
ترفرف فوقها — وتلك
عادة مصرية قديمة —
قبل أن تصعد الى السماء
(Twala) وتدفن الجثة
نائمة على جانبها أو واقفة
وجبالهم مخروطة

(فتيات كردفان من البقارة)

الشكل ذات مغارات عدة يزودونها بالذخائر والمؤن احتياطاً للحروب
وتلك تجدد كل حين خشية أن تفسد ومن أسلحتهم كثير من البنادق التي
تسربت إليهم يوم ساقهم المهدي ليحاربوا في صفوفه فهربوا بسلاحهم وهم
يجهزون البارود من الفحم والنظرون الكثير لديهم وهم في موقفهم فوق
الجبال يغلبون كل مهاجم بالرصاص والصخور لكنهم قاسوا كثيراً من

فرسان البقارة خصوصا إذا لاقوهم في السهول وليكي يؤذوهم في خيلهم أدخلوا
ذباب (تسي تسي) واستطاعوا نشره كلما أرادوا الفتك بدواب عدوهم كأن
يملاؤا قرعة بدم حيوان ويتركوها في مكان موبوء بهذا الذباب ثم يدسونه
ليلا جهة أعدائهم على أنهم بذلك نقلوا العدوى الى بعض قبائلهم

ومساكنهم أكواخ من الطين في شكل مخروطي كالجرس وبيت
العائلة مؤلف من ثلاثة واحد للرئيس وآخر الزوجة والأولاد وثالث احتياطي
أما المطبخ ففي كوخ الزوجة ، وطعامهم الذرة والبقول السوداني واللبن واللحم
من بينها الخنزير والكلب والقرد والحيوان المفترس والكلى والكبد تؤكل كل
نبذة طازجة ، ومن أشهى طعامهم الذباب والجراد تؤكل حية مع العسل
وكذلك بعض الأفاعى وليس لهم ملابس قط اللهم إلا المتزوجات

والرقص : حفلات تقام حول بيت الملك فوق جبل (جلود)
حيث يجتمع بين مائتين وثلاثمائة يحملون بالريش والخرز والأشاور من العاج
ويدهنون أجسادهم باللون الأبيض ليمثلوا حيوانات خاصة كأن يقع الجسد
ليحكي الفهد ويمسكون بعضى الرقص الملونة ثم تدق الطبول والموسيقى
المملة انساذجة فيهم صنف من الشبان ويرمى كل حربته أبعد ما يمكنه ويفوز
بالاعجاب أقدرهم في ذلك ثم يقدم صغار الفتيات عرايا إلا في مجموعة عقود
تستر العورة ويرقصن وفق أنغام الموسيقى والكل يهالون عاليا ثم يتلو
هذا سكون يشربون خلاله المريسة وأخيراً يختلط الشبان والفتيات في الرقص
ويحاول كل اجتذاب خليلته ويستريحون حتى يشرق القمر فتصعد فتاة



(نساء كردفان يسحقن الذرة)

على ربة وتغنى للقمر ومن عجيب ما يرى جمع من الفتيان يضر بون أجسادهم
بالسياط حتى تدمى لىكى يظهر واشجاعتهم أمام الغانيات

وإذا خرج رجالهم للصيد يعجنون الذرة مع الزبد فى أصابع يلف كل
حول خصلة من شعر الرأس وكلها تبدو ذوابات غليظة بيضاء مدلاة الى الحاجبين
فى شكل غريب وذلك لافتقارهم الى الملابس والجيوب ولكيلا تشغل أيديهم
ساعة الصيد ومن أحب حفلاتهم المصارعة التى يتبارى فيها شبان القبائل
المختلفة فى مهرجان كبير وفى حضرة الملك عادة

هذا وكثيراً ما كان يختلط على اسم النوبيين الذين مرت بهم فى
ثلاث جهات : عقب البرت نيانزا شمال أوغندا وهؤلاء أخف سواداً ويدين

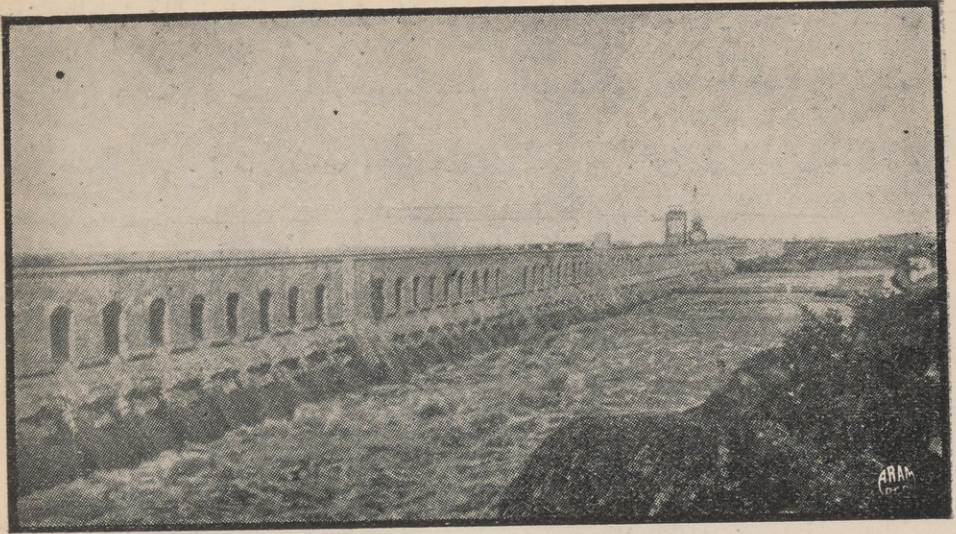
غالبهم بالاسلام وعلمت أنهم من سلالة جنود أمين باشا . وفريق غرب النيل الأبيض وهم هؤلاء ذوو البشرة السوداء والديانة الوثنية والفريق الثالث في بلاد النوبة شمال الخرطوم وهم (كالبرابرة) عندنا سمر البشرة ومسلمون جميعا

الى الخرطوم : تقدمنا في النيل الأبيض الذى زاد اتساعه على كيلومترين وكانت المناظر حوله تنتثر بالشجر غالبة من السنط ولم نر الرى الا فى موضعين : جبل احمد اغا وهو مخروط بركانى وطىء تكسوه الخضرة والاسم لطبيب تركي أقام هناك ويروى القوم عنه انه لما رأى الضباع قد كثرت حول المسكان فأضحت خطراً جهز سمّاً وناولهُ ضبعاً وتركه فمات وانقض عليه قطيع من الضباع وأكلوه — والضبع يأكل جيفة أخيه — فماتت متفرقة ونشرت بذلك الجيف المسممة التى كادت تقضى على النوع كله. أما الموضع الثانى فاسمه (الجبلين) وهى سلسلة من مخاريط بركانية فى مجموعتين وأديمها نصف عار وغالبها من الجرانيت البراق وعلى سفوحها المجانبية للنهر تمتد مدينة لها شأن فى تجارة السمسم والفول السودانى وهنا تقريباً خط ١٢° من العروض الشمالية وهو الذى يعدونه فاصلاً بين السودان الشمالى الاسلامى والجنوبى الوثنى حتى ان الموظفين الذين يقيمون جنوبه تحسب لهم السنة بسنة وثلاث فى المعاش وكانوا يمتحنون بدل مناخ وان كان قد أبطل ذلك اليوم بسبب الأزمة الحاضرة ، وهنا لاحظنا ظهور البيوت من اللبن يكسوها الطين وتعطيها سقوف مسطحة وفى أربع ساعات وصلنا بقعة من النهر قليلة الغور

يكسوها الحصى الكبير لذلك يسمونها (الزلاطة) تقوم فيها وسط الماء علامات بها يجتنب الربان السير الا في الجزء المختنق من أقصى يمين النهر ولقد استرعى نظرى فى أيدى الناس هنا الغلايين الطويلة التى يدخلون فيها مادة اسمها (البانجو أو الكمنجه) هى مخدرة للغاية وتشبه (الحشيش) والنبات ينمو كالبرسيم ثم يزهر ويثمر حبا يقطف أعلاه ويحفف ثم يباع للتدخين ورغم انه محرم فان القوم رجالا ونساء وأطفالا يدمنونه ويقال انه يزرع بمقادير هائلة فى الجهات النائية عن رقابة البوليس . ونظام الحكم فى الريف ينحصر فى الناظر وهو رئيس القبيلة ومن تحته العمدة ومن تحت هؤلاء المشايخ وكلهم تعيينهم الحكومة وقد ربطت لهم مرتبات وهم يشكلون محاكم لها سلطة محدودة تدون فى (دفتر السلطة) الذى يتسلمه الرئيس ، وقد كانت العادة قبل أن تربط لهم المرتبات أن يتناولوا نصف الغرامات التى كانوا يحكمون بها على الأهالى لذلك كان القضاة يحكمون بأقصى العقوبة لأتفه الأسباب لكن ذاك الظلم خف اليوم ولهم أن يحكموا الى خمس سنوات بالسجن وتكاد تعم هذه الطريقة البلاد كلها حتى التى كانت من قبل مرا كز هامة ابان العهد المصرى وهناك مفتش انجليزى يمر ويشرف على الجميع ولقد كان الناس يبعضون المأمير المصريين قديماً لأنهم كانوا قساة فى تنفيذ الأوامر يجبون الأموال قبل حلول ميعادها كي يحوزوا خطابات الشكر من المديرين

دخلنا قنطرة كوستى معبر سكة الحديد الى كردفان وبتنا ليلتنا بجوارها

وفى با كورة الصباح جزناها وفى مدينة كوستى آثرت أن آخذ القطار الى
الخرطوم بدل مواصلة الرحلة بحراً اقتصاداً فى الزمن اذ بالحديد اثنتا عشرة
ساعة وبالماء يومان وشجعنى على ذلك انى علمت بأن جبل الأولياء لم يبدأ
العمل فيه حتى ولا التمهيدى ، أما كوستى نفسها فتحتكى مركزاً صغيراً
عندنا غالب بيوتها أخصاص بسيطة ليس بها ماهو جدير بالذكر . غادرناها
نشق عرض الجزيرة فى أرض مبسوطة مهملة تربتها حمراء يكسوها العشب
البرى وتتخللها نواتى الجرانيت وهى بقايا الصخور القديمة التى حملتها عوامل
التعرية وكست بفتاتها تلك المتسعات تاركة هذه النواتى لأنها أشد صلابة
وأبقى على الزمان ، وكانت القرى التى مررنا بها صغيرة ونادرة وعند سنار
— وهى مدينة صغيرة لا تفوق كوستى — انحدرونا شمالاً وأخذت التربة
تسمر قليلاً وتشوبها المركبات الطفلية المصفرة التى كنا نراها ذائبة فى مياه
المطر الغزير وكان يملأ مسامح شاسعة يهدد سكة الحديد بالقطع ثم بدت
قناة الجزيرة الرئيسية وهى دون رياح من رياحاتنا تسير موازية للنيل الأزرق
ومجانبته ويحفها من الجانبين سلاسل متصلة من كومات الثرى الذى استخرج
من جوفها يوم حفرتها (الكراكات) التى كنا نرى الكثير منها صنداً مهملاً
وبين آونة وأخرى كنا نمر ببقاع زرعها ذووها ذرة وان كانت أغلب الأرض
مهملة وكما تقدمنا شمالاً انفسحت السهول الى الآفاق فى انبساط لا تكاد
تشوبه ربوة أو حفرة أو انحدار ، وتقاطع القنوات الفرعية التى تسير فى
استقامة متعامدة لا يدخل تحت حصر وهنازادت مسامح الذرة وبعد حصدها

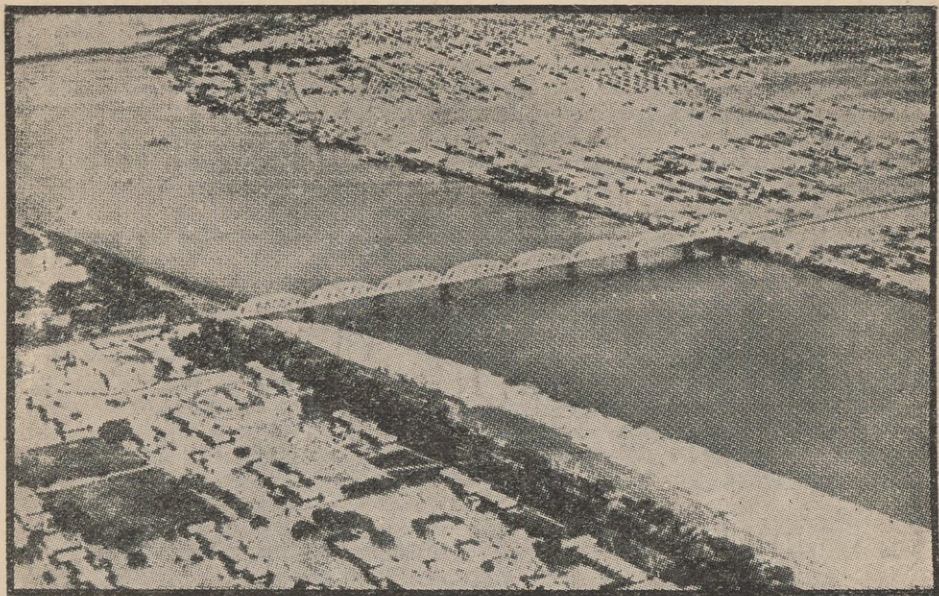


قطار سنار (مكوار) لرى الجزيرة

يزرع القطن عماد ذاك المشروع ، والتربة هنا شبيهة بتربة مصر السوداء إلا أنها أخف وأميل للاصفرار ، وقد علمت أن سمكها لا يزيد على ثمانين سنتيمترا من دونها الصخر الصلب الى ذلك فان درجة خصبها لم تحقق آمال ذويها ، فقد كان محصول القطن فى جميع السنين السالفة غير مرضى لافتقار التربة الى الخصب والبلاد الى الأيدى الماهرة الا أن محصول عامنا هذا كان وفيرا كما يقولون لكنه كاف الحكومة نفقات هائلة فى التسميد والعمل لايعوض ما أنفق القوم عليه ، والقطن هناك يزرع شتاء ويحصد فى الربيع وينضج سريعا فى خمسة شهور والأرض التى تكسوها الذرة الآن من أملاك الشركة تبيع للأهالى زرعها غلالا على شرط أن يدفعوا ثلثها للشركة والثلث ضريبة الحكومة والباقي لهم ، وقد اشترت الشركة جل أراضيها هذه من الأهالى بمتوسط خمسة جنيهاً للفدان والاقليم كله نادر السكان مبعثر القرى غالبا

يبنى بالطين واللبن وقل أن نرى الأخصاص الخروطية والسكان جميعا من
سلائل العرب يلبسون الجلابيب البيضاء الفضفاضة والعمائم الخفيفة الضخمة
والأحذية الحمراء (مراكيب) ويتكلمون العربية المحرفة ويدينون بالاسلام
وأنت ترى على حدودهم خدوشا طويلة يشقونها لتدل على قبائلهم بعضها
ثلاثة خطوط طولية متوازية والبعض عرضية وآخرون خطان طوليان
يصلهما في الوسط ثالث أفقي كحرف H وغيرهم ثلاثة خطوط كبيرة فوقها
ثلاثة صغيرة .

الخرطوم : واسمها مشتق من خرطوم الفيل لان شبه الجزيرة التي
تقع عليها تمتد لها طرف معوج في شكل خرطوم الفيل وهي تقع على الضفة
اليسرى والجنوبية للنيل الأزرق يقابلها على الضفة اليمنى الشمالية (الخرطوم
بحرى) والنيل الأزرق يتركها غربا فتشطره جزيرة توتى الى شعبتين
أفقية ورأسية والأفقية تلاقى النيل الأبيض في زاوية قائمة تمتد بعدها شمالا الى
النيل الأعظم ، وعلى الضفة اليسرى الغربية تقع أم درمان التي سميت كذلك
وراء امرأة تقيية كانت تتعبد وحدها في ذاك المكان ، أنشأ الخرطوم محمد
على باشا الكبير بين سنتى ١٨٢٣ — ١٨٣٠ ، وقد رآها النمساوى
(ارسلان بك) موفداً من قبله وهو الذى أشار بأن موقعها أمنع مواقع
شرق أفريقيا قاطبة ولم يكن بها اذ ذاك إلا بعض أكواخ حقيرة للزنج .
والمدينة حديثة التنسيق حاول اللورد كيتشر تنقيح تصميمها كي تحكى
تخطيط العلم الانجليزى (Union Jack) وليسهل استخدام مدافعه فى رءوس



الخرطوم و أمامها الى اليمين (الخرطوم بحرى)

الشوارع متى أراد ! وقد كان يحاول ذلك فى القاهرة نفسها ، وطرق الخرطوم فسيحة مرصوفة الوسط رملية الجوانب فى غير اطار تحفها أشجار مختلفة غالبيتها لم يبلغ علوا كبيرا ، ولقد أذكرتنى (بالزيتون) فى أنها رملية وكل بيوتها من طابق واحد غالبيتها يقام بالأجر الأحمر الصغير ، ولعل أجمل شوارعها شارع البحر (شارع كتشنر) وعليه حديقة الحيوان الصغيرة التى زرتها فبدت مجموعتها بأثة صغيرة . ثم قصر الحاكم العام وهو آخر قصور المدينة بنى على النظام القوطى يعلود العلمان المصرى والانجليزى ، وفى جزء منه بقايا قصر غوردون والمكان الذى قتل فيه الدراويش ثم قصر سلاطين باشا وفى آخر الشارع كلية غوردون التى أقامها كتشنر تذكارا لغوردون بمال اكتتبت فيه جهات الامبراطورية البريطانية كلها وهى أقسام أهمها : قسم الطب وله بناء

خاص بجوار محطة سكة الحديد وقسم المعلمين وقسم الحساب وكلها ترمى الى تخريج طائفة من الموظفين فحسب والمواد تدرس فيها باللغة الانجليزية وغالب المدرسين من الانجليز وكان للمصريين فيها نصيب لكنهم استبدلوا بهم طائفة من السودانيين . وكان بالكلية قسم حربى لتخريج الضباط لكنه أغلق عقب ثورة سنة ١٩٢٤ عقاباً للبلاد وامانة للروح العسكرية فيهم والضباط يرقون من الجنود . وبناء الكلية فاخر للغاية مقسم الى أجنحة من خلفها حديقة منسقة على نظام حديقة (الجامعة الأمريكية بالقاهرة) وأجل مراقبى منظر الطلبة وهم يلبسون الجلابيب البيضاء والعائم المنتفخة المهنفة والاحذية الحمراء (المراكيب) كل يتأبط كتبه وخلف الكلية بناء خاص لمنزل الطلبة وغالبهم يتخذون المدرسة سكناً (داخلية) ومن المباني الفاخرة فى شارع البحر (جراند أوتيل) يحكى (شبرد) عندنا ثم غالب مباني الحكومة والشارع تزينه أشجار اللبخ على جانبيه وتتعانق فى أعلاها فتحكى أقواس النصر وله رصيف على النيل مستقيم وهو خير مستراض ساعة الأصيل يليه فى الأهمية شارع (غوردون) الذى يليه موازياً له وتقوم عليه غالب قصور الانجليز يتوسطه تمثال غوردون يلبس الطربوش ويمتطى جملاً . وبالمدينة ترام حديث يصلها بالخرطوم بحرى وبأم درمان وهو لشركة انجليزية وأجوره غالية وبين الخرطومين قنطرة على النيل لمرور الناس والترام وسكة الحديد (والخرطوم بحرى) قرية أشبه (بعين شمس) غالب بيوتها صغيرة وطيبة تبنى بالبن أو الطين وهى متفرقة بينها متسعات من الأرض الرملية



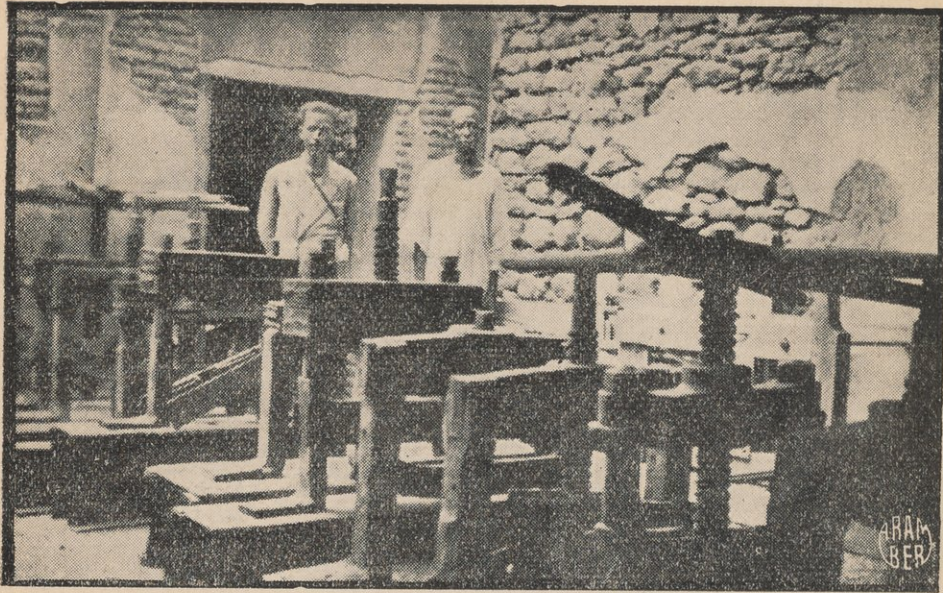
(فوق سطح بيت الخليفة ومنه كان يشرف على الميدان)

وعلى النيل تقوم مساكن الجيش المصرى الذى كان يربط فيها وغالبها اليوم خاو وقد شعر الناس ولا يزالون بالكساد الشديد ووقوف دولاب أعمالهم منذ خروج الجيش المصرى الذى كان يفرج عنهم بما ينفقه وهم يتحدث إلى العامة بأنهم منذ خروجه وهم في بؤس شديد وهنا قصوا على نبأ انسحابه حين ذهب (الكمندان) بعد أن أمر الجنود بالاستعداد لضرب الخرطوم كلها في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً أن هو تأخر مجاوزاً عند الحاكم إلى ما بعد ذلك ولما ذهب إلى الحاكم خاطبه قائلاً بأنه لا ينسحب إلا بأمر كتابي من جلالة ملك مصر فرد عليه بجفاء وغلظة وهدده أن يمنع عنه المؤن والغذاء فقال



(في بيت الخليفة وهو اليوم متحف تعرض فيه مخلفاته - أم درمان)
له إن لحق بنا أى شيء من ذلك هدمنا الخرطوم كلها وموعدي مع الجند
الظهر فعاد الحاكم وهدأه ! وظل الجيش حتى جاء مندوب جلالة الملك يحمل
خطاب الانسحاب في طيارة ، هنا تألم الأهليون والجنود السودانيون وكانوا
يرمقون اخوانهم المنسحبين بنظرات استهتار ولوم شديد
انتهى بنا الترام الى موضع في خرطوم بحرى عنده يبدأ ترام صغير
يسير بالبخار الى طرفها الشمالى عند محلة يسمونها (سلامة الباشا) منها ركبنا
البخرة عبر النيل الى أم درمان : التي أسسها محمد المهدي سنة ١٨٨٣
ثم ظلت تمتد عهد خليفته عبد الله التعايشي الذي لبث أربعة عشر عاما
وهو من عرب البقارة وكان القوم يسمون قلب المدينة (البقعة) يقوم بها

مسجد كبير بمئذنتين والى جوار النيل مسجد المهدي ومبانيه وهى أهم ما يزوره
السائح هناك ، دخلنا ردهة شاسعة كأنها ميدان عابدين كان يصلى فيها
المهدي الاوقات الخمسة اماما بالناس كل يوم ومن تخلف عوقب بالجلد
وبالسجن الى ستة شهور هنا دخل الثائرون ورفعوا رأس غوردون باشا
على أسنة حراهم وسط تهليلهم ، وفى ركن من الميدان بيت الخليفة وهو
من طاقين ولا بأس بتنسيقه أقيم بالآجر الذى جلب من كنيسة (صوبا)
التي هدموها — وصوبا كانت عاصمة حكومة النوبة التي حكمت مصر
يوما ما — وبعض أحجار البيت من أنقاض بيت غوردون وسقفه من
جداول الخوص تحتها الخشب وفيه اليوم متحف من مخلفاته : دروع وأردية
وسروج وأسلحة من بينها الحراب والمدافع ، ثم مطابع الحجر التي كان يطبع
عليها منشوراته وقد رأينا الكثير من تلك المنشورات كتبت بخطه فى
نصائح دينية ولغة جميلة ثم خاتمه المربع وسريره من خشب منسق مرتفع يجدل
وسطه بسيور من جلد وبعض نقوده وهناك بعض آلاته لسك النقود وبعض
الصحاف الكبيرة كان يقدم فيها الطعام للفقراء يوميا ، ومن المعروضات
سيف الخليفة وعربة غوردون وعربة الخليفة التي جلبها من الحبشة على متون
العبيد مخترقين بها الصحارى ، ولم يكن يبيح لأحد دخول أبوابه إلا لأخيه
يعقوب ، وأمام البيت مقبرة المهدي دفن فيها ، وكانت تتوسطها قبة عالية
هدمها الانجليز بعد فتح أم درمان ، وبددوا محتوياتها حتى أن الملكة
فكتوريا أرسلت تحتج على كتشنر لأنها لاتود اهانة العقائد هكذا فكان



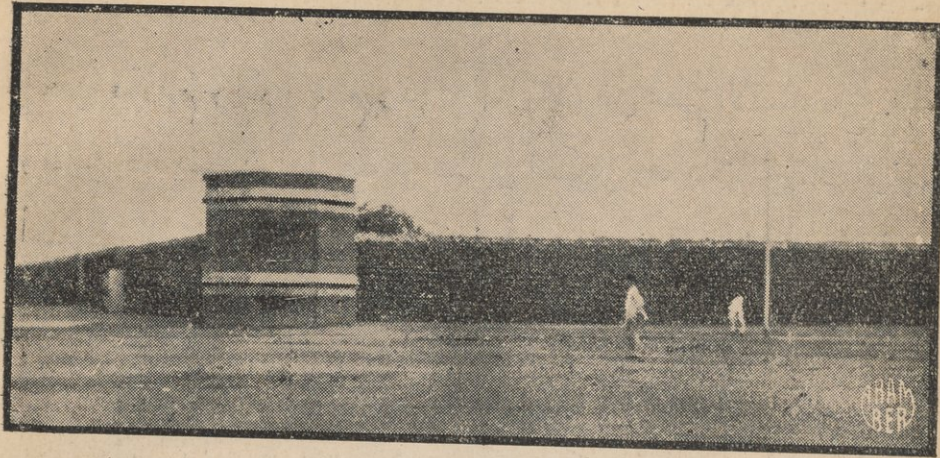
(بعض آلات الطبع القديمة فى بيت الخليفة بأم درمان)

اعتذاره أنه قصد بذلك صرف الناس عن تلك الخرافات ولم يقصد اهانة الدين ، والمقبرة اليوم مغلقة لايباح دخولها لكن رغم ذلك يفد الجماهير ليتبركوا بجدرانها ويقدموا لها القرابين

والى جوار المقبرة سجن الخليفة الذى زج فيه كثيراً من الانجليز والمدينة مكتظة بالبيوت الوطنية غالبها من الطين الإشارع واحد عليه مجموعة من (قلات) تؤدى الى القسم (مركز البوليس) ثم الى قنطرة أم درمان على النيل ومن فوقها يتجلى اللسان أو المجرن (Mogran) أى مقرن النيلين عنده لسان من الارض يجانبه النيلان حتى يندمجا وأنت ترى الماء بعده يسير مسافات بعيدة اللون الابيض الطفلى الى اليسار من النيل الابيض واللون الاسمر الطينى الى اليمين من الازرق ، وكان النيل الازرق إذ ذاك

في أعلى فيضيه بتياريه الجارف أما الأبيض فكان تياره هادئاً لأن ماء الأزرق يحجزه فيتراكم ويعلو ويتسع ولذلك بدا الأبيض عظيم الاتساع مائج الماء والناس هنا يشبهون أهل صعيد مصر في الشكل والعادات غير أن ألوانهم أميل إلى السواد حتى أنني أحياناً كنت أنسى أنني خارج مصر وألفت نظري ميلهم إلى الهدوء وعدم الضوضاء ، إذ كنت في الترام لا أ كاد أسمع كلاماً وان حدث فبصوت خافت وقد علمت أنهم لا يتشاجرون مطلقاً ويجب الواحد لأخيه الخير ويميل إلى معاونته ، وهم يذكرون مصر والمصريين أطيب الذكري ويتكلمون عن مصر وكأنها وطنهم

قصدت شجرة غوردون إلى جنوب الخرطوم في مكان اعتاد غوردون أن يركب إليه كل أصيل ويجلس تحت شجرة لاتزال هناك مطلة على النيل الأبيض وقد زرتها لأرى ما تقوم به مصلحة الري المصرية هناك من المنشآت فقد اتخذت المنطقة مستعمرة للري أقامت بها البيوت الفخمة وهي تتخذ شاطئ النيل مرسى لأسطولها والعمل قائم هناك لتصبح المنطقة مقر عمارة وميناء للأسطول المصري وقد أدهشني ما بدا لي من اسراف شديد وتبديد في الأموال في شيء خبرني كثير من مهندسين ألا طائل تحته . وزاد عجبى لما رأيت غالب الموظفين والقائمين بالعمل من غير المصريين ، ولما أردنا الدخول لم يسمح لنا رغم من كانوا معي من المهندسين المصريين وقالوا لا بد من ترخيص من الرياسة الانجليزية وكانت على الباب لوحة كتب عليها : جناب المستر فلان هو دون غيره المتصرف المطلق في تعيين الموظفين والعمال



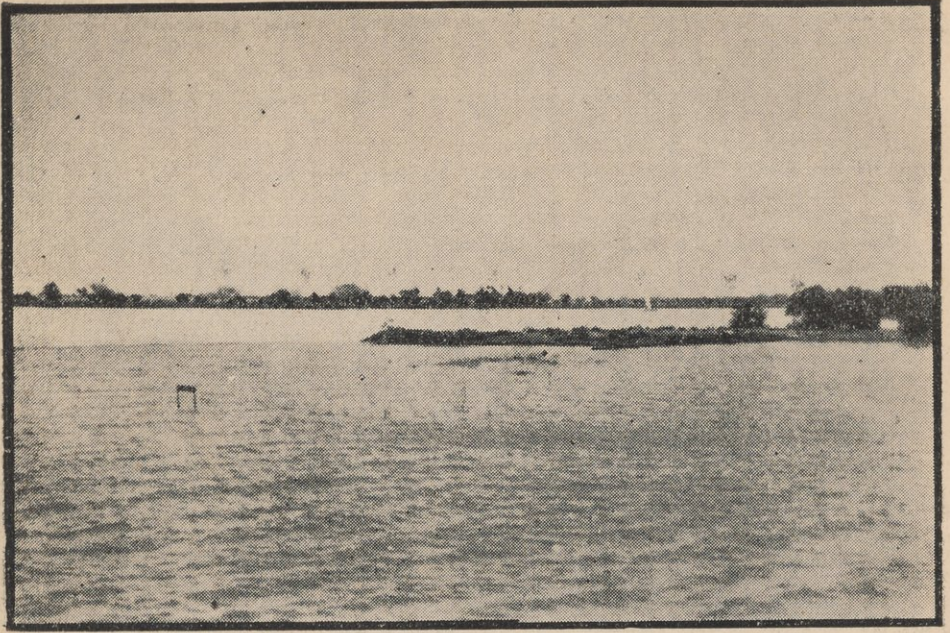
(سجن الخليفة الذى زج فيه كثيرا من الانجليز فى أمدرمان)
وفصلهم ، والناس هناك مندهشون لهذه المنشآت التى تنفق فيها الأموال
تحت ستار الإصلاح ، ولما سألت كم باخرة تحتاج للإصلاح سنويا حتى تقام
تلك العمائر التى بدت وكأنها مدينة صناعية صاخبة كان الجواب الضحك
والسخرية لأن قطع الأسطول كله محدودة العدد !
برحت الخرطوم فى صباح منتصف سبتمبر فسار بنا القطار يشق أراض
مبسوطة يكسوها العشب المنثور والشجيرات الشائكة الا فى بقع قريبة من
النهر كانت تقوم فيها أعواد الذرة (العويجة) وغالب تلك الأراضى الجيدة
القريبة من الخرطوم تملكها عائلة المهدي والمرغنى وهما من الطوائف المرضى
عنهم ! معهم بعض الأجانب ولهم آلات لرفع الماء (وابورات) على أن الأغلبية
أراض مهملة . وكما تقدمنا شمالا بدت الربى الجرانيتية متفرقة فى مخاريط
حولها أراض شبه صحراوية ثم أخذت تتصل تلك الربى وتتقارب فأضحت
نجاداً ثم ظهر خانق شبوكا فى سلسلتين من الجرانيت متجاورتين جداً بينهما



(امام قسم ام درمان يرفرف عليه العلمان المصرى والانجليزى)
ماء النيل وفي نهايته تبدو الجنادل مترامية . بعد ذلك عادت السهول
واختفت الربى وأضحى المنظر صحراويا كثير الرمل والحصى ثم دخلنا
شندى ومن ورائها بدا النيل تقوم عليه بيوت من اللبن والطين وهنا فاجأنا
مطر غزير لطف الجو وخشى القوم نزول السيول التى تهدد تلك المنطقة في
مواسم المطر وقد تبلغ من الشدة أن تحتاج طريق القطار وإذا وصل بعضها
النيل اندفع فيه وأوقف تياره وشق له طريقاً الى الضفة الأخرى ومصلحة
سكة الحديد تعرف مواضع الخطر وتتقيه بأن تمد أسلاكاً يدفعها الماء فتدق
الأجراس فى المحاط وتأمّر بأيقاف القطار حتى يعاين المكان (عمال الدريسة)
وها قد وقفنا ساعة فى المحطة التى تلى شندى . ومنطقة شندى وما حولها
أشهر مناطق السودان بالمسلى لجودة مراعيها بكافة أنواعها .

ظل المنظر حولنا سهولا تكسوها الأشواك شبه الصحراوية وقد
تتخللها ربي الجرانيت ولبث النيل ملازماً لنا وهو غامر الفيض يسامت
مأوء الضفاف وقد يعدوها الى المنخفضات المجانية له فتبدو في قنوات متلوية
حولها أرض خصيبة وقبل دخولنا مدينة عطبرة (اتبره) جزنا بلدة الدامر ثم
بدت عطبرة حيث اخترق القطار قنطرة على نهر عطبرة وكان في أعلى فيضه
عظيم الاتساع كأنه نيل مصر الفسيح في تيار جارف وماء كدر أحمر حقق
في ظننا ما نعلمه عنه في كثرة أمداد النيل بالطمى بنسبة تفوق أمداد النيل
الأزرق نفسه على أنه بعد قليل يغيض مأوه حتى يصبح شبه أخوار بها
مسارب ضئيلة وقد خبرني القوم انهم يخترقونه اذ ذاك سيرا على الأقدام
دون أن يصيبهم بلل .

دخاننا المدينة التي تقع على العطبرة والنيل وهي كبيرة كأنها أسيوط
في أضوائها الكهر بائية ومبانيها المنسقة وأرصفتها الممدودة وهي نقطة تلاقي
سكة حديد بور سودان وحركتها التجارية صاحبة ومن أغرب ما تصدره
محصول (الدوم) أو (المقل) الذي رأينا من شجره الكثير وهنا ينقل الى
مصنع لتكسر الطبقة الخارجية ثم يخرط اللب (المقل) ويصدر عن طريق
بور سودان الى أوروبا واليابان لعمل الأزره للسراويل على أنه قل اليوم
عن ذي قبل وأضحت كسلا أشهر البلاد به . مررنا بعدها بمدينة بربر
واسمها أكبر منها لأنها بدت قرية بيوتها من اللبن والطين وهي وطيئة
لا تعدو طابقاً واحداً



(المقرن فاصل النيل الازرق الى اليمين والايض الى اليسار وفي المقدمة ام درمان)
هنا جرنى الحديث مع طائفة من علية القوم الذين أكدوا أن اخلاص
أهل السودان جميعاً لمصر عميق متأصل على أنهم نددوا بالمصريين الذين
كانوا فى السودان اذ لم يحاولوا ادماج البلاد فى مصر فكان ضباط الجيش
مثلا اذا أرادوا الزواج هناك صاهروا الزوج المنحطين ولم يحاولوا مصاهرة
العرب وكان القضاة الشرعيون يترفعون عن أهل البلاد ثم قال بعضهم :
انظر الى وزارة الأوقاف المصرية مثلا كيف أهملت التعليم الدينى ولم تعاون
على فتح المدارس الاسلامية واقامة المساجد مقابل ما تفعله هيآت التبشير
اليوم هناك والحق أن من حل السودان من المصريين لم يخلفوا شيئا من ذلك
ولم يخدموا مصر فكم قرأت أسفاراً نفيسة ومجلدات ضخمة كتبها الانجليز

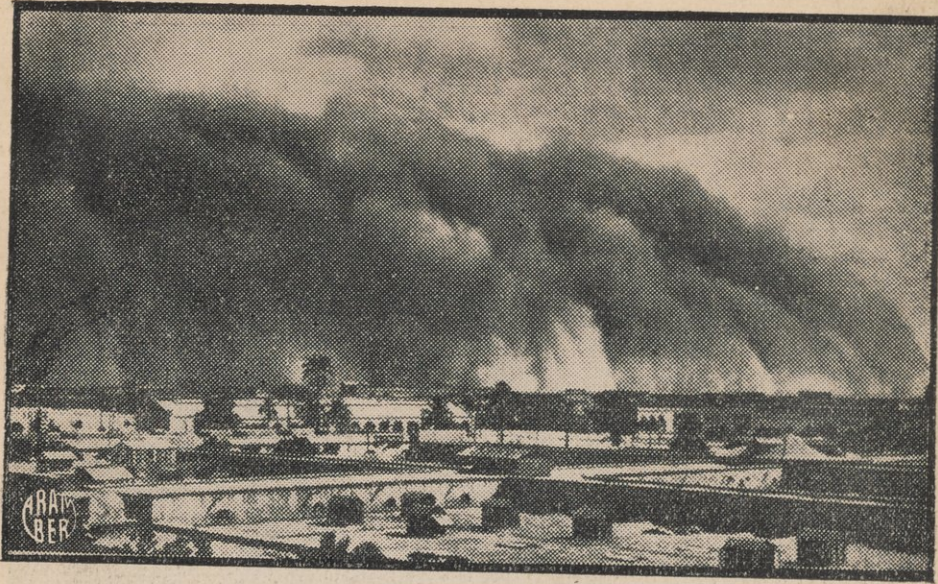
ممن كانوا موظفين بالسودان خدموا فيها الناحية الانجليزية وأغفلوا المصرية
 لا بل وبعضهم كان يتوج كتابه باسم (السودان البريطاني) ويتهم على
 المصريين ممن كانوا موظفين معه ويرميهم بالخور والترفة وعدم الرغبة في
 الإقامة هناك مظهرين أمانهم أن ينقلوا الى جنة القاهرة والتخلص من جحيم
 جواء السودان وما الى ذلك من الخط من شأننا ، وكان من السهل على
 المصريين أن يمهّدوا السبل لآخوانهم ممن سيحلون بعدهم ويهونوا عليهم
 أمر الارتحال الى السودان الذي لم أرى في جوه كبير فرق عن جو مصر رغم
 ما كنت أسمع من مبالغات آخواننا في حره اللافح لكنه الجهل أو الإهمال
 الذي أساء إلينا الى هذا الحد ، وقد روى لي بعضهم حادثة ظريفة هي أن
 الخديوى سعيد باشا لما زار السودان أمر باعفاء البلاد من الضرائب ذاك
 العام وبالإفراج عن المسجونين تخليدا لزيارته ولما جاء عباس حلمي وزارها
 سنة ١٩٠٢ أعطيت الأوامر لكبار الموظفين أن يحتاطوا به دائما احتراماً
 له وحفاوة به في الظاهر والواقع انهم كانوا يرمون الى إبعاد الناس عن الاتصال
 به فأقبل رجل اسمه (محمد مكين) وتقدم ليصافح الخديوى فمنع بحجة أن
 الخديوى تعب فصاح الرجل قائلاً بأنه غني موسر لا يريد من وراء ذلك
 عطاء فسمعه الخديوى وكان يتفق المكان الذي قتل فيه القائد اسماعيل باشا
 في موقعة شندي فناده وصافحه فقال الرجل : أن جدك سعيد قد خلف في
 البلاد مكرمة كبيرة فما مكرمتك ؟ قال : زمن سعيد غير زماننا . يعني ان
 السودان كله كان ملكاً لمصر وحدها اذ ذاك فقال الرجل : (في نصفك



(في محطة شندى والى جانبى احد طلبة كلية غوردون بملابس الدرس)
سَوَّلَكَ شَوِيَّةً) وهو عتب معناه ان لم يكن وابل فطل أو أنت فى حقك
متهاون فجرى هذا القول مجرى المثل على ألسن الناس جميعاً الى يومنا هذا
ويقولونه فى مقام طلب التصرف فى الجزء المملوك .

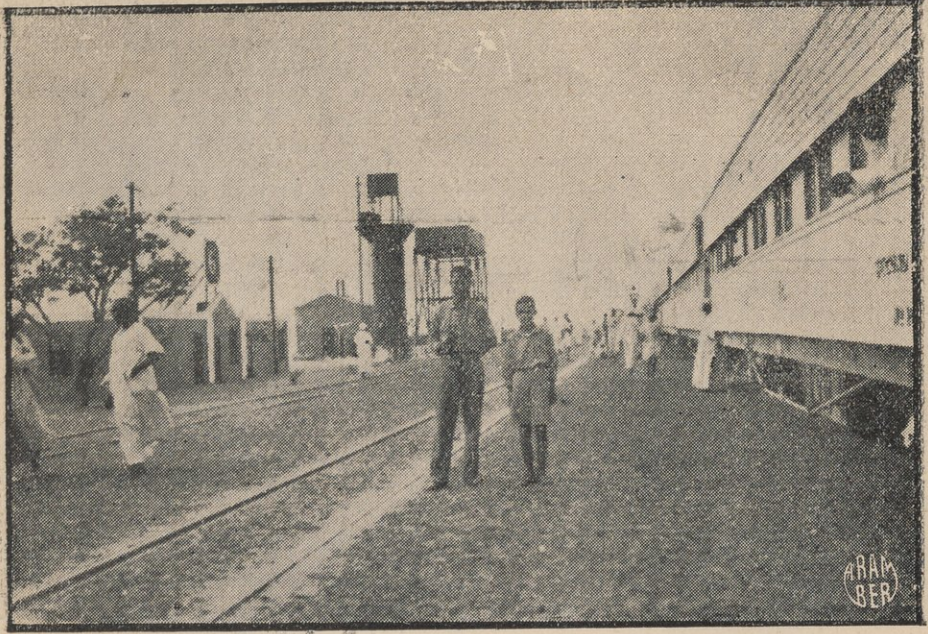
ومما قص بعضهم وهو متألم نبأ انسحاب الجيش المصرى أخيراً رغم
تضامنه مع السودانى الذى فى أغلبه دافعاً عن حق مصر وحفظاً للعهد التضامن
بينه وبين الجنود المصرية

دخلنا (أبو حمد) وهى بلدة صغيرة ريفية وبعدها أوغلنا فى صحراء
رملها ناعم كاد يطمرنا بهبوبه وكانت تبدو نواتى الجرانيت مبعثرة ويسمونها
أحياناً صحراء العتمور أو عتمور أبو حمد والمسافة بين أبو حمد وحلفا ليس بها



(الهبوب الرملى الذى يداهم الخرطوم فيكاد يطمرها)

بلدان مأهولة كبيرة بل محاط لوقوف القطار كى يزود بالماء وهى عشر نمر
أهمها المحطة رقم ٦ وسبب شهرتها ان منها طريقاً يؤدى الى أم نباره حيث
توجد مناجم للذهب وقيل ان المأمون أرسل جيشه الى هناك واستغلها وقد
قاوم الجيش أهل البلاد من عرب البشاريين والبجا ويروون ان المأمون
أزعج ابلهم بالدق على الصفائح وكان هذا سبب انتصاره عليهم ومنها طريق
الى دتقله غربا. والبشاريون مبعثرون شرقاً بين أبو حمد وأسوان ، أما النوبيون
فكانوا فى الأصل سكان النيل نفسه لا الصحراء ابتداء من اسوان جنوباً
ولما دخل العرب اعتنقوا الاسلام واختلطوا بهم خصوصاً أهل دتقله ولذلك
يحاول كل نوبى أن يسمى نفسه (دتقلاوى) ويغضب اذا قلت له بأنه نوبى
اللهم إلا أولئك الذين يجاورون اسوان وهؤلاء يحتقرهم باقى الأهالى المنتسبين



(فى المحطة رقم ٦ وسط عتمور ابو حمد)

الى العرب ويرمونهم بالخسة بدليل احترافهم الأعمال الوضيعة فيما لا يزيد على عمل الخدم . أما الفريق من النوبيين الذى رفض الاسلام فهاجر جنوباً واعتصم بجبال النوبة حول تالودى وكلهم لا يزالون وثنيين وقد جئنا فيما سبق على طرف من سيرتهم

لبثنا نسير فى بادية النوبة (العتمور) تسع ساعات ثم بدت جبال الخرسان التى يجانبها النيل الضيق حوله نطاق ضيق من المزارع يزينها النخيل وهى بدء حلقا التى وصلناها فانتقلنا توا الى الباخرة بعد أن مررنا بالجرك حيث سألنا الحراس عن الممنوعات أمثال : الأسلحة والعاج وريش النعام وشعر الزراف . أما الباخرة فريحة جميلة هى أفخر من جميع البواخر



(وسط الشارع الرئيسى فى وادى حلفا)

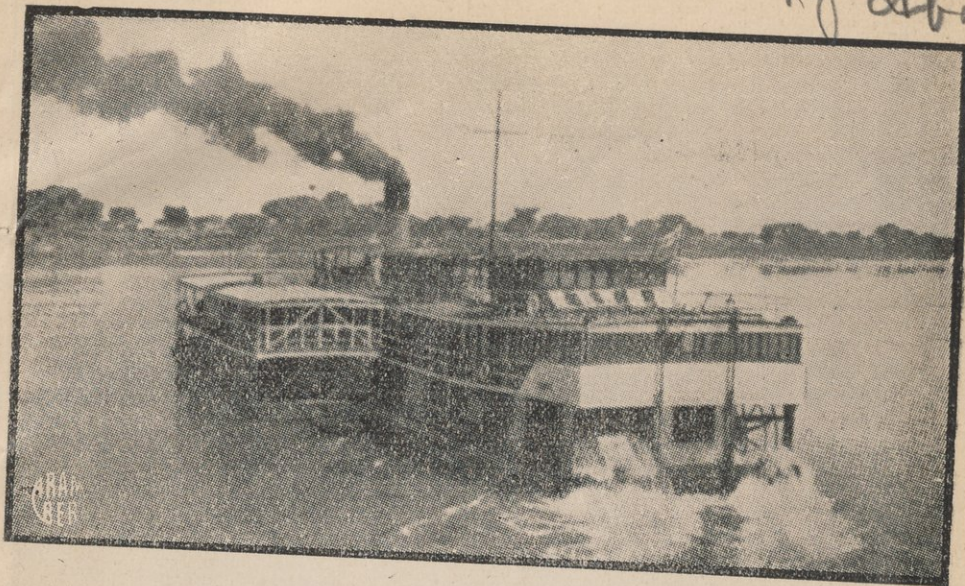
السابقة . ووادى حلفا جبنها فى أقل من ساعة فهى كالمرآة الصغيرة
عندنا طرقها ضيقة يظاها شجر البخ وأظورها طريق البحر (النيل) . قنا
نشق النيل تحفه الجبال الرملية تحتها المزارع والنخيل ولبثت تلك طويلا
والنيل يمتدق تارة وينبسط أخرى وأخذت الحضرة تشح فى الضفة اليسرى
حتى كادت تنمحي تماما وسادت الصحراء والشجيرات الشائكة وبعد ساعتين
مررنا بمحطتين لبوليس الحدود احدها الى اليمن والأخرى الى اليسار والى
جانب اليمن بيت رجل يمتلك بعض الأراضى يتوسطها مسكنه الصغير وقد
صادف ان خط الحدود بين السودان ومصر مر بالبيت فشطره ولما أرادت
الحكومة تعويضه لتركه أبى وأصر على الاحتفاظ به فترك له وهو اليوم



(البيت الصغير الذى يقع نصفه الجنوبي فى السودان والشمالى فى مصر)
يدفع عن جزئه الجنوبي الضرائب لحكومة السودان وعن الجزء الشمالى
للحكومة المصرية .

تعددت الربى المجدة ثم اتصلت فى سلسلة جبلية الى اليسار وتجلت فى
وسطها تماثيل (ابو سمبل) الرائعة وهى جاثمة تشرف على النهر ثم أخذت
تبدو المنابت تارة الى اليمين وطورا الى اليسار وسط تلك الصحراء المجدة
وكان أظهرها النخيل والذرة وفى كثير من البقاع كان الشاطئان مقفرين
فى صخور منحدره الى سطح الماء فى درجات سريعة . بتنا ليلتنا نرسو على
مقربة من الدر وفى با كورة الصباح أقلعنا وأخذت القرى تزيد عدداً فى
بيوت متجاورة رغم ضيق النطاق المنزرع وكلها من الطين النظيف تطل

✓ my boat there Food 1st
of Aband B. 200



(الباخرة التي أقلتنا من حلفا الى الشلال)

بعشاء من الجير الأبيض ويزينها جميعها المسجد ذو المئذنة القصيرة وكثير
من البيوت يقوم على مدرجات الصخر بعضها فوق بعض وظهور في الصخور
الحد الذي يصل اليه مستوى الماء عند ما يمتلي الخزان اذ يبدو الصخر أسفله
في لون اردوازي يعلوه الصخر الجرانيتي الأحمر واخذ ذلك الحد يزيد علوا كلما
قاربنا (الشلال) وفي كثير من الجوانب كانت تظهر المعابد المصرية وفي
الخامسة مساء رسونا وراء مدينة الشلال لندخلها صباحاً وذلك قصداً من
السينية في دفع رسوم الميناء

(تمت بحمد الله)

فهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الهوتنتوت	٨٢	مقدمة	٣
مشكلة السكان في جنوب	٨٤	نبذة تاريخية	٥
أفريقية		بدء الرحلة	١٥
الحاجز اللوني	٨٩	عدن	١٧
جنوب افريقية وكيف	٩٥	مباسا	١٨
منعت من دخوله		اللغة السواحلية	٢٢
بلاد كينيا (مباسا)	١٠٥	تانجا	٢٦
جبل كلنجارو	١٠٧	زنجبار	٢٠
حرم الحيوان ومسرحه	١١٠	القرنفل	٣٢
السبع	١١٣	دار السلام	٣٨
الفهد والشيئا	١١٦	إلى شرق أفريقية البرتغالية	٤٤
الزراف	١١٧	الملاريا	٤٥
النعام	١١٨	موزمبيق	٤٧
نيروني	١٢٠	بيرا	٥٠
جبل كينيا	١٢٦	رودسيا	٥٢
المساي	١٢٧	لونزو ماركوز	٥٧
متحف نيروني	١٣٤	الباتو	٦١
إلى الأخدود الاعظم	١٣٦	أرض الذهب (ترنسفال)	٦٩
الأخدود الاعظم	١٣٨	الماس (أورانج)	٧٢
إلى فكتوريا نيانزا	١٤٠	إلى ناتال	٧٦
كيسومو	١٤٢	البشمن	٨٠

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
جوبا وبحر الجبل	٢١١	فكتوريا نيانزا	١٤٤
بور	٢١٦	كامبالا	١٤٧
غابة شامبي	٢١٩	تاريخ أوغندا والطاغية	١٥٠
الدنكا أو الدنقه	٢٢٠	موتيزا	
في صميم منطقة السدود	٢٢٦	عنبة	١٥٧
مرض النوم	٢٢٩	التمساح لوتيمبي	١٦٣
إلى النيل الأبيض	٢٣٠	جبال القمر	١٦٩
النوير	٢٣١	إلى جنجا منفذ النيل	١٧٣
النيام نيام	٢٣٦	إلى كيوجا ، ناماسجالي	١٨٠
إلى السوبات	٢٣٨	ماسندي	١٨٢
الملسكال	٢٣٩	بيوتيا با	١٨٥
الشلوك	٢٤٢	الفيل	١٨٩
في النيل الأبيض	٢٥٨	العاج	١٩٣
دار النوبة	٢٥٩	فرس الماء	١٩٤
إلى الخرطوم	٢٦٦	نيل البرت	١٩٦
الخرطوم وأم درمان	٢٧٠	الخرتيت	٢٠١
نهر الخرطوم إلى أسوان	٢٧٨	السودان	٢٠٧
		من نيمولي إلى جوبا	٢٠٩

صور الكتاب مائة وخمسون (١٥٠) حسب هذه الموضوعات

i 1482162x

B 13075524

ود

رومان
أسوان

وعات

DATE DUE

te Due

DT
12
M77
1933
c.2



MAY 1974

